



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة البليدة 2 لونيبي علي 02
كلية: الآداب واللغات
قسم: اللغة العربية وآدابها

آليات التشكيل الأسلوبي في الخطاب القرآني
_ مقارنة أسلوبية لسورة البقرة _

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة والأدب العربي
تخصص: نقد حديث ومعاصر

إشراف الأستاذ:
أ.د. ميلود شنوفي

إعداد الطالبة:
نصيرة كروشي

الموسم الدراسي: 2023/2022



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة البليدة 2 لونيبي علي 02

كلية: الآداب واللغات

قسم: اللغة العربية وآدابها

آليات التشكيل الأسلوبي في الخطاب القرآني

_ مقارنة أسلوبية لسورة البقرة _

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة والأدب العربي

تخصص: نقد حديث ومعاصر

نوقشت بتاريخ 16-05-2023

إشراف الأستاذ:

أ.د. ميلود شنوفي

إعداد الطالبة:

نصيرة كروشي

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	مؤسسة الانتماء	الصفة
سعيد تومي	أستاذ محاضر أ	البليدة 02	رئيساً
ميلود شنوفي	أستاذ التعليم العالي	بومرداس	مقرراً
عيسى بكوش	أستاذ محاضر أ	الشلف	ممتحناً
محمد بلعزوقي	أستاذ محاضر أ	البليدة 02	ممتحناً
سامية عليوات	أستاذ محاضر أ	بومرداس	ممتحناً
غنية لوصيف	أستاذ محاضر أ	البويرة	ممتحناً

الموسم الدراسي: 2022/2023

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إليكم

بدون استثناء

رَفَعَ اللَّهُ مَقَامَكُمْ وَعَزَّ شَأْنَكُمْ

وَتَبَوَّأْتُمْ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا

شكر وتقدير

نحمد الله عزّ وجلّ أن قدّر لي العمل لخدمة كتابه العظيم، وأرجو القبول والسداد.
كما أتقدّم بأسمى عبارات الثناء والعرفان لأساتذة قسم اللغة العربية وآدابها جامعة
البليدة وأخصّ منهم الأستاذ المشرف ميلود شنوفي لتوجيهه وصبره حتى يستوي
البحث.

والشكر الخالص أتقدّم به إلى الأستاذ سعيد تومي رئيس مشروع الدكتوراه؛ حرصاً
واجتهاداً ومقاماً وإن شاء الله يكون خطوة ودرجة في ميزانك.

وكلّ الودّ والامتنان إلى أساتذة جامعة حسيبة بن بوعلي

كلّ باسمه وبمقامه.

ملخص:

تعدّ النظرية الأسلوبية في الدراسات النقدية الحديثة من أكثر النظريات اللسانية التصاقاً بعلوم القرآن، وذلك لدورها الرئيس في تحديد معنى النص، إذ من خلالها نتمكن من اكتشاف بنيته على وفق منهج نقدي دقيق، وبها كذلك نتمكن من رصد أهم الظواهر المنزاحة عن نظامها المؤلف، والدّرس النقدي القديم، وإنّ وهب الخطاب القرآني الاهتمام الأمثل في المجال الإجرائي إلا أنّه وقف عند حدود الوصف، من دون الخوض في الأنساق الدقيقة لأسلوبية التّوظيف القرآني للكلمة، ومن دون اعتماد منهج بائن يستطيع الباحث أن يعتمد عليه. ومن وجهة أخرى فإنّ النظرية الأسلوبية قد وسّعت مجال دراستها لتشمل اللّغة من زواياها الإيقاعية، الصّرفية، التركيبيّة، الدّلالية...

وبناءً على هذا فإنّ هذه الدّراسة تستهدف معاينة الخطاب القرآني، وترصد جماليته وفقاً لمقتضياته الأسلوبية وبناءه اللّغوية؛ استقراء لمعالمه المتوارية وتصعيداً لدلائله، ناهيك عن طرح تنظيري للمفاهيم الأساسية، ومن ثمّ اختتمناها بنبذة من النتائج؛ ملخصها أنّ الخطاب القرآني نظام بنيائي دالّ تعبّره أنساق دلالية تقتضي تطوير سبُل فهمه وتطويعها بالشكل الذي يليق به.

الكلمات المفتاحية:

الخطاب القرآني/ النظرية الأسلوبية/ البنيات الأسلوبية/ الحداثّة/ التّراث العربي.

The Abstract :

The stylistic theory in modern critical studies is considered one of the linguistic theories most attached to the sciences of the Qur'an, due to its main role in defining the meaning of the text. And the old critical lesson, although the Qur'anic discourse was endowed with optimal attention, it stopped at the limits of description, without delving into the stylistic use of

the Qur'anic word, and without adopting a clear approach that the researcher can rely on. On the other hand, stylistic theory has expanded its field of study to include language from its rhythmic, morphological, structural, and semantic angles...

Based on this, this study aims to examine the Quranic discourse, and monitor its aesthetics according to its stylistic requirements and linguistic structure. An extrapolation of its hidden features and an escalation of its evidence, not to mention a theoretical presentation of the basic concepts, and then we concluded it with a number of results; Its summary is that the Qur'anic discourse is a constructive system crossed by semantic patterns that require the development of ways of understanding it and adapting them in the manner that befits it.

key words:

Quranic discourse / stylistic theory / stylistic structures / modernity / Arab heritage.

فهرس المحتويات

البسمة

إهداء

شكر

ملخص

فهرس

مقدمة.....01

الفصل الأول

الأداء القرآني وأثره في إبراز المعاني

الحدّ المنهجي وأفق التساؤل.....08

أولاً: الإعجاز الصّوتي القرآني؛ إشكالية التّلقي وحدود القراءة.....10

01- إشكالية تلقّي الإعجاز الصّوتي في الفكر العربي القديم.....12

02- إشكالية تلقّي الإعجاز الصّوتي في الفكر العربي المعاصر.....19

ثانياً: الصّوت القرآني وأثره في احتواء المعاني.....24

01_ دلالة الهمس والجهر في سورة البقرة.....27

02- دلالة أصوات الشدّة والرخاوة في سورة البقرة.....35

03- دلالة الإطباق والانفتاح في سورة البقرة.....40

04- دلالة الاستعلاء والإستفال في سورة البقرة.....45

05_ دلالة الإذلاق والاصمات في سورة البقرة.....49

54.....	ثالثًا: الفاصلة القرآنية؛ كآلية لغوية وسمة أسلوبية.....
56.....	أنماط الفاصلة القرآنية في سورة البقرة.....
61.....	رابعًا: الإيقاع القرآني؛ بين وَقْع الصِّيَاغَة وأثر الدَّلَالَة.....
62.....	01_التَّجْنِيس.....
64.....	02_المطابقة.....
66.....	03_المشاكلة.....
68.....	04_المقابلة.....
71.....	استدلال الختامي.....

الفصل الثَّاني

الصَّوْغُ القرآني للبناء الصَّرْفِي

74.....	الحدّ المنهجي وأفق التساؤل.....
76.....	أولاً: أسس التَّوْظِيفِ البلاغي لصيغة الكلمة.....
80.....	ثانيًا: التَّصْمِيمُ القرآني للصَّيْغِ الصَّرْفِيَّةِ؛ هندسة الأبنية وهيئة الأقيسة.....
81.....	01: التَّوْظِيفُ القرآني للأبنية الفعلية.....
82.....	1.1. الضَّبْطُ الزَّمَنِي للبناء الفعلي؛ من حيث المُغَايِرَة والمطابقة.....
95.....	2.1. البناء المبني للمجهول؛ من حيث الاقتضاب اللَّفْظِي والتَّمَكِينُ الدَّلَالِي.....
103.....	3.1. نمطية اشتغال الفعل؛ من حيث الصَّحَّة والاعتلال.....
114.....	4.1. النَّمَطُ الوِظَائِفِي للبناء الفعلي؛ من حيث الجمود والاشتقاق.....
121.....	ثالثًا: المقاس القرآني لهيئة المشتقات: بين صناعة اللَّفْظ وإثراء المعنى.....

122.....	1.2. اسم الفاعل؛ الصيغة والدلالة
130.....	2.2. الصفة المشبهة؛ الصيغة والدلالة
135.....	3.2. صيغة المبالغة؛ الصيغة والدلالة
138.....	4.2. اسم المفعول؛ الصيغة والدلالة
141.....	5.2. اسم التفضيل؛ الصيغة والدلالة
145.....	رابعاً: هيئة الجموع ونمط ورودها
146.....	1. جمع المذكر السالم؛ الصيغة والدلالة
149.....	2. جمع المؤنث السالم؛ الصيغة والدلالة
152.....	استدلال ختامي

الفصل الثالث

التعاضد القرآني للتركيب الألسني

155.....	الحد المنهجي وأفق التساؤل
159.....	أولاً: النسق اللغوي القرآني؛ صوغ مستجد للنظم الأسلوبي
167.....	ثانياً: التركيب القرآني للوحدات اللسانية
168.....	01- الجملة الاسمية وتمظهراتها التركيبية؛ مثبتة، مؤكدة، منفية
168.....	1.1. الجملة الاسمية في تركيبها المثبتة
168.....	أ_ الجملة الاسمية البسيطة
175.....	ب_ الجملة الاسمية الموسعة

184.....	2.1. الجملة الاسمية في تركيبها المؤكدة.
189.....	3.1. الجملة الاسمية في تركيبها المنفية.
192.....	02_ الجملة الفعلية وتمظهراتها التركيبية؛ مثبتة، مؤكدة، منفية.
192.....	1.2. الجملة الفعلية في تركيبها المثبتة.
195.....	2.2. الجملة الفعلية في تركيبها المؤكدة.
198.....	3.2. الجملة الفعلية في تركيبها المنفية.
202.....	03_ التركيب القرآني للجملة الإنشائية؛
203.....	1.3. فاعلية الأساليب الإفصاحية في توجيه المعنى.
206.....	2.3. فاعلية الأساليب الطلبية في توجيه المعنى.
220.....	04- التركيب القرآني للجملة الشرطية.
224.....	ثالثاً: مقتضى العدول القرآني؛ بين حمل المعنى وكسر الأفق.
235.....	استدلال ختامي.

الفصل الرابع

الانتقاء القرآني للنظم الدلالي

237.....	الحد المنهجي وأفق التساؤل.
239.....	أولاً: سمات النظم القرآني.
247	ثانياً: الأثر الفني للتصوير القرآني.
249.....	الصورة التشبيهية.
252.....	2. الصورة الاستعارية.

255.....	3. الصورة الكنائية.....
258.....	ثالثاً: التّضافر الأسلوبي للحقول الدّلالية.....
259.....	1. حقل الذات الإلهية.....
260.....	2. حقل القدرة الإلهية.....
262.....	3. حقل الوعظ والتّهذيب.....
264.....	4. حقل الجزاء والعقاب.....
265.....	استدلال ختامي.....
267.....	خاتمة.....
269.....	قائمة المصادر والمراجع.....

مقدمة

الإكتفاء اللّغوي القرآني؛ المبلغ الذي لا تُستنفد مداليله ولا تُحدّ مَبانيه، الإعجاز الذي لا تُعْليه سلطة ولا تُقوّه إمرة، السرّ الذي لا يُدرکه إجتهاد ولا يرصده تنظير، ما يستحيل على الدّارس الأسلوبي مُعاينته من دون الدّاعي العلمي الصّارم المُستلّ من أصول الثّراث العربي ومستجدّات الحداثة. والإدارة القرآنيّة للمفردة؛ بتعدّد وظائفها تُستجدّ طُرُقًا فنيّة دقيقة في توزيع المهام وضبط الوحدات، وهو الرّكن الذي أخضع الواقع النّقدي دائبًا في فحص أبنيتّه وتأويل محمولاته على نحوٍ شديد الإحتراز، لذلك ظلّت إشكالية النّظم القرآني سُؤل الدّارسين، ومبتغى مُترفعًا يفوق استطاعتهم.

وإفصاحًا عمّا وصل إليه النّقد المُعاصر؛ أنّ للمفردة القرآنيّة جُذورًا أعمق من أن تُستأصل دلائلها، وفروعًا أشمخ من أن تقتطف دُررها، قد وُهِبَتْ قوّة وجودها وسُوددَ حضورها وسلطان مقصدها، الأمر الذي لا سبيل إلى إدراكه بغير الاستقراء الكلّي والتّشخيص البنوي للعلاقات النصّية بعضها ببعض، وعلاقتها السّياقيّة من ناحية أخرى. غير أنّ هذا المرمى سننوّسّل إليه بمقاربة ممنهجة نَتّخذها محرّكًا لمعاينته ومُساءلة مضامينه، أساسها السّعي خلف تصعيد الدّخائر الأسلوبيّة ورصدها، مع أنّنا لا ننكر؛ مُعاينة الخطاب القرآني تَصَحّبُها الكثير من الرّهبة والتّردد، إجلالًا لهيبته وتقديرًا لشأوه.

وبما أنّ هذه الدّراسة الموسومة؛ بآليات التّشكيل الأسلوبي في الخطاب القرآني تسعى لإقامة تصور استقرائي توصيفيّ يستهدف خصوصية الخطاب القرآني، دون الاكتفاء بالجواهر الجواني للبنية إلى التّحرّي العلمي لمُختلف حيثياته، فإنّا نتغيّا مُجابهة الإشكالية التّالية: ما الذي يُميّز الخطاب القرآني بنائيًا وأسلوبيًا وتحديدًا سورة البقرة؟ وقد اجْتَبَيْنَا سورة البقرة كأنموذج أوّلي لهاته المُعاينة؛ لما تحذقُ به؛ من خصب أسلوبي، غَدَفٍ دلالي، ونُظُمٍ بنائي، ناهيك عن التّناسل

البلاغي والامتداد الرويوي الذي يُطَوَّقها، وإنّا لا نستبعد غزارة الدّراسات التي تحوم حولها لكن يبقى الفصيل؛ في طريقة الرّؤية وفي منوال القراءة. ثمّ إنّ هذا الطّرح من الزّاويتين الاستقرائية والتّوصيفية قد يدفع بالدّارس إلى الاستفسار عن أسباب ورود تلكم الطّواهر ودوافع توظيفها دون الانزواء نحو التّشخيص والتّصنيف إلى البحث عمّا ورائيات الوضع اللّغوي من مقاصد وحوافز جعلت تلك الطّواهر تتألّق في هيئة مختلفة وفي أساليب مُنظمة لا مشاحة في قيمها.

والغاية إذاً، من طرح هذه الإشكالية؛ البحث عن استراتيجيات التّدليل للبنية المُحتجبة، من دون التّمرکز حول بوتقة النّسق إلى الإفراج عن المنظومة الأسلوبية المتضافرة التي شُدّ بها، وبهذا التّرخيص الإجرائي سيتسنى للدّارس الأسلوبية تفكيك المغاليق التي تطوّق الخطاب، ومُكاشفة المعنى، ومعنى المعنى، ومن الطّبيعي كذلك أنّ هاته المسألة لا تتيسّر لأيّ قاصدٍ لِقِبَلَتِها، لما تتطلّبه من حرصٍ موضوعيٍّ ونعمقٍ ابستمولوجيٍّ يُواكب الشّأن اللّغوي القرآني من حيث الرّؤية والمنهج بفكرٍ علميٍّ أسلوبيّ يُدمج بين اعتبار المقاصد وأسرار البناء القرآني. وأمّر كهذا لا مَسَاسَ فيه تعظيماً وصوناً لِعِصْمَتِهِ.

وما تنسّم به الدّراسات النّقديّة الحديثة إزاء النّصوص الفنّية؛ أنّها تسهر على مقارنة بنياتها، تأسيساً على طرائق بائنة تتوسّم النّظر، حتى وإن لم يُسعفها المنهج في تطبيقها، فإنّها ستأخذُ منحى تعسّفيّاً في إسقاط آلياتها على مستواه اللّغوي. لكن، ورغم القيمة العلميّة التي ظفرت بها في الواقع النّقدي المعاصر إلّا أنّها لم تشفع لها أمام الخطاب القرآني بل ظلّت في أدنى رتبتها، لأنّها ستُلفي ذاتها تشتغل على حيزٍ دون آخر، لذلك، وكما أشرنا في متن الرّسالة؛ أنّ المناهج المتنبّاة لمساءلة الخطاب القرآني تقتضي؛ تطوير آلياتها أكثر، وتعميق سُبُل فهمها للنّص، وتطويعها بطريقة آمنة

موثوقة، تَعَصُّمُ المعنى من الانفلات وتُحدِّد أهواء المتلقِّي وتردعه، لِئَبْلُغَ ما يمكن أن نَسِمَهُ؛ بالتَّلَقِّي الأَمَثَل للخطاب القرآني، وهي الغاية المُتوخاة.

والخيار المنهجي الذي إلَتمنا به خلال هاته المُعَاينة؛ الاستهلال بمبحث نظري موجز يعرض فيه خصوصية البنيات الألسنيَّة للخطاب القرآني ومن ثمَّ نرفقه بمدارسة التَّسْوِيع اللُّغوي من منظور أسلوبِي تأويلِي؛ اعتلاءً عن الالتزامات البنيويَّة الجائرة واحترازًا من الانحرافات السياقية المضطربة، بحكم إخفائهما في مواجهة الإبداع اللُّغوي، بحثًا عن القوانين الألسنيَّة والمعالم الأسلوبية والمُتَواريات الفنيَّة التي يَزَخُرُ بِهَا، فليس من سبيل لمساءلة الخطاب القرآني إلَّا بصياغة تصوُّر نقدي ينفذُ إلى أعماق بنياته ويطلِّع إلى طبقاته مُتوسِّمًا النَّظَر بالوجه اللَّائِق.

فالاستبصار المعرفي الذي تُثِيره هذا النَّوع من المقاربات نُجَاه الخطاب القرآني يُعَبِّد امتدادًا تأمليًّا إزاء أسرار ما يُتِيحُ لنا التَّنَبُّؤ بِجماليَّاته والتكهَّن بعظمته، وإنَّ كان مقررًا علينا النَّظَر إلى أبعاده الدَّلالية فإنَّه يستوجبُ علينا التَّسَلُّل لمعرفة خصوصيته، الحائزة على التَّمكين الاستثنائيِّ المُشتمل على؛ الأداء، التَّركيب، والدَّلالة. وأيًّا كان منوال هاته المُعَاينة، فإنَّها لا تتجرَّد من كَوْنِهَا مُحَكَّمةً بِإِرساءٍ توصيفيِّ تأويليٍّ إنَّ على الصَّعيد التَّنظيريِّ بمقاربة المفاهيم، إنَّ على الصَّعيد الإجماليِّ بِإِسقاط تلكم الآليات على الملفوظ اللُّغوي لمُساءلة البنية النصِّيَّة؛ إبرازًا لِخواصه وتنقيبًا عن أثره.

فمن ثَلقاءِ هذا الطَّرح، فقد فرض المنطلق الإشكالي لهاته المُعَاينة توزيع مباحثها على نحو أربع فصول: وُسم الفصل الأول؛ بالأداء القرآني وأثره في إبراز المعاني، يسعى إلى إجلاء خصائص الصَّوت القرآني وسماته الإيقاعيَّة. وعُنون الفصل الثَّاني بالصَّوغ القرآني للبناء الصَّرفي؛ مُرتكئًا إلى طرح مسألة التَّوظيف القرآني للصَّيْغة الصَّرفية ودورها في تنشئة المباني وتحديد المعاني. بيدَ أنَّ الفصل الثَّالث تم إدراجه تحت ما يُسمى بالتَّعاضد القرآني للتَّركيب الألسني؛

مُستهدفاً أسرار الجملة القرآنية ووحداتها اللغوية ناهيك عن ترصد مقتضى العدول القرآني ودلائله. في حين أنّ الفصل الأخير تمّ وسمّه؛ بالانتقاء القرآني للنظم الدلالي مُتحرّياً الاستحواذ الجمالي للصورة والحقل المعجمي الذي يزخر به. أمّا الخاتمة فكانت تضميناً لأبرز النتائج المحصل عليها.

وبعد؛ فإنّ الذي ساقنا إلى هذا الحيز الإجرائي ليس من باب الانجذاب الذاتي فحسب وإنّما امتثالنا لمعالم التفكير النقدي للصحة الحداثية في الدراسات القرآنية. وإنّا لا نتجرّد من الوعي التراثي حيال الخطاب القرآني بل سيظلّ الأمر محسوماً، لأنّه بهما تكمن ركائز الإدراك وتتفق منافذ التأويل وعليهما تترتب علاقة اللفظ بالمعنى وعلاقة الفكر بالواقع وعلاقة الرسالة بالمتلقي. فالمرجوّ إذًا؛ صياغة موقف رؤيوي يحتكم إلى المنجز النقدي المعاصر وإلى بنية الفكر العربي القديم، ذاك الذي حقّقه الأسلوبية بوصفها تشخيصاً موضوعياً يُدير الشأن اللغوي السامي.

والاعتناء القرآني بالمقتضى اللغوي يتجسّد ذلك في الكلمة في حدّ ذاتها؛ بإيقاعها، صياغتها تركيبها، ودلالاتها، وقد ضاعف من فضائلها إلى أبعد من ذلك، ما ولّد كمّاً لا مثيل له من التساؤلات على رأسها: هل من نموذج نقدي حداثي يتوسّم ضبط آليات اشتغال الكلمة القرآنية دونما المساس بسلطانها؟ ومن الدراسات المؤسسة فنيّاً والمحكمة إجرائيّاً لمُداسة الخطاب القرآني نُلفي: الإعجاز البياني للقرآن، لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم لعبد الحميد أحمد يوسف هنداوي. البناء الصوتي في البيان القرآني لمحمّد حسن شرشر (...). ناهيك عن كتب التفسير أبرزها تفسير أبو السعود؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. والزّمخشري؛ الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل وغيرهم لما تحتوي على ثراء لغوي وتحليل وصفي يُحاكي المنهج الأسلوبي. فضلاً عن الاستئناس بثلة من البحوث الأكاديمية منها: تأويل اللفظ

والحمل على المعنى لوئام الحيزم، والمنهاج القرآني في البناء الأخلاقي لمريم حسين محمد السادة (...). وغيرهم من المصادر المعرفية التي اقتبسنا من مضامينها، واستنرنا من نواميسها.

ولئن كانت غايتنا العلمية التي نسعى إليها تتمثل في تصميم إطار أولي مداره؛ إعادة فهم آليات التشكيل الأسلوبي للخطاب القرآني، من منظور الإجراءات الأسلوبية فإننا نتوخى مسلكين؛ منهج وصفي تحليلي يتخلله المنهج الإحصائي لمختلف الظواهر الأسلوبية، وهو ما سنستمد منه البرهان وما يُمكننا من الوُلُوج إلى جماليات الظاهرة القرآنية.

وبالمقابل؛ استوقفنا التباس لا يمكن التّحجب عنه وهاجس يستحيل التّسّتر عليه؛ فهذا النوع من المقاربات قد وقف متعنّراً أمام بعض عتبات النصّ فلم يتجاوز ضفافها، عجزاً عن الإحاطة بمضامينها الفكرية والدّلالية، وهو ما مثّل عائقاً أماناً وحاجزاً يصدّنا عن استيعاب كُنْهه، ما يتعيّن علينا ضرورة الاستناد إلى بقية العلوم والمناهج التي تخدم الخطاب القرآني والتدرّج بوعي تراثي حضاري يُلمّم مضامينه ويغطّي المزالق التي وقعت فيها النّظرية الأسلوبية. على أنّنا بهذا المنطلق نوّكّد أنّ التطوير العلمي للنّموذج النّقدي هو السّبيل الأصحّ للفهم الأمثل للخطاب القرآني، وإنّنا حينما نصبو إلى إقامة حوار ثقافي ما بين التّراث العربي الأصيل ومصادرات الحداثة فإنّنا لا نبتغي التّماهي أو طمس هويتنا كما قد يتوهّم البعض، وإنّما سننقّي تبعيّة الانبهار بالآخر وإشكالية الاستعلاء عن الموروث وجسامته؛ باستثمار معرفي مُستجد يخدم الخطاب القرآني فكرياً وأسلوبياً.

وفي الأخير لا يسعني إلّا أن أزجي امتناني وتقديري بصنيع كلّ من أسهم في إتمام هذا البحث ونخصّ بالتّشويه الأستاذ المشرف؛ شنوفي ميلود، وإلى من فتح لنا المجال لعبور هذا الفضاء الأستاذ سعيد تومي فلمنّا جزيل الشّكر والعرفان، آمليْن أنّ تكون هذه الدّراسة إضافة علميّة إلى مصاف الدّراسات النّقديّة المعاصرة، واللّه من وراء القصد والتّوفيق.

الفصل الأول:

الأداء القرآني وأثره في إبراز المعاني

"من الخصائص الغلّيا التي امتاز بها بديع النظم القرآني؛ المسحة اللفظية التي تتجلّى في انساق القرآن وائتلافه انساقاً عجيبة وائتلافاً رائعاً يسترعي الأسماع و يستهوي النفوس." محمد حسن شرشر

أولاً: الإعجاز الصوتي القرآني؛ إشكالية التلقي وحدود القراءة

ثانياً: الصوت القرآني وأثره في احتواء المعاني.

ثالثاً: الفاصلة القرآنية؛ كآلية لغوية وسمة أسلوبية.

رابعاً: الإيقاع القرآني؛ بين وقّع الصياغة وأثر الدلالة.

الحدّ المنهجي وأفق التساؤل

قبل الازدلاف من مُعَاينة أثر الأداء الصّوتي للخطاب القرآني - بتأهّبٍ علميٍّ مشوّبٍ بوعيٍّ احتِزازيٍّ، حِفَاطًا على خُصوصيّته وتَصعِيدًا لِسماته - فإنّا نُؤمّي بمسَلَمَةٍ صرفة تُفضي إلى الاعتبار؛ أنّ أيّ لغة إنسانيّة ما هي إلّا أُمارةً لسانيّة، تحمل في أُبنيتها ما يحقّق ميثاق انتمائها أو ما يسوقها إلى الرّوال الحتميِّ حسب درجة الاستحقاق والممارسة، باستثناء لغة الخطاب القرآني.

وحسب تقديرنا؛ فإنّه ليس من سبيل إلى مؤازرة الحرف العربي الفصيح ولاسيما في تعالقه المكين مع بنية الخطاب القرآني إلّا بصياغة موقف أسلوبيّ لساني يثبّت أركانه ويحفظ فصائله من الانسلاخ والتّوّاري. بحكم أنّ بينهما من الرّوابط والمجازبة ما لم تحظ به بقية الألسن اللّغوية مع الخطاب القرآني، وهو ما منحها تلك السلطة والاستطاعة.

والقول أنّ الكلمة القرآنيّة قد بلغت درجة تمام الاستيفاء؛ معنّى، مبنّى، ومقتضى. فإنّ ذلك تأهيل لحمل رسالة ربّ العالمين، وتجسيد لما يُمكن أن نصطلح عليه؛ بالسمو الأسلوبيّ المُعجز إفصاحًا وبيانًا، والوجهة الصّوتية للخطاب القرآني لم تخرج عن جملة إعجازه من ناحية أدائه الإيقاعي وبنائه الأسلوبيّ، بل ويُمكننا الاعتبار أنّ النّظم الصّوتي هو قِوام الخطاب القرآني ككلّ؛ وبهذا الحكم لا يعني أنّنا نسقط بقية الظواهر الأسلوبية المكتنزة في متنه، لكن هذه السّمة تحديدًا أمكنها خلق التّناسب وإضفاء التّناسق بين كافّة أجزاء الخطاب، فتراهُ مُبَنّيًا عبر وحداته اللّغوية بطريقة منتظمة، موحّدة، ومرتبّة، ترتبًا بديعًا عجيبًا، يجعلك تَسْتَقِينُ في ذاتك أنّ هاته الظّاهرة اللّغويّة أعظم من أن تكون صنيعةً مدادٍ ألسنيٍّ بشريّ.

وبما أنّ هاته المسألة موسومة؛ بالأداء القرآني وأثره في إبراز المعاني، فإنّا نتغيّا مُدرسة الإشكالية التّالية: ما مقاصد الصّوت اللّغوي القرآني على مستوى سورة البقرة ؟ ومن منطلق هاته الإشكالية

اقتضت الضرورة المنهجية أن يُبينَ هذا الجزء الاستقصائي على نحو أربع إشكالات بحثية موزعة كالتالي:

أولاً: الإعجاز الصوتي القرآني؛ إشكالية التلقي وحدود القراءة

ثانياً: الصوت القرآني وأثره في احتواء المعاني.

ثالثاً: الفاصلة القرآنية؛ كآلية لغوية وسمّة أسلوبية.

رابعاً: الإيقاع القرآني؛ بين وقّع الصياغة وأثر الدلالة.

واستدلالاً لما أحرزناه فإننا نستبين؛ أنّ الأداء الصوتي القرآني هو ضربٌ من الإعجاز اللغوي له قيم دلالية أفخم من أن يعثر بها نقص، وأعظم من أن يمسّها ارتياب. فما يميّز الأداء القرآني ويستثنيه هو القدرة الفائقة على التعبير عن قضايا شاسعة في حيّز مؤطر يقبض حدود اللفظ ويطلق المعنى بأوسع الدلائل وأبلغ الصّور، فضلاً عن التناسق العجيب مع نظمه الدلالي والتركيبية الأمر الذي يستحيل معه أن يُغني كلمة مقابل استدعاء كلمة بديلة، بالرغم أنّ المفردة القرآنية من صميم القاموس العربي؛ هيأةً وصوتاً وبنية، لكن الشأن في توظيفها المحكم وانتقائها الخبير وسلطة حضورها.

أولاً: الإعجاز الصوتي القرآني؛ إشكالية التلقي وحدود القراءة

إبانة:

إنَّ السرَّ القرآني الذي أودعه الله في كتابه العظيم، قد وهبه نظاماً إيقاعياً فريداً أضفى عليه تناسقاً خاصاً، كأنما يجري على وتيرة واحدة، فالناظر لنظامه الصوتي "سجد انشاقاً وانتلافاً، يسترعي من سمعك ما لم تسترعي الموسيقى والشعر... وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً، وشرطاً شرطاً، وتسمع القطعة من الموسيقى، فإذا هي تتشابه أهواؤها، وتذهب مذهباً متقارباً فلا يلبث سمعك أن يمجّها وطبعك أن يملّها... بينما أنت من القرآن أبداً أنت في لحنٍ متنوع متجدّد... فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد."¹

فهذه الخصوصية القرآنية لا تخفى ولا تستتر على كلّ من ألقى السمع لهذا الخطاب العظيم "فأول شيء أحسّته الأذن العربيّة في نظم القرآن هو ذلك النّظام الصوتي البديع الذي قسّمت فيه الحركة والسّكون تقسيماً متنوّعاً، يحدّد نشاط السّامع لسماعه، ووزّعت في تضاعيفه حروف المدّ والغنة توزيعاً بالقسط، يساعد على ترجيع الصّوت به لتهادي النّفس فيه آناً بعد آنٍ، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى، فيجد عندها راحته العظمى."²

فتلك الفصاحة القرآنية لا تهتدي إليها جملاً ناطقةً فحسب، وإنّما لكلّ حرف وحركة وقعٌ ودلالة تستدعي منك التدبّر والتأمّل؛ "فإن طرقت سمعك جواهر حروفه خارجةً مخارجها الصّحيحة فاجأئك

¹ - ينظر؛ فهد عبد الرحمن بن سليمان الرومي: خصائص القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الطبعة التاسعة،

الرياض، 1997م، ص: 27.

² _ المرجع نفسه، ص: 28.

منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها، وترتيب أوضاعها فيما بينها... هذا يهمس وذلك يجهر وآخر ينزلق، وآخر يحتبس عند النفس جرّاً فترى المجال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة.¹ كأنه صورة واحدة أنسجت من لدن حكيم عليم.

وبما أننا حاولنا التنظير لهذا الجزء الموسوم بالإعجاز الصوتي القرآني؛ إشكالية التلقي وحدود القراءة، لنوقع به موقفاً فكرياً إزاء مسألة علمية تمسّ وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، قد شكّلت بكيونيتها مذهباً آخر في قلب الدراسات القرآنية، ومثّلت محور بحوث وعناء نخبة من الدارسين الأقدمين والمحدثين على حدّ سواء، " فقد ورد عليهم من طرق نظمه ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها وكلماتها في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته ما أذهلهم عن أنفسهم من هيئته الرائعة، وروعة مخوفة، وخوف تقشعرّ منه الجلود، حتى أحسّوا بضعف الفطرة وتخلّف الملكة المستحكمة."² فقد استبين عند العرب من البلغاء والعلماء أنّ هذا الخطاب ليس كجّل الخطابات؛ "إنّه جنس من الكلام غير ما هم فيه وأنّ هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم وأنّه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب أو اعتراض مساعه إلى هذه النفس، إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم واطّلع على قلوبهم، بل هو السرّ الذي يفشي نفسه ولو كتموه، ويظهر على ألسنتهم ويبيّن في وجوههم وينهي إلى حيث ينتهي الشّعور والحسّ."³

¹ _ المرجع نفسه، ص: 28_29.

² _ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 2000م، ص: 134.

³ -المصدر نفسه، ص: 134.

ومن هنا أضحت قضية الإعجاز القرآني من أثنى الجدليات التي واجهها الفكر العربي، فلم يكن هناك سبيلاً آخر إلا الامتثال أمام ظواهره اللغوية وأسراره البيانية، استقصاءً وتفسيرًا، يمكن تلخيص ذلك على النحو التالي:

01- إشكالية تلقّي الإعجاز الصوتي في الفكر العربي القديم: أهمية النّظر لهذا الموضوع والبحث فيه تكمن في عرض إشكالية تلقّي النصّ القرآني من المنظور العربي، وتبعًا لذلك اختزلنا أبرز المحاولات العلميّة التي استهدفت هاته المسألة بصورة مقتضبة، كالتّالي:

1.1_ أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني (296هـ _ 386هـ):

اجتهد الرّماني في فقه بلاغة القرآن الكريم ومعرفة أوجه الإعجاز منه، جاعلاً من البلاغة ثلاث طبقات "منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، منها ما هو في الوسط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها فهو معجز وهو بلاغة القرآن".¹ وما دون ذلك فإنّه لا يمتّ بصلة إلى بلاغة القرآن الكريم بتاتاً، وإذا كانت البلاغة على حدّ اعتباره؛ هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ فإنّ أحسنها وأجودها هو بلاغة القرآن، والبلاغة على عشرة أقسام: "الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التّلاؤم، الفواصل، التّجانس، والتّصريف، التّضمن، المبالغة وحسن البيان".² والملاحظ من هذه المجموعة أنّ هناك ما يرتبط بالصّوت؛ كالّتلاؤم، الفواصل، التّجانس. أمّا التّلاؤم؛ فهو نقيض التّنافر، وأنّه تعديل الحروف في التّأليف، والتّأليف على ثلاث أوجه؛ متنافر، متلائم في الطّبقة الوسطى، متلائم في الطّبقة العليا.

¹ - علي بن عيسى أبو الحسن الرّماني (386هـ): التّكت في إعجاز القرآن الكريم، دار المعارف، الطبعة الثالثة،

مصر، دت، ص: 75.

² - المصدر نفسه، ص، ن.

أما المتلائم؛ في الطبقة العليا فقد اعتبره القرآن الكريم ككلّ، وهذا بيّن جليّ لمن تأمله، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والتلاؤم في الطبقة الوسطى؛¹ وتكمن فائدته في حسن الكلام في السّمع وسهولته في اللفظ، وتقبّل المعنى له في النّفس لما يرد عليها من حسن الصّورة و طريقة الدّلالة، ومخارج الحروف مختلفة فمنها ما هو في أقصى الحلق، ومنها ما هو في أدنى الفم، ومنها ما هو في الوسائط بين ذلك وذاك.² ويكون التلاؤم معتدلاً من غير بعد شديد ولا قرب شديد ويظهر ذلك بسهولته على اللسان وحسنه في الأسماع و تقبّله في الطّباع، وإذا أُضيفَ إلى ذلك حسن البيان في صحّة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز لجيّد الطّباع البصير بجواهر الكلام.³

وبذلك فالتلاؤم الصّوتي مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني؛ لأنّه يخلّق إنسجاماً صوتياً مميّزاً، تكمّنُ فاعليته الإيقاعية في إبراز الأداء، فترى الألفاظ متقاربة، مترابطة، لا تخرج عن نظامها الخاص، في تلاؤم حروفه ومفرداته وجمله المسترسلة، أمّا من حيث الدّلالات الوظيفية لتلك الأصوات فتظهر من ناحية الاتّساق الذي تخلقه والإيحاءات التي تضيفها.

أما الفواصل؛ حروف متشاكلّة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفاصل بلاغة والأسجاع عجيب، وذلك أنّ الفواصل تابعة للمعاني، أمّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها.⁴ وواصل القرآن كلّها بلاغة وحكمة، لأنّها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة ليدلّ بها عليها

¹-المصدر نفسه، ص: 95.

²- المصدر نفسه، ص ن.

³-المصدر نفسه، ص: 96.

⁴-المصدر نفسه، ص: 97.

وهي على وجهين؛ أحدهما على الحروف المتجانسة والآخر على الحروف المتقاربة فالحروف المتجانسة.¹ كقوله تعالى: { طه (1) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى (3) } . أمّا الحروف المتقاربة، كقوله تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ (4) } .³ و ينجلي حسن الفواصل في الحروف المتقاربة لأنّه يكتنف الكلام من البيان ما يدلّ على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع لما فيه من البلاغة وحسن العبارة، والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع وتحسينها بالتشاكل وابتدائها في الآي بالنظائر.⁴ والغاية القصوى للفواصل تكمن في مراعاتها للمعاني حسب السياق وتحسينها الكلام بالتشاكل وابتدائها بالآيات المتناظرة.

في حين أنّ التّجانس؛ هو بيان أنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللّغة، والتّجانس على وجهين؛ مزوجة، مناسبة. المزوجة تقع في الجزاء.⁵ كقوله تعالى: { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَانقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194) } .⁶ أي جازوه بما يستحق على طريق العدل إلّا أنّه استعير الثّاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدّلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزوجة الكلام لحسن البيان، أمّا الثّاني

¹ -المصدر نفسه، ص: 98.

² - سورة طه: الآية [01-02]

³ - سورة الفاتحة: الآية [02]

⁴ - أبو الحسن الرماني: النّكت في إعجاز القرآن الكريم، ص: 98.

⁵ - المصدر نفسه، ص: 99.

⁶ - سورة البقرة: الآية [193]

فهو فن من فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد.¹ فمن ذلك قوله تعالى: { وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ } (127).² فجنوس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير و الأصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء، أما هم فذهبوا عن الذكر أما القلوب فذهب عنها الخير.³ ومنه فالتجانس القرآني وجه من وجوه الإعجاز الصوتي يقتضي أداءه اللغوي؛ التشابه، التوافق اللفظي، أما مبلغه؛ إيصال المعنى وإيراد الفهم.

ومن هذا المعطى نستشف؛ أن كلاً من تلك الظواهر الصوتية؛ التلاؤم، الفواصل، التجانس، تسهم في تأدية القول بشكل أقوم، ولسان أبين، يخلو من التنافر والحشو، فيكون أقرب إلى البلوغ وأسهل في القبول.

2.1- أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (319هـ-388هـ):

المنطلق الفكري الذي انطلق منه الخطابي هو أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي فصيح معجز للخلق وممتنع على البشر الإتيان به وهذا ما تعذر عليه معرفة أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، وعوامل الإعجاز عند الخطابي قد حددها بثلاث نقط قائلاً: وإِنَّمَا يَقُومُ الْكَلَامُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ؛ لفظ حامل، معنى قائم ورباط لهما ناظم.⁴

¹ - أبو الحسن الرماني: النكت في إعجاز القرآن الكريم، ص: 100.

² - سورة التوبة: الآية [127]

³ - أبو الحسن الرماني: النكت في إعجاز القرآن الكريم، ص: 99 - 100.

⁴ - حمد أبو سليمان الخطابي (388هـ): بيان إعجاز القرآن، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مصر، دت، ص: 27.

فالمتمل للقرآن الكريم يجد هذه الأمور منها في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظاماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمهم، وأمّا المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها...¹ وهذه المواصفات المذكورة لا ترد في خطاب لغوي آخر مهما كانت لغته إلا في القرآن الكريم، والقرآن قد صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف مضمناً أصحّ المعاني، ومعلوم أنّ الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمرٌ تعجز عنه قوى البشر ولا تبلغ قدرهم.² ومنه؛ فالمتنبّع للإعجاز القرآني من منظور الخطابي يخلص أنّ قوامه؛ هو فصاحة قولٍ وبلاغة معنى، لكن قد اعتبر أنّ التركيب اللغوي للألفاظ مفتاحاً من مفاتيح الإعجاز القرآني وخاصية من خواصه الإيقاعية، فبالألفاظ يُستبين المعنى وتُستظهر أسلوبية النظم القرآني.

3.1 أبو بكر محمد بن الطيّب البقلاني (338هـ-403هـ):

الطرح الذي قدّمه أبو بكر الطيّب البقلاني قد قطع به أشواطاً بائنة عبّ من خلاله الطريق لمن أتى بعده فكانت إرهاباً لميلاد نظرية علمية أعمق من أن تكون مجرد فكرة؛ تمثلت في نظرية النظم التي تطوّرت بعدها على يد عبد القاهر الجرجاني، فكان مبلغ اهتمامها أنّ بلاغة القرآن معجزة بنظمها في قوله: " أنّه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه... فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه منه: ما يرجع إلى الجملة وذلك أنّ نظم القرآن على تصرف وجوه واختلاف مذاهبه خارج المعهود من نظام جميع

¹ - المصدر نفسه، ص، ن.

² - المصدر نفسه، ص: 28.

كلامهم و مُبايّن للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختصّ به ويتميّز بتصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد".¹ فهو بمنأى عن كلّ شكلّيات التّصنع والتّكلف، فكّل دلالة تثبت أنّه خطاب معجز قد حصل الإهتمام به و أقيمت الحجّة به، وأتمّ شروط البلاغة على أكمل صورة، ومن تأمل نظمه " وجد جميع ما يتصرّف فيه من الوجوه على حدّ واحد في حسن النّظم وبديع التّأليف والرّصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العُلّيا".²

ومن مظاهر اهتمامه بالإعجاز الصّوتي نُستشفّ قوله: " أنّ الحروف التي بني عليها كلام العربي تسعة وعشرون حرفاً وعدد السّور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمانية وعشرون سورة وجملّة ما ذكر من هذه الحروف الأوائل السّور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفاً ليدلّ بالمذكور على غيره وليعرف أنّ هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم".³

والذي تنقسم إليه هذه الحروف على ما قسّمه أهل العربية وبنوا عليها وجوهها أقسام؛ فمنها الحروف المهموسة والحروف المجهورة؛ فالمهموسة منها عشرة: الحاء، الهاء، الخاء، الكاف، الشين، الثاء، الفاء، التّاء، الصّاد، السين، وما سوى ذلك من الحروف هي مجهورة. وما لوحظ أنّ أغلب تلك الحروف مذكورة في بداية السّور، وكذلك ممّا يقسّمون إليه الحروف يقولون أنّها على ضربين أحدهما حروف الحلق؛ العين، الحاء، الهمزة، الهاء، الخاء، العين، والتّصف الآخر من هذه

¹ - محمد أبو بكر الطيّب البقلاني(403هـ): إعجاز القرآن، تح؛ أحمد صقر، دار المعارف، الطّبعة الأولى،

مصر، 1997م، ص: 35.

² - المصدر نفسه، ص: 45.

³ -المصدر نفسه، ص: 45.

الحروف المذكور في جملة الحروف التي تشمل عليها الحروف المثبتة.¹ وكذلك تنقسم إلى حروف شديدة وغير شديدة ومن ذلك أيضاً الحروف المطبقة؛ الطاء، الظاء الصاد، والضاد.²

وقد استنتج البقلاني أن نظم القرآن سهل سبيله خارج عن الوحشي المستكره، الغريب المستكره، وعن الصنعة المتكلفة وجعله قريب إلى الإفهام يبادر معناه لفظه القلب، ويسابق المغزى منه عباراته إلى النفس. وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول غير مطمع، مع قربه في نفسه ولموهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به.³ وهذا الذي تقدّم مظهر من مظاهر الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم قد بين فيه أنه خالٍ من التعسف والتكلف و عن الغريب المتأفر، وعن الوحشي المستكره، قد بلغ به أعلى منازل البلاغة وفنونها.

وعموماً؛ فقد لخصت الدراسات القديمة للإعجاز القرآني قيمة الصوت اللغوي ودوره في الإبانة عن المعنى من خلال ارتباطه بالسياق المولّد لكل آية من آياته. وبالتالي فإنّ أي حركة صوتية تسهم في تأدية الأداء الصوتي للخطاب القرآني بشكل أقوم ولسان أبين، وبالمقابل لا تخلو أي ظاهرة من ظواهر الصوتية على دلالة أسلوبية ترتبط ضمناً بالمعنى العام للخطاب القرآني.

¹ - المصدر نفسه، ص: 45.

² - المصدر نفسه، ص: 45.

³ - المصدر نفسه، ص: 46.

02- إشكالية تلقّي الإعجاز الصّوتي للخطاب القرآني في الفكر العربي المعاصر:

اهتمّت الدّراسات القرآنية بالأصوات ودورها في بناء الخطاب وتكوين بنيته، والدّراسات الحديثة لم تخرج عن جملة هذا الطّرح، من ذلك نلّفي:

1.2- مصطفى صادق الرّافعي: اعتبر الرّافعي أنّ مظاهر الإعجاز لا تخرج عن طرق نظمه وتركيبه، وعلى هذا الأساس حصرها في أوجه ثلاث: الحروف، الكلمات، الجمل، على النّحو الآتي:

01_ الحروف وأصواتها: الحرف الواحد من القرآن معجزة في موضعه لأنّه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات كثيرة وهذا هو السرّ في إعجاز جملة، إعجازاً أبديّاً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانيّة... وما أنزله إلّا الذي يعلم السرّ في السّماء و الأرض.¹ فقد كان منطق القوم يجري على أصل من تحقيق الحروف وتقويمها ولكن الأصوات إنّما تنزل منزلة الثّبرات الموسيقيّة في جملتها كيف اتّفقت فلا بدّ ذلك من نوع تأليف حتّى يمازج بعضه بعضاً، و يتألّف منها شيء مع شيء فتتدخل خواصها وتجتمع صفاتها ويكون منها اللّحن الموسيقي ولا يكون إلّا من التّرتيب الصّوتي الذي يثير بعضه بعضاً على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصّوت ومخارجه وأبعاده.²

ويستدل الرّافعي بهاته الظّاهرة اللّغوية كونها ضرباً من ضروب إعجازه قائلاً: وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النّظم الموسيقي في القرآن وأنّه ممّا لا يتعلّق به أحد ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو

¹ - مصطفى صادق الرّافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية، ص: 211.

² - المرجع نفسه، ص: 212.

فيه إلا فيه لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضهم مناسبة طبيعية في الهمس، الجهر، الشدة، الرخاوة، التّفخيم، التّرقيق، والتّكرير.¹

وبالتّالي؛ النّظم القرآني قد انفرد بخصائصه الموسيقية وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النّغم بالهمس والجهر والقلقلة والصّفير، والغنة، ونحوها ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطاً، إيجازاً، ابتداءً، إفراداً، وتكريراً.² فكان هذا النّظم كميّار أزلّي اتّبعته الألسن العربية لتستوي اللّغة على قاعدة صحيحة تخلو من أيّ لحنٍ يمسّ تشكيلها اللّغوي.

02_ الكلمات وحروفها: بعد ما تطرّق الرّافعي إلى أصغر وحدة كلامية وهي الصّوت انتقل إلى بناء الألفاظ التي تقوم على تأليف الحروف وترتيبها ترتيباً صحيحاً في الكلم. "والكلمة في حقيقتها ما هي إلاّ صوت النّفس لأنّها تلبس قطعة من معنى فتختصّ بها على وجه المناسبة، من أصل الوضع، حين فصلّت الكلمة على هذا التّرتيب."³ وقد درس الكلمات من ثلاث أوجه:⁴

أ- **صوت النّفس:** وهو الصّوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النّغم بالحروف ومخارجها وحركاتها، ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقه متساوقة وعلى نبض متساوٍ بحيث تكون الكلمة كخطوة للمعنى في سبيله إلى النّفس إنّ وقف عندها هذا المعنى قطع به.

ب - **صوت العقل:** وهو الصّوت المعنوي الذي يكون من لطائف التّركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانية التي يدور بها المعنى لا يخطئ طريق النّفس من أيّ الجهات انتحى إليها.

¹ - المرجع نفسه، ص: 214.

² - المرجع نفسه، ص: 218.

³ - المرجع نفسه، ص: 220.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 221.

ج- صوت الحسّ: لا يكون إلا من دقّة التّصوير المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب ومجاذبة النفس مرّة وموادعتها مرة على محضر بما يريد عليها من وجوه البيان أو يسوق إليها من طرائف المعاني...¹

03_ الجمل وكلماتها: الجملة هي مظهر الكلام وهي الصّورة النّفسية للتأليف الطبيعي... فإذا رُكّب الكلام على أصل من التّركيب لا يتأدّى بالمعاني إلى أبعد من مظاهر الحسّ، فهذا هو الكلام الطبيعي الذي لا يزيد من فضيلة المتكلم أكثر ممّا تزيد الحواس نفسها في هذا المتكلم من فضيلة الإنسانية وذلك أصل هو من رقه الشّأن وخفه المنزلة بحيث يخرج النّاس جميعاً سواء.² أمّا إذا ارتفع الكلام إلى أن يصير في تقلبيه ومداورته كأن طرق ما بين الحواس في أنواع إدراكها وبين النّفس فلا يخطأ التأثير ولا ينافر جهة من جهاته ولا يعدو أن يبلغ من الفؤاد مبلغه الذي قسم له... فإذا بُعدَ الكلام وأمعن حتى يكون بدقائق تركيبه وطرق تصويره كأنما يفيض النّفس على الحواس إفاضة، ويترك هذا الإنسان من الإحساس به كأنه قلب كلّ... فذلك هو الكلام المعجز بل هو معجزة الطبيعة الكلامية التي لم تعرف في تاريخ أمة من الأمم.³ وممّا تقدّم نستخلص أنّ عماد الإعجاز للإيقاع القرآني يعتمد بالدرجة الأولى على الوجهة الصّوتية للخطاب وما تخلقه من دلائل تجعلها مؤتلفة مع أصوات الكلمات ومساوقة لها في النّظم الجملي للوحدات اللّغوية.

2.2 - سيّد قطب: من أوجه الإعجاز الفنّي للقرآن عند سيّد قطب نلّفي:

¹ - المرجع نفسه، ص، ن.

² - المرجع نفسه، ص: 236.

³ - المرجع نفسه، ص: 237.

01_ اختيار اللفظ: التنسيق في تأليف العبارات بتخيّر الألفاظ ثم نظمها في نسق خاصّ يبلغ في

الفصاحة أرقى درجاتها.¹

02_ الإيقاع الموسيقي: الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخيّر الألفاظ ونظمها في نسق خاصّ، ومع

أنّ هذه الظاهرة واضحة جدّ الوضوح في القرآن وعميقة كلّ العمق في بنائه الفني فإنّ حديثهم عنها لم يتجاوز ذلك الإيقاع الظاهري ولم يرتقِ إلى إدراك التعدّد في الأساليب الموسيقية وتناسق ذلك كلّه مع الجوّ الذي تطلق فيه هذه الموسيقى ووظيفتها التي تؤدّيها في كلّ سياق.²

وقد قدّم السيد قطب مجموعة من الأمثلة القرآنية وعلّق عليها بالدراسة والتحليل من بينها سورة النجم، في قوله تعالى: { وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (9) فَأُوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أُوْحَىٰ (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (11) أَفَتُنْمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (15) }.³ هذه السورة في عمومها كأنّها منظومة موسيقية علوية منغمّة، يسري التنعيم في بناءها اللفظي كما يسري في إيقاع فواصلها الموجودة المقفّاة، ويلحظ هذا التنعيم في السورة بصفة عامة ويبدو القصد فيه واضحاً في بعض المواضع، ذلك الإيقاع لون موسيقيّ خاصّ، لون يلحظ فيه التّموج والانسياب، وبخاصّة في المقطع الأوّل والأخير من السورة.⁴

¹ - سيّد قطب: التّصوير الفنّي في القرآن، دار الشّروق، الطبعة العاشرة، مصر، 1988م، ص: 87.

² - المرجع نفسه، ص، ن.

³ - سورة النجم: الآية [15-01]

⁴ - سيّد قطب: في ظلال القرآن، دار الشّروق، الطبعة الأولى، مصر، 2003م، ص: 3404.

وبذلك فالتناسق الفنّي في القرآن الكريم ينبني من خلال ثنائية؛ الإيقاع والدلالة، فيستلزم الخطاب الدقّة في انتقاء اللفظ الذي يتأتّى بالمعنى المراد بأبلغ صورة، في حين أنّ الإيقاع الموسيقي هو وليد تخيّر اللفظ ونظمها في مبنى خاصّ.

وبالتالي فالوجهة الصوتية للخطاب القرآني مثّلت موردًا علميًا نهلت منه علومًا شتى ومن ذلك علوم الأصوات، استمدّت منه مادتها ووقفت على أدقّ أجزائه، والفكر العربي بدوره لم يُغفل قيمة التشكيل الصوتي بدءًا من دلالة الأصوات إلى النّظام الجملي للوحدات الصوتية من متن الخطاب. وعمومًا؛ فالمتقّصّ لقضية الإعجاز الصوتي القرآني في الفكر العربي يستشفّ أنّ هناك علاقة وثيقة بين البناء الصوتي والمبنى اللّغوي في صناعة الدلالة وإبراز المعنى، وأصغر وحدة صوتية في الخطاب القرآني لها قيمًا فنيّة وسمات أسلوبية.

ثانيًا: الصّوت القرآني وأثره في احتواء المعاني

إبانة:

وقفت الصّحوة الحداثيّة للدراسات القرآنيّة على مسلكٍ دقيقٍ جدًا يُلخص التّجاذب الحاصل بين مُبتَغى النّقد الأدبيّ المعاصر وبين قداسة الخطاب القرآني، وإن كانت النّظرية المُستعان بها آليّة نصّية لترصد الملمّح المميّز في الخطاب باقتحام المبنى الصّياغي له، فإنّ موضوعها إذاً؛ هو النّسق الفنّي، لكن الإشكال هنا في كيفية التّعامل مع نوعيّة الخطاب، لأنّ مُدارسة الخطاب القرآني تختلف تمامًا عن بقيّة الخطابات، لذلك كان لزامًا على الدّارس الأسلوبيّ مُراجعة طرائق تَعامله معه - توصيفًا وتحليلًا - لكن باحتراز؛ حفاظًا على بنيته واستكشافًا لأسراره.

إلاّ أنّه مهّمًا بلّغَ مَطْمَحُ هذه النّظريات جُلّها - السّياقية أو النّصّانية - للوصول إلى مبلغ الخطاب القرآني فإنّها تبقى محاولات قاصرة على أن تَنبِتَ هذه الظّاهرة وتُوافيها حَقّها الكامل دِرايةً وتَمحيصًا، وتَبَعًا لذلك "ظَلَّ إعجاز القرآن مشغلة الدّارسين العُلماء جيلًا بعد جيل (...) رحب المَدَى سَخِيّ المورد، جيلًا بعد جيل (...) فقد بَلَغَ منه الغاية وامتدَّ الأفقُ بَعِيدًا وَرَاءَ كُلِّ مَطْمَحٍ عَالِيًا يَفُوت طاقة الدّارسين.¹" فقد نزل القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ مُبين، لسانٍ إيقاعيٍّ تستمتع الأسماع بلفظ كلماته، وتخضع مقاطعه في تواليها لنظامٍ خاصٍّ، وتتردّد في كلماته مقاطع بعينها فتستدرج إلى

¹ - عائشة عبد الرّحمن بنت الشّاطي: الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1984م،

تردّدها الآذان وكلّ هذا يكسب الكلام جمالاً وكمالاً.¹ وقبل نزول القرآن الكريم اعتادت الألسن العربية على أنواع مؤلوفة من الخطابات كالشعر والخطابة، والمقامة...بيد أنّ الخطاب القرآني حينما نزل، نزل بطريقة متميّزة عجيبة عدلت عن جلّ الخطابات قاطبة.

ومن هذا المنظور؛ الذي يستهدف تشكيل بناء تصوّري موجز في إطار نسقي يهتم بالظواهر الأسلوبية آثرنا البحث في موضوع البنية الإيقاعية، ونموذجه الأمثل هو الخطاب القرآني "ذلك لما خصّه الله به من حسن التّأليف، وبراعة التّركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديل، والاختصار اللّطيف،"² وما إلى ذلك من الظواهر التي طالما سعت النّظرية الأسلوبية إلى رصدها؛ إبرازاً لدلائلها وكشفاً لجماليّاتها.

وإنّ كانت الأسلوبية علماً يدرس اللّغة ضمن نظام الخطاب.³ فإنّ علم الأصوات هو العلم الذي يدرس الصّوت الإنساني من وجهة نظر لغوية.⁴ ونظراً للتّطور التكنولوجي الحديث أسهم ذلك في توسيع علوم الصّوتيات وفروعها من أشهرها: علم الأصوات النّطقي، علم الأصوات الفيزيائي، علم الأصوات السّمعي، ولكلّ خصائصه ومجاليه، فالأول؛ ينظر في كيفية إصدار هذه الأصوات بالإشارة إلى مخارجها وسماتها النّطقية. والثّاني؛ مجاله النّظر في الذبذبات التي تحدثها هذه

¹ - محمّد حسن شرشر: البناء الصّوتي في البيان القرآني، دار الطباعة المحمّدية، الطّبعة الأولى، القاهرة،

1988م، ص: 14.

² - الحسن بن عبد الله أبي الهلال العسكري (395هـ): الصّناعة في الكتابة والشّعر، تح؛ علي محمّد البجاوي،

المكتبة العصرية، الطّبعة الأولى، بيروت، 2013م، ص: 07.

³ - منذر عياشي: الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، الطّبعة الأولى، سوريا، 2002م، ص:

27.

⁴ - عبد التّواب النّيومى: علم الأصوات اللّغوية، المكتبة الأزهرية، الطّبعة الأولى، القاهرة، 2009م، ص: 07.

الأصوات في الهواء. أمّا الثالث، فيعرض لوقع هذه الآثار في أذن السّامع من النّاحيتين العضوية والنفسية.¹ لكن من هاته العلوم الثلاث نحتاج المجال الأول علم الأصوات النّطقي الذي يهتم بقسمين اثنين هما: علم الأصوات المجرّدة وعلم الأصوات الشّكلي. والأول يكتفي بدراسة المادة الصّوتية من حيث كونها أحداثاً منطوقة. والثاني يُبيّن وظائف هذه الأصوات وقيّمها في اللّغة المعينة منتهية بوضع قواعد ونظم تحدّد نوعيات هذه الأصوات وصنوفها من حيث أدوارها في البناء اللّغوي.² فالأول يهتم بدراسة الأصوات من حيث الاستعمال على المستوى اللّغوي، أمّا الثّاني يتجاوز ذلك إلى معرفة أصنافها ووظائفها في سياق القول على مستوى التّركيب الصّوتي.

وبما أنّ الدّراسة الإيقاعية على العموم لها منبت عربي أصيل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالخطاب القرآني وأحكام ترتيله وتجويده، وفهم مقاصده فإنّنا حاولنا من خلال هذه المدوّنة البحثية أن نقف عند المحور الثّالي والذي يستهدف أثر الدّلالة الصّوتية للصفّات العامة في سورة البقرة على النّحو الثّالي:

عكّف العلماء على خدمة اللّغة العربية وعلومها ولا سيما الوجهة الصّوتية للنصّ القرآني، فقد استعمل القاموس القرآني جملة الألفاظ العربية ثم اختار أصواتها بما يُناسب معناها واستوحى دلالتها من جنس اختيار أسبقها فكانت دالّة على ذاتها؛ معنى، مبنى، ومقاماً. وهذا ما تمظهر في متن البلاغة الصّوتية لسورة البقرة:

فقد انصبّت عناية القرآن العظيم بالاهتمام في إنكاء حرارة الكلمة عند العرب وتوهّج العبارة في منظار حياتهم وحذب البيان القرآني على تحقيق موسيقى اللفظ في جملة وتناغم الحروف في

¹ - كمال بشر: علم الأصوات، دار غريب، الطبعة الأولى، القاهرة، 2000م، ص: 08-09.

² - المرجع نفسه، ص: 08-09.

تركيبه وتعادل الوحدات الصوتية في مقاطعه فكانت مخارج الكلمات متوازنة النبرات وتراكيب البيان متلائمة الأصوات، فاختار لكل حالة مراد ألفاظها الخاصة التي لا يمكن أن تستبدل بغيرها فجاء كل لفظ متناسب مع صورته الذهنية من وجه، ومع دلالاته السمعية من وجه آخر، فالذي يستلذه السمع وتستسيغه النفس وتقبل عليه العاطفة هو المتحقق في العذوبة، والرق، والذي يشرب له العنق وتتوجس منه النفس هو المتحقق في الزجر، والشدة، وهنا ينبه القرآن المشاعر الداخلية عند الإنسان في إثارة الانفعال المترتب على مناخ الألفاظ المختارة في مواقعها فيما تشيعه من تأثير نفسي معين سلبيًا وإيجابيًا.¹

وبالنظر إلى الدلالة الأسلوبية لتلك الظواهر الصوتية فإننا نلفي؛ ميزانها معتدل بين الإيحاء والتصریح فكل صوت وظيفة بيّنة قد وُظف لأجلها تلبيةً لمتطلبات الأداء الصوتي القرآني؛ "وحسبك بهذا اعتبارًا في إعجاز النظم الموسيقي على ذلك الوجه الذي هو فيه، ترتيب حروفه على اعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفسي، والتكرير..."²

ولئن تأملت الخطاب القرآني لأفيت أنه استوحى على جل تلك الظواهر الصوتية والفروقات اللغوية إلى درجة تمام الاستيفاء. ومن هنا سيقنصر الجانب الإجرائي في هذا الفصل على مُكاشفة مظاهر الدلالة الصوتية بما يناسب تنوعها؛ في المباحث الآتية:

01_ دلالة الهمس والجهر في سورة البقرة:

¹ - محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي، الطبعة الأولى، لبنان، 2000م،

² - الزايعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 169

يُحدّد الكلام بدهاءة أنّه جملة من الأصوات المفردة، وتلك الأصوات إن أُلفت صارت ألفاظاً، والألفاظ إذا ضُمَّنت المعاني صارت أسماءً، والأسماء إذا ترادفت صارت كلاماً، والكلام إذا ألصق صار أقاويل، فنتكامل على هذا النمط مُهجةً الخطاب،¹ وهذه الأخيرة من فرضيات البحث العلمي عند علماء اللّغة، وقد خصّ أهل التّخصص في علوم اللّسان حيال تصنيفهم للأصوات قسمين اثنين؛ مهموس ومجهور، وكلّ منهما يتّسم بِسماتٍ خاصّة تحتكمُ علمياً إلى قواعد متواضع عليها تميّز كلّ منهما من النّاحية العلمية والطّبيعة الفيزيولوجية.

أ- دلالة أصوات الهمس: الصّوت المهموس هو "الذي لا يهتزّ معه الوتران الصّوتيان ولا يسمح لهما رنين حين ينطق به، وهو عشرة أحرف، مجموعة في قولهم: سكت فحثه شخص."² وهو أضعف الاعتماد في موضعه يتّسم بالليونة في طبيعته وتكوينه.³

* وقد ساق لنا الخطاب القرآني جملةً من الآيات التي تحمل ضميناً رسائلٍ وعبرٍ تقتضي التّدبّر فيها والإمتثال لها، في قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25)}.⁴ ورد في الكشف أنّ من عاداته عزّ وجل ذكر التّرجيب مع

¹ - إخوان الصّفا: رسائل إخوان الصّفا وخلان الوفا، مكتبة مكتب الإعلام الإسلامي، الطّبعة الأولى، طهران،

1984م، الجزء الأول؛ القسم الرياضي، ص: 400

² - أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي (466هـ): سرّ الفصاحة، تح؛ عبد المتعال الصّعيدي، دار الكتب، الطّبعة

الأولى، بيروت، 1982م، ص: 22.

³ - إبراهيم أنيس: الأصوات اللّغوية، مطبعة نهضة مصر، الطّبعة الأولى، لندن، دت، ص: 22.

⁴ - سورة البقرة: الآية [25]

* ما يُقرب

التَّرهيب، ويشفعُ البشارة بالإنذار إرادة التَّشيط لاكتساب ما يزلف* والتَّشيط عن اقتراف ما يُثْلَف.¹ بخلاف هاته الآية التي خصَّص فيها المولى عزَّ وجل آيةً تبشِّرُ بمنزلة المؤمنين وتصف حالهم وأحوالهم؛ ودلالة الهمس في هذه الآية مسوقة لوصف ثواب المؤمنين، الذين جمعوا بين الإيمان الثَّابت والعمل الصَّادق، فأغلب الأصوات الواردة مهموسة (ش، ص، ت، ح، هـ، ف، ث) ليتناسب ذلك مع وصف أهل الجنَّة وخيراتها بوصفٍ لِّينٍ يخشع له السَّامع ويهتدي، بأسلوبٍ يمتزج بين الإنشائي والإخباري للإشعار بعِظَم الخبر وفخامته.

*وبما أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل مكة المكرمة بيتاً آمناً على أهلها وكلِّ زائرها، واتَّخذ من مقام إبراهيم منزلاً للدَّعاء والاستغفار فقد ذكر في كتابه: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)}.² تتضمن هاته الآية دعوة إبراهيم عليه السَّلام لربه سبحانه حينما رفع أسس الكعبة وهما يدعوانه ربَّنَا تقبل إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ لأقوال عبادك، العليم بأحوالهم، واجعلنا ثابتين على الإسلام منقادين لأحكامك، واجعل من ذريتنا أمةً منقادة لك وبصَّرتنا بمعالم عبادتنا وابعث في هذه الأمة رسولاً من ذرية إسماعيل يتلو عليهم آياتك ويعلمهم القرآن والسنة إنَّكَ أَنْتَ العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء.³

¹ - أبو القاسم محمود بن أحمد الخوارزمي الرَّمْخسري (538هـ): الكشف عن حقائق التَّنزيل وعيون الأقاويل في

وجوه التَّأويل، تح؛ عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد العوض، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، الرياض،

1998م، الجزء الأول، ص: 225-226.

² - سورة البقرة: الآية [127-129]

³ - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، القاهرة، د ت، ص: 20.

وما يلاحظ على مستوى الآية تكرار حروف الهمس (س، ك، ت، ف، ح، ث، هـ) والتي تحمل
ضمنياً؛ ضعفاً، انكساراً، خضوعاً، واعتراضاً للحق أنه سميع عليم، وهذه إحالة لقوة يقينهم باستجابته
سبحانه؛ فالدعوة الأولى تطلب تقبل صالح الأعمال، والثانية لطلب الانقياد والاهتداء، والثالثة أن
يجعل من صلبهم ذرية صالحة وأمة قائمة على كتاب الله وسنته، وبذلك فالدعاء لم يقتصر على
الحياة الدنيا فقط وإنما بما ينفعهم في الآخرة. ومنه فالصوت المهموس من هذه الآية بين مدى
حرص إبراهيم عليه السلام على الثبات وأمله في الحصول على الفضيلة لذريته، مُبرزاً آداب الدعاء
لتحقيق الاستجابة والشفع بالقبول.

*ومن مواصفات الدين الإسلامي الحنيف كماله الذي تفوق به على كل الديانات فترى دلالته
واضحة وبيّنة غير قابلة للتحريف جعلت الطريق بين فمن أسلم فقد اهتدى ومن ابتغى غير ذلك
فالجزاء عليه قائم، لقوله تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ
وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256) }¹. نزلت هذه الآية
على قوم من الأنصار تنهي عن الإكراه في الدخول إلى الإسلام لأنه واضح الدلائل جلي البراهين
لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته
دخل فيه على بيّنة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين
مكرهاً.²

¹ - سورة البقرة: الآية [256]

² - محمد بن يوسف أبو الحَيَّان الغرناطي الأندلسي (745هـ): تفسير البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد

الموجود - علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، لبنان، 1994م، الجزء الأول، ص: 291-

وينجلي الحروف المهموسة؛ (ك، ت، ش، س، ث، ص) بما توحى أنّ حكمة الله في شرع دينه أن يكون طوعاً، تمكّناً واختياراً، وليس إجباراً وقسراً، بعيداً عن التّكليف والإلزام، فشرائع الإسلام لم تُنزل على قوم دون غيرهم وإنّما نُزلت على الأُمَّة بأسرها، بأوضح الآيات وأبلغ المعجزات.

وبذلك نلّف أنّ تلك الأصوات المهموسة تتناسب مع دلالات الآيات، فالأوّل يتمحور حول وصف الجنّة ونعيمها وحال أهلها من الأبرار الذين يغتبطون سروراً وسكينة، والثاني تتضمّن دعوة إبراهيم عليه السّلام وتوحيده لله سبحانه وتعالى بخضوع وخشوع، وأمّا الأخير فنصّ أنّ الدّين الإسلامي دين يُسرّ ولين وليس إجباراً وتكليفاً والطّريق بين المسلكين بائن، فمن هداه الله فهو المهتدي، ومن أضلّ السّبيل فلن تجد له هادياً. وجلّ هاته الآيات تقتضي الاستناد إلى هذا النّوع من الحروف لما تتميزّ به من وضوح في التّعبير وفصاحة في القول، وسلاسة في الوصف.

ب- دلالة أصوات الجهر: الصّوت المجهور هو الذي لا يهتّر معه الوتران الصّوتيان، وقد حصرها العلماء في ثلاثة عشر حرفاً: (ب.ج. د. ذ. ر. ز. ط. ض. ع. غ. ل. م. ن) ويضاف إليها أصوات اللّين بما فيها الواو والياء.¹ فهي حروف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النّفس أن يجري معه حتّى ينقضي الاعتماد ويجري الصّوت،² وللأصوات المهجورة قوّة إيقاعية شديدة لا تلتصّبها في أصوات أخرى.

¹ - إبراهيم أنيس: الأصوات اللّغوية، ص: 21-22.

² - غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم الأصوات العربية، دار عمار، الطبعة الأولى، عمّان - الأردن، 2004م،

* والمنتبّع لظاهرة الجهر في الخطاب القرآني يلحظ انتشارها بكثب، و بالخصوص في المواطن التي يقف فيها على أثر الكفار؛ فتراه يذكر صفاتهم وأعمالهم التي أهلكتهم ومن ثمّ يحدّد مصيرهم، لقوله تعالى:

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) }¹ وهؤلاء - العتاة المردة - من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى، ولا يجدي عليهم اللطف، وسواء عليهم أنزل عليهم الكتاب أو عدمه، أو أنذرهم الرسول أو لا، فإنّهم لا يتّبعون، فبارئناهم طبع الله على قلوبهم وحواسهم، بعد أن استحوذّ عليهم الشيطان فهم لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.² فتكرار الحروف المجهورة (و، ع، ل، م، أ، ب، غ، ذ، ط) قد سبقت لبيان أحوال الذين قادهم هواهم إلى الضلال إلى حيث لا ينفع معهم الإنذار والتذكير، فلمّا عدلوا وارتدّوا عن القصد المستقيم أزاغ الله قلوبهم عنه، فجعلها صمّاء عمياء عن الحقّ. وتبرز الوظيفة الإيقاعية للأصوات المجهورة على مستوى هاته الآية في تقرير المصير الحتمي لهؤلاء بأسلوب إخباري مباشر شديد القول قويّ الوقع، مُبرّزا أنّ حالتهم ميؤوس من ثباتها إلى درجة لا يُجدي معهم التّبليغ والتّذكير، أمّا دلالة هذا النّوع من الحروف فتكمن في تبيان كيف أحال الله بينهم وبين الهدى جزاءً بما كسبوا من باطلٍ وتحريفٍ للحقّ، وكيف تجعل الذّنوب القلوب مغلّقة لا سبيل لهدايتها.

* وفي ذات السّياق ذكر سبحانه وتعالى أنّ الكفر لا يقتصر على الإصرار والتشددّ به عنادًا ونكرًا وإنّما هناك وجهًا آخر من الصّفات القبيحة التي أهلكت أصحابها، كالإدّعاء، الافتراء والخداع، في

¹ - سورة البقرة : الآية [06-07]

² - ينظر؛ الرّمخشري: الكشّاف، الجزء الأول، ص: 162-163.

قوله سبحانه وتعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) }¹. افتتح سبحانه وتعالى بذكر الذين أخلصوا في دينهم، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، ووافق سرهم علنهم، وفعلهم قولهم، ثم استطرد في هذه الآية إلى الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وأبطنوا خلاف ما أظهروا.²

وتواتر حروف الجهر (ل، ن، م، ي...) في متن هاته الآيات لتصوير الذين آمنوا قولاً وليس يقيناً، وفضلمكرهم وخبثهم، وهم الذين صنّفهم الله من المنافقين، فكانوا أخبت الخلائق وأمقتهم عنده، لأنهم أخطوا بين الحق والكفر استنكاراً وخداً، وتلك الحروف المجهورة استسيغت بأسلوب تمثيلي استعاري لإبراز فضاغة جنائيتهم، وسوء عقيدته.

* ومن خصائص الخطاب القرآني إعجاز البلغاء في لغتهم، والفصحاء في ألسنتهم، لما يكتنزه من علوم وفنون ومن ذلك فن الردّ والمحااجة لقوله تعالى: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَنذَرُ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) }³. فقد احتج عليهم سبحانه وتعالى بما يُثبت وحدانيته ويحقّقها، ويبطل الإشراك ويهدمه، وعرفهم أنّ من أشرك فقد كابر عقله، وغطّى

¹ - سورة البقرة: الآية [10-08]

² - الرّمخسري: الكشف، الجزء الأول، ص: 170.

³ - سورة البقرة: الآية [24-23]

على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه. إثباتاً لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة الله في خلقه، فإن استبنتم العجز، فاتركوا العناد وانقوا سخطه.¹

والأصوات المجهورة على مستوى هذه الآيات (ن، م، ع، ل، و، ق، ر) تدلي بحجة قاطعة تستلزم وجوب الاعتراف بوحداية الله، وتقريراً بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن ما نُزل عليه غاية في الكمال والنزاهة، لا يعتريه نقص ولا ارتياب، ومنه؛ فقد تليت هاته الآيتان استناداً على هذا النوع من الحروف الشديدة الانفجارية؛ إفصاحاً لوحداية الله تعالى، إعلاناً للتحدي، وتقريراً بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وتهويلاً بعظم الجزاء.

ونستشف مما تقدّم أنّ انتقاء هذا النوع من الأصوات المجهورة يتناسب والغرض المسوق إليه، من تهديد و إنذار وتحدي، واعترافاً بوحداية الله، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فالحروف المجهورة أقرب وضوحاً وأشدّ وقعاً في نفسيّة المتلقّي، ولو نقتفي موضعها لألفينا أنّ الخطاب القرآني خصّ لكلّ ظاهرة صوتية دلالتها الخاصة.

¹ - الرّمخسري: الكشف، الجزء الأول، ص: 218.

02- دلالة أصوات الشدة والرخاوة في سورة البقرة:

إنّ التّشخيص العلمي للخطاب القرآني يقتضي تبصّرًا وأناةً حتّى تتجلي حقائقه، ومبتغانا في هذا المبحث هو استقراء الحروف ومضامينها الدّلالية وأن نجوس من خلال بنائه الأسلوبي بحثًا عن تيمات النّأوية في مضمّره، ومن الظّواهر الصّوتية التي تستدعي مُعابنتها نلفي؛ ظاهرتي الشّدة والرخاوة:

أ- دلالة أصوات الشّدة: من المعلوم أنّ الصّوت الشّديد هو الذي يمنع الصّوت أن يجري فيه وهي ثمانية؛ مجموعة في قولهم: أجذك قطبت.¹

* ومن المواقف التي يسوقها القرآن الكريم والتي تستدعي الحزم والقوّة، وما يلزم الويل والزّجر، نلفي قوله تعالى: { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسْتَ بِرَبِّهِمْ } فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80).² فويلٌ للذين عاندوا بالنّحرif بهتانًا وافتراءً، وويلٌ لهم ممّا أكلوا من السّحت، مع العلم والاستيقان.³

والملاحظ تواتر حروف الشّدة (أ، ك، ق، ت) بصورة واضحة تُحيل إلى معنى الويل والوعيد، كاشفة قبح فعلتهم وشناعة طمعهم، إذ لم يكتفوا بالنّحرif والتّزوير بأيديهم فحسب، وإنّما أنسبوه إلى الله افتراءً وبهتانًا ابتغاء ثمنٍ فانٍ. وبالتالي فدلالة حروف الشّدة وُزعت خصيصًا لتوكّد العقوبة

¹ - ابن سنان الخفاجي : سرّ الفصاحة، ص: 30.

² - سورة البقرة: الآية [79-80]

³ - ينظر؛ الرّمخسري: الكشّاف، الجزء الأول، ص: 288.

الحمية لهؤلاء الذين يفترون على الله ما لا يعلمون، وهذا النوع من الأصوات يلائم مثل هاتيه الأساليب وبالتحديد في سياق تقرير مصير المنافقين.

*وأثناء سرد قصة اليهود وردتهم بعد مجيء محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بَيِّنَا مَا كَفَرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)﴾.¹ فقد كانوا يستتصرون بخروج محمد صلى الله عليه وسلم، فلمّا بعث ورأوه من غيرهم كفروا به، حسداً للعرب وهم يعلمون أنّه الحقّ من ربهم، فقد اشتروا الحقّ بالباطل بنسما اعتاضوا ورضوا به، وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم.² واستناد الخطاب القرآني إلى هذا النوع من الحروف الانفجارية (أ، ج، ك، ب) يحمل دلائل عدّة منها؛ تبيان حدّة الحسد وبغي اليهود على محمد صلى الله عليه وسلم بسبب تكبرهم الذي أهلكهم وأهلك من قبلهم، أمّا الدلالة الثّانية؛ فهي إيذانٌ بتشديد التّهويل والتّهديد لما اقترّفوه.

*وفي سياق الحديث عن تعظيم بيوت الله وتقديس حرمتهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114)﴾.³ فما كان ينبغي لهم إلا أن يدخلوا مساجد الله

¹ - سورة البقرة: الآية [90-89]

² - ينظر؛ عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل بن كثير (774هـ): تفسير القرآن العظيم، تح؛ حكمة بن بشير بن

ياسين - سامي بن محمد السّلامة، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، السعودية، دت، الجزء الأول، ص: 326 -

³ - سورة البقرة: [114]

خائفين على حال النَّهْيِّب، وارتعاد المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها.¹ وتكمن دلالة الحروف الانفجارية المذكورة في هاته الآية: (أ، د، ك، ب، ت) في ذمّ المشركين الذين أخرجوا الرّسول صلى الله عليه وسلّم وأصحابه من مكّة ومنعواهم من الصّلاة في المسجد الحرام سعيّاً في خرابها، فأَيّ فعل أعظم وأقبح من فعلتهم منعاً وطرّداً لرسول الله - عليه السلام. فما نلاحظه أنّ دلالة هذا النّوع من الحروف يُلخص دلالاتي الدّم، والتّعظيم؛ ذمّ المشركين و تعظيم فعلتهم ببيت الله تعالى، فمن أعظم ممّن أغلق أبواب الله ومنع ذكر اسمه فيها سبحانه وتعالى.

فبلاغة التّوظيف القرآني للكلمة تسعى إلى إحاطة كلّ صوت بدلالته الخاصّة، فما نلتزمه أنّ حروف الشدّة محمولة بطاقة عالية منها ما يُحيل إلى القوّة، الويل، التّعظيم، والتّشديد...

بـ **دلالة أصوات الرّخاوة**: أمّا الأصوات الرّخوة فعند النّطق بها لا ينجس الهواء انحباساً محكّماً وإنّما يكتفي بأن يكون مجراه ضيقاً، وترتيب هذه الحروف حسب رخاوتها استناداً للتّجارب الحديثة هي: س، ص، ز، ش، ذ، ت، ظ، ف، هـ، ح، خ، غ.²

* ومن المشاهد التي تعتمد فيها على أصواتٍ تتميّز بالانفتاح الموسّع لمجرى الهواء وتصل إلى الأسماع بدون تكلف، أو تشديد، مؤثّرة فيها تأثيراً عفويّاً مسترسلاً، نلفي قوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (117).³ حيث يندرج دلاليّاً هذا النّوع من الحروف (س، ر، ض، ذ، ق، ل...) في حقل اللّين والرّخو فهذا تقرير مباشر من الله تعالى

¹ - الرّمخشري: الكشّاف، الجزء الأول، ص: 313.

² - إبراهيم أنيس: الأصوات اللّغوية، ص: 93.

³ - سورة البقرة: الآية [117].

أَنَّهُ؛ الخالقُ العظيم، الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأنَّ جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له ولد، وأَنَّهُ بديع سماواته وأراضيه، وأَنَّهُ إذا قَدَّرَ أمرًا فإنَّما يقول له كن فيكون.¹ وَيُسْتَبِينَ من هاته الآية أَنَّ دلالة تلك الأصوات تؤكد أَنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى كفيل وحده بالخلق وأنَّ ما قضاه من الأقدار فإنَّه سيكون كائنًا من غير امتناع أو عائق، من دون أي عناء أو مشقة.

*ومن أعظم ما يُقدِّم المرء لنفسه هو الإنفاق في سبيل اللَّه، وقد ضرب اللَّه سبحانه مثلاً؛ كنبته طيبة زرعت في أرض طيبة، وإذا بفرعها ينبت أثمرت سبع شعب ولكل واحدة منها مائة ثمرة في قوله سبحانه: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263) }.² وفي هذا السياق قال الرسول صلى اللَّه عليه وسلم: كلَّ عمل ابن آدم يُضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء اللَّه...³ وورود حروف الرخاوة على مستوى هاته الآيات (م، ن، س، هـ، ر...) تلخص جملة من المبادئ من جملتها؛ أَنَّ الكلمة الطيبة وستر السائل خير عند اللَّه وأحب من صدقة يتبعها أذى واللَّه واسع عليم، ومنه نستبين أَنَّ من حكمة اللَّه كفَّ المنَّ واختصَّ ذلکم لذاته وحده سبحانه، رَحمةً وَسِتْرًا على عباده الضَّعفاء.

¹ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 396-398.

² - سورة البقرة: الآية [261-263].

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 261.

*وفي وصف حال المؤمنين الذين إذا وقع عليهم الحزن والبلاء، قال سبحانه: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ
مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157) }.¹ ولنصيبنكم بذلك اختبارًا وامتحانًا.²

وتحمل حروف الرخوة (ل، ن، م، ر...) وعدًا قطعياً من الله تعالى لمن صبر واحتسب بالرحمة
والسكينة ليخفف عليهم ويربهم أن رحمته وسعت كل شيء وأن البلاء من مقاديره، فمن صبر
وصمد فقد جعله الله من الصابرين المحتسبين.

ومما تقدم نلاحظ أن حروف الرخوة من الأصوات التي لا تقتضي التكلف والتشديد بقدر اللين
واللطف - لكن على حسب موردها في السياق - وهذا ما لمحناه من خلال تلك النماذج المذكورة
آنفاً؛ فعلى سبيل توصيف المولى عز وجل قد ذكر عن نفسه سبحانه أنه بديع السماوات والأرض
وخالق كل شيء إذا أراد أمراً فإنه سيكون بأمره في برهة من الزمن بدون مشقة أو تكلف. وعلى
سبيل الإنفاق في سبيل الله فقد اقتضى ذلك الإخلاص والصدق، وعلى سبيل ذكر جزاء الصابرين
على الابتلاء فإنه سينزل سبحانه على قلوبهم الرحمة والسكينة جزاء لما صنعوا، وبالتالي قد اختار
الخطاب القرآني وانتقى هذا النوع من الحروف ليتناسب - ضمناً ودلالياً - مع محتوى الرسالة
ومبلغها.

¹ - سورة البقرة: [155-157]

² - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 348.

03- دلالة الإطباق والانفتاح في سورة البقرة:

سورة البقرة؛ هي من جُملة تلك السور التي تتعدّد مدلولاتها بشكلٍ غير متناهٍ. والنظريات النقدية الحديثة عمومًا والدراسات الأسلوبية بوجه خاصّ قد حاولت أن تُعين المتلقي بتوجيهه أمام ذاك التكاثر الدلالي والتكاثر الإيحائي؛ من خلال النفاذ إلى فضاءه المعجمي بتأني علمي مُحترز، بيد أن لتلك الحروف صِفَاتًا صوتيّة خاصّة - على حدّ تصنيف العلماء - من بينها ما يتّسم بالإطباق المشدّد أو ما يقابله انفتاحًا وبسطًا، وهذا ما ألفيناه في سورة البقرة على النحو التّالي:

أ/ دلالة أصوات الإطباق: هو ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنك حتى يصير كالطبّق له؛ وحروفه الصّاد، الضّاد، الظاء الطّاء، والصّفة التي تجمع بين هذه الحروف عدا اتّحاد مخرجها هي الشدّة فعند التّطرق بها ينحبس الهواء عند المخرج فإذا انفصل العضوان المكونان للصّوت سمع ما يشبه الانفجار. ما يميز بين هذه الأصوات الشدّة.¹

* ومن مظاهر الإطباق ما جاء في سورة البقرة وبالأخص في متن الأمثال التي ضربها الله تعالى ليُحاجج بها، في قوله تعالى: { إِنْ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27) }.² والله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فهذا ردّ على الكفرة الذين قالوا أما يستحي ربّ محمد أن يضرب مثلاً

¹ ينظر؛ إبراهيم أنيس: الأصوات اللّغوية، ص: 50-51.

² سورة البقرة: الآية [26-27]

بالذباب والعنكبوت فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال فاللذين كفروا فيستغربون استخفافاً وازدراءً بخلق الله أما المؤمنين فيعلمون أنه الحق من ربهم سبحانه وتعالى.¹

ومنه فدلالة حروف الإطباق (وبالخصوص حرف الضاد) قد لخصت المعنى البلاغي لهذا المثل الذي ساقه الله على قضية مضربه، فالمتدبر بدقة لهذا الضرب من الأمثال يستشف أن المخاطب محق في إلقاء هذا المثل، لنخرج بقاعدة مفادها؛ أن العبادة الحق تستلزم اليقين الجازم بقدرة الله، وللوصول إلى هاته المنزلة من العبادة لا بد من إعمال العقل والقلب معاً، فالؤمنين حينما سمعوا بهذا المثل علموا أنه الحق، أما الذين غشى الجهل على بصيرتهم استحقروا واستكبروا استكباراً.

*ومن الأمثال المسوقة إلينا لوصف حال المشركين بعد ارتدادهم قوله تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) }² وتقرير هذا المثل أن الله سبحانه وتعالى شبههم في شراءهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد التبصرة بالعمى؛ بمن استوفد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر واستأنس، فبينما هو

¹ - أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (710هـ): مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تح؛ سيد زكريا،

مكتبة نزار، الطبعة الأولى، 2009م، الجزء الأول، ص: 41

² - سورة البقرة: الآية [16 - 20]

كذلك إذا انطفأ نوره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، أصم أبكم أعمى عن الحق،¹ وهذا النوع من الأمثال في غاية البلاغة لدقة التّوصيف وبراعة التّصوير، والاستناد إلى حروف الإطباق (ص، ظ، ص) يُدلي أنّ بإيمانهم قد كساهم الله نوراً على نور، لكن بعدما جحدوا انقطع ذلك فأضحوا في ظلمة يتخبطون فلا هم اعتصموا بحبل الله المتين ونجوا، ولا هم اطمأنوا واستأنسوا بعد ضلالهم.

* حكمة الله تعالى اقتضت أنّ لا ينظر إلى الملامح وإنّما إلى ما قدّمت الجوارح وأمّا أصحاب الألسن الملتوية ، والقلوب المتقلبة فقد قال فيهم سبحانه وتعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) }.² بيان وتوضيح لما هو غرضهم ممّا يقولون أو استئنافاً وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الذّهن، كأنّه قيل ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين، فقول يخادعون الله، فيزعمون أنّهم يخدعون الله وما يضرّون بذلك إلا أنفسهم فإنّ دائرة فعلتهم مقصورة عليهم.³ فضرر مخادعتهم راجع إليهم لا يتخطّاهم إلى غيره، وتتجلى معاني الإطباق على مستوى هاته الآيات - وبالخصوص حرف الضاد- في تبيان أنّ المنافقين يعتقدون بجهلهم أنّهم يخدعون الله - بإظهارهم الإيمان وإضمارهم الكفر- لكنهم لا يخدعون إلا أنفسهم ومن فرط جهلهم ابتلوا بالحياد والذنوب، ومن دلائله أيضاً أنّ الله محيط بكلّ شيء علماً ودراية لا تخفى عليه خافية.

¹ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 186.

² - سورة البقرة: الآية [10-8]

³ - أبو السّعود بن محمد العمادي (945هـ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء الثّراث، الطبعة

الأولى، لبنان، دت، الجزء الأول، ص: 40-41

ونخلص مما تقدّم أنّ حروف الإطباق لها معاني عدّة تختلف أحياناً وتتواشج أحياناً أخرى على حسب السّياق الذي تتشكل فيه، فالأنموذج الأول يُحيل إلى معنى اليقين بوحداية الله وقدرته وهي أعلى درجات الإيمان، أمّا الأنموذج الذي يليه فيُحيل إلى الطّريق الصّحيح الذي ارتضاه الله لعباده ومادون ذلك فهو ضلال، أمّا المثال الأخير فأكد أنّ الله مُحيطٌ بكلّ شيء علماً ودراية سبحانه وتعالى.

بـ دلالة أصوات الانفتاح: هو تجافي كلّ من طائفتي اللّسان والحنك الأعلى عن الأخرى حتى يخرج النّفس من بينهما عند النّطق بالحرف. يوصف الصّوت بالانفتاح إذا تقعر وسط اللّسان وانبسط في حال نطقه بالأصوات الأخرى غير الأربعة المطبّقة، فالمنفتح لا تطبق ظهر لسانك يرفعه إلى الحنك فلا ينحصر الصّوت. وحروفه خمسة وعشرون حرفاً عدا حروف الإطباق.¹

*ومن صوّر الانفتاح قوله تعالى: {وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)}.² هاته الآية - ظاهرياً - خالية من حروف الإطباق، وفي مضمورها تصريحٌ بيّن أنّ قوّة البشر لن تخرج عن دائرة حكمة الله فشرعية الاختصاص والملك له وحده. "فأينما بدّلتُم محلّكم فثم وجه الله ولقد لقب هذا الحضور بالحضور العلمي الرّباني الكوني، عالم بما يديرومثير للأخلاق وواسع بإحاطتهعليم بمصالحهم.³ ومنه؛ فدلالة أصوات الانفتاح (ل. ر. ن. س...) إحالة أنّ الله يسع خلقه جميعاً بالكفاية والبسط.

¹ - ينظر؛ محمد أحمد معبد: الملخص المفيد في علم التّجويد، دار السلام، الطبعة الأولى، السعودية، 2005م،

ص: 77

² - سورة البقرة: الآية [115]

³ - أبو السّعود: إرشاد العقل السّليم، الجزء الأول، ص: 15

*ومن كمال الخالق ابتداء الخلق وكيونة القضاء، لقوله تعالى: { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (117).¹ مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذي به، أو قانون ينتحيه، بشكلٍ فائق وحسن رائع.² وهذا النوع من الأصوات (ف، ب، ق، ي..) تقرير؛ بأن الإبداع والمشية التامة المطلقة لله وحده، ما يجعلك تستشعر بهذه النبوة عظمة الخالق، في الخلق والتصوير، والاعتراف في النفس بأنه الأمر المطاع، الواجب الامتثال لأوامره.

*وقد أجزم الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم أن اليهود والنصارى لن ترضى عنك حتى تخضع لهم، في قوله: { وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِئْتَهُمْ بِعَدَاوَةٍ بَغْءٍ لِّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } (120).³ بيان لشدة الاعتراض خاصة المشركين وإصرارهم على ما هم عليه.⁴ والأصوات المندرجة ضمن حروف الانفتاح تضمّ قولين صريحين؛ الأول استحالة مرضاة اليهود والنصارى وموافقتهم على الحق، والثاني؛ أن الدين الإسلامي هو الدين الحنيف الذي ابتغاه الله للأمة الإسلامية وسنّه لها، وهذا النوع من الأصوات محمول بدلائل التهديد والوعيد.

ومن هاته الأمثلة المقدمة نستخلص أنّ حروف الانفتاح تتميز بتوسّع دلالاته، وتكاثف إحياءاته منها ما يدلّ على سعة رحمة الله وإحاطته - فأينما ابتغيتم مرضاته فهو سميع عليم - ومنها ما

¹ - سورة البقرة: الآية [117]

² - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 151.

³ - سورة البقرة: الآية [120]

⁴ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 153.

يدلّ على عظمة الله في الخلق والتّصوير، ومنها ما يُحيل إلى شدّة اعتراض الكفار وإصرارهم على ما هم عليه... ما نستخلصه بشكل عام أنّ أصوات الانفتاح تتساق مع دلائل الخطاب ومقاصده.

04_ دلالة الاستعلاء والإستفال في سورة البقرة:

لقد كان للتّلاحم الفكري بين النّقد الأدبي وعلوم اللّغة أثرًا بائنًا في إعادة النّظر لآليات مُدرسة الخطاب القرآني، ليس من خلال تحديد الظّاهرة وتشخيصها فحسب وإنّما من ناحية إبراز دلائلها المكتتفة، كما قد كان لهذا التّعاقد العلمي الأثر الجليّ في إعادة الاعتبار إلى طبيعة الظّاهرة من ناحية خواصها الأسلوبية وسماتها اللّغوية، وما يُلاحظه الدّارس للخطاب القرآني أنّ تلك الحقائق اللّغوية التي توصّل إليها علماء اللّغة لا تخرج عن الإعجاز العلمي للخطاب البياني، فهذا النّص الفيّاض تراه يُضمّن في متنّه مواقف، ويصوّر مشاهد، تستدعي مختلف الظّواهر الأسلوبية على حسب المقام ودرجة الحاجة التي تستدعي تضمينها أو إبدالها، وبمقاربة سورة البقرة من الوجهة الصّوتية وجب علينا أنّ نستخرج دلالة أصوات الاستعلاء والاستفال من متنها. على النّحو الآتي:

أ_ دلالة أصوات الاستعلاء: هو ارتفاع اللّسان بعضه أو كلّهِ إلى ما يحاذي الحنك الأعلى عند النّطق بالصّوت، وهي سبعة؛ مجموعة في قولهم: خص ضغط قط. وما عدا هذه الحروف فمخفض، ومعنى الاستعلاء أن تتصعد الحنك الأعلى.¹

*ومن صور التّفخيم في سورة البقرة نلتمسها في خطاب عظم الجزاء، في قوله سبحانه: { مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

¹ - ينظر؛ ابن سنان الخفاجي: سرّ الفصاحة، ص: 32.

(245){¹ قرضًا حسنًا حلالاً طيبًا ، مخلصًا لوجه الله، والجزاء بأضعاف، فتراه يقتُر تارة ويوسّع تارة أخرى حسب ما تقضيه مشيئته.² فمن هاته الحروف (ض. ط. ص) نستشف أنّ الله سبحانه وتعالى يحث عباده بأن يقرضوه قرضًا مخلصًا بنية ثوابه فيجازيهم جزاءً وفيرًا، وقد أدرج هذا التشبيه، تأنييسًا للمؤمنين وتقريب المعنى لهم، ما تُدلي تلك الحروف المفخمة على علو الهمة ورفع النية بالحث على الإنفاق والبذل لوجه الله تعالى.

* وعن نصره المؤمنين وإعانتهم قال سبحانه: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257){.³ فالله ناصر الذين اهتدوا واستمسكوا بالعروة الوثقى تيسيرًا وتنبيهاً لهم.⁴ تفيد هاته الأصوات المفخمة أنّ الله متولّي عباده لا يكلّمهم إلى غيره، فمن اتّبع هداه سيرفعه من دركة الرّيب إلى منزلة اليقين، وأمّا الذين اتّبعوا أهواءهم فإنّهم سيحيدون عن الحقّ، والاستناد إلى هذه الحروف يتلاءم ومضمون الخطاب، فهذا النوع البلاغي البديع المحمول بمقابلة - في أبلغ معانيها - تُدلي أنّه مثلّمًا حطّ الذين كفروا في الدّرك الأسفل فإنّه بالمقابل سيُعطي منزلة الذين آمنوا هدىً وثباتًا.

* ارتبطت الصّلاة بالدّعاء، والصّلاة في جوهرها ارتبطت بمناسك الحياة ككلّ، لذلك لُقّبت عند بعض الفقهاء بالأمانة، وقد قال فيها سبحانه وتعالى في كتابه العظيم: { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ

¹ - سورة البقرة: الآية [245]

² - أبو السّعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 250.

³ - سورة البقرة: الآية [257]

⁴ - يُنظر؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 685

وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَتُؤْمَرُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238)¹. أي داوموا على أدائها في ميقاتها من غير إخلال بشيء منها وقوموا لله خاشعين.² حيث وردت حروف الاستعلاء: (ظ، ص، ق) على مستوى هاته الآية حاملة دلالة بيّنة ورسالة واضحة، بأسلوب طلبي مباشر؛ لرفع هيبة الصلاة وقيمتها بالمواظبة والمداومة على الصلوات المكتوبات بمواقيتها وحدودها، وإتمام أركانها، ثم خصّ منها الصلاة الوسطى التي بقيت محل تأويل غيبي اختلف فيه الفقهاء والعلماء لا يعلم ميقاتها إلا الله سبحانه وتعالى، وهذا - إن حق لنا الوصف - هو حكمة ورحمة في الآن نفسه كي لا يرتبط الالتزام بصلاة واحدة وإنما كلّها بدون استثناء، ويبقى الثواب على الله سبحانه.

ب/ دلالة أصوات الاستفال: هو انحطاط اللسان إلى قاع الفم أثناء النطق بالصوت، ويقتضي الترقيق وحروفه: " ثبت غر من يحود حرفه سل إذ شكا وهو من صفات الضّعف".³

*ومن صور الاستفال في الخطاب القرآني ما تلمحه في تلك الآيات التي تتضمن معنى اصطفاء الدين الإسلامي للعالمين، ووجوب الانقياد له، إيماناً بوحداية الله وشرعية عبادته، ليس لأنه الخالق فحسب، وإنما لأنه جدير بالعبادة، في قوله سبحانه: { قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (132) }.⁴ أسلم وأذعن وأثبت على ما أنت عليه من الإسلام، واستقم وفوض أمورك لله، وكان رده عليه السلام إيذاناً بكمال قوة إسلامه وثباته.⁵ ومنه؛ فدلالة أصوات الاستفال المترددة

¹ - سورة البقرة: الآية [238]

² - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 235.

³ - ينظر، محمد أحمد معبد: الملخص المفيد في علم التجويد، ص: 77.

⁴ - سورة البقرة: الآية [131-132]

⁵ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 163.

على مستوى هذه الآية (ل، ب، س، أ، م) تُدلي بوجوب الخضوع والانقياد لرب العالمين، بإخلاصٍ وصدق تامّ. فكلّ الدلائل تثبت ألوهيته، وورود هذا النوع من الأصوات التي تتميز بالضعف والخضوع لا تخرج عن الحقل الدلالي لهذه الآية.

* وفي باب الحديث عن الأمم الغابرة، قال فيهم سبحانه وتعالى: { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (141).¹ فكلّ أمة قد خلت منفردة بعملها لكم ما كسبتم وعليكم ما اكتسبتم.² فهذا النوع من الأصوات (س، ل، أ، م) مسوقة للمبالغة في التحذير عمّا طُبِعوا عليه من الافتخار بالأجداد والاتكال عليهم والافتداء بهم، فهذا ضربٌ من التهديد والزجر عن الافتخار بأسلافهم وإتباع ملّتهم.

* وتعتبر الكعبة الشريفة من أحبّ الأماكن إلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها قبلة الأنبياء والمرسلين ومفخرة العرب والمسلمين، وقد مكّنه الله من زيارتها استجابة لرجبته - التي لا تخرج عن مقاصد شرعية - في قوله سبحانه وتعالى: { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } (144).³ أي تردّده وتصرف نظره في جهتها تطلّعاً للوحي وذلك أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقع في روعه ويتوقّع أن يحوله إلى الكعبة كونها قبلة إبراهيم وأدعى العرب إلى الإيمان، فوافقت رغبته مشيئته.⁴ ويستبين من

¹ - سورة البقرة: الآية [141]

² - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 170.

³ - سورة البقرة: الآية [144]

⁴ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 174.

دلائل حروف الاستفقال (ب، ت، ر، م، ن، ي، ل) أَنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى قد سمع لرغبة النبي - بكلّ لطف مستجيباً لرغبته صلى الله عليه وسلم؛ { فَلَنُؤَلِّيكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا } بما يوافق المقصد الدّيني، فجعلت الكعبة قبلةً للنّاس أجمعين وحُرمة من محارم الله تعالى.

ومما تقدّم يُستظهر للمتلقّي أنّ دلالة أصوات الاستفقال لا تخرج عن الحقل الدّلالي لغرض الآيات؛ فمنها ما يُحيل إلى الانقياد والاستسلام، ومنها ما يُحيل إلى أنّ الجزاء من جنس العمل فلا عتاب على من سبقك، وبالتالي فكلّ حرف من القاموس القرآني هو صوت دالّ على معنًى معين في نسق خاص يتماشى مع السّياق الذي يتشكّل فيه.

05_ دلالة الإذلاق والاصمات في سورة البقرة:

ما حبرته الدّراسات القرآنية - قديماً أو حديثاً- يُمثّل برهنةً صادقة لعظم الخطاب القرآني وغازة علومه، إذ لا يمكن البتة من أن يحظى نصّاً آخر بمثل هاته الحظوة - سواء في ذلك ما اتّجه صوب التّوصيف والتّنظير أو من اتّجه نحو الاستقراء والإجراء - لولا منزلته اللّغوية، ناهيك عن قيم أخرى لازالت محتجبة عن الدّارسين، والدّارس الأسلوبى لسورة البقرة يَستيقن أنّ البناء القرآني خاضع لنظام صوتي مُبين بطريقة محكمة ومنظمة تتداخل فيها مختلف الظّواهر حتى وان اختلفت في الصّفات إلى أنّها مكّمة لبعضها في إنتاج الدّلالة وبناء الخطاب، ومن الأصوات التي يتميّر نطقها بالخفة و الإخراج المحكم بين مخارج القوّة والضعف نستشفّ صفتي الإذلاق والاصمات:

01_ دلالة أصوات الإذلاق: الذلاقة هي النّطق بطرف اللّسان.أسلبة اللّسان والشّفتين والحروف

الذلقية السنوية ستة: (ل.ل.ن.ف.ب.م)، وإنّما سميت هذه الحروف ذلقاً لأنّ الذلاقة في المنطق

إنّما هي بطرف اللسان والشفّتين وهذه الحروف الستة مجموعة في قولهم: "قرّ من لب" منها ثلاثة ذلقية (ر.ل.ن) تخرج من ذلق اللسان من طرف الفم وثلاثة شفوية (ف.ب.م).¹

*ومن صوّر الإذلاق في النصّ القرآني ما ألفيناه من محاورة اليهود، في قوله سبحانه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)}.² فقد جاء هذا النوع من الأصوات الذلقية ، على سبيل الاستفهام التّهمي "ردّا على مقولة اليهود الذين ادّعوا الإيمان بغير ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلّم كالتّوراة والإنجيل، لكن لو كان الأمر كذلك ولو كان قولهم صادقاً فلماذا أرسل لهم الأنبياء أصلاً؟"³ ما تُدلي حروف الإذلاق (ب، م) مدى إصرار الكفار على اعتراضهم واستبدالهم الكفر بالإيمان ظلماً وطغياناً.

*وفي مقام الحديث عن الذين أصرّوا على شركهم قال سبحانه وتعالى: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81)}.⁴ والنّاظر لمعاني الآية يستشف أنّ دلالة أصوات الإذلاق (م، ن، ل، ب) تكمن في إثبات حقيقة مصير الكفار الذين أحاطت بهم ذنوبهم وأصرّوا عليها فاستهانوا بقدرة الله حتّى أخذهم على ذنوبهم. وهذا إذعانٌ صريح وتهديد شديد لمن أصرّوا على ذلك.

¹ - أبو الفتح عثمان بن جنيّ الموصلي (392هـ): سرّ صناعة الإعراب، تح؛ حسن هنداوي، دار الكتب العلمية،

الطبعة الأولى، لبنان، 2000م، الجزء الأول، ص: 74.

² - سورة البقرة: الآية [91]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 328

⁴ - سورة البقرة: الآية [81]

*وأما الذين أخلصوا لله سبحانه، فقد قال فيهم: { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } (112).¹ فمن أخلص دينه لوجه الله فله أجره وثوابه.² وهذا نفى لزعمهم، من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله، وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن، فإنه يدخل الجنة. وتكمن دلالة حروف الإذلاق (ب، ل، م، ن) في إثبات أن الجنة ليست مخصصة لفئة دون أخرى وإنما هي للذين آمنوا وعملوا بإحسان. ويتضح مما تقدم أن مثل هاته الأصوات تحمل ضمنياً جملة من الرسائل والمواظ التي تدعو إلى إتباعها طوعاً وامتثالاً، ومن ذلك ما ورد في هاته الآيات المذكورة آنفاً.

02/ دلالة أصوات الإصمات: الإصمات المصمت من الأصوات مالا جوف له، ويكون ثقيلًا، وسميت الأصوات المصنفة لثقلها على اللسان وحروفه ثلاثة وعشرون حرفاً مجموعة في قولهم؛ في عز غش ساقط ضد ثقة إذ وعظه يحضك.³

*ومن أوجه الإصمات في الخطاب القرآني نفى قوله تعالى: { وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ } (145).⁴ قالت اليهود والنصارى آتينا بآية مما تقول، فردّ الله ولئن أتيت بكل آية معجزة ما اتبعوا قبلتك.⁵ وقد تعددت حروف الإصمات محمولة بقسم عظيم

¹ - سورة البقرة: الآية [112]

² - عبد الله التّسفي: مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل، الجزء الأول، ص: 163.

³ - ينظر؛ محمد أحمد معبد: الملخص المفيد في علم التّجويد، ص: 77

⁴ - سورة البقرة: الآية [145]

⁵ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 461.

من رب العالمين أَنَّ اليهود لن تتبّع محمّدًا حتى ولو أنزلت مع كلّ آية معجزة ناطقة، واصفة سوء حالهم من العناء والمكابرة، حيث أن دلالتها ارتكزت على تنبيه محمد صلى الله عليه وسلّم ومن معه بعدم إتباع أهواءهم المتضاربة بعد ما نزل من اليقين.

*وفي سياق الحديث عن الذين أعرضوا عن ذكر الله قال سبحانه: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)}¹. فإن آمن الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بما أنزل على محمّد وعلى المؤمنين ولم يفرقوا بين أحد فقد أصابوا الحقّ وأرشدوا إليه وإن تولّوا فهم في شقاق مبين.² توزّعت حروف الإصمات على مستوى هاته الآية الكريمة لتدلي أنّ ما أنزل على محمّد عليه السّلام هو الحقّ، وإن أخلفوا وتولّوا فإنّهم في شقاق، فلا سبيل لهم إلى الهداية بغير هذا السّبيل.

*وفي ذات السياق عن المشركين، وكيف قست قلوبهم من الذنوب والمعاصي ذكر الله سبحانه وتعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)}³. قد صارت قلوب بني إسرائيل طول الأمد قاسية كالحجارة أو أقسى منها رغم ما أنزل من الدلائل الدّالة على كمال قدرته.⁴ واستناد هذه الآية إلى هذا النوع من حروف الإصمات يُبين مدى جحد الكفار رغم ما أنزل من المعجزات الدّالة على عظمتة سبحانه، فلم تَلِن قلوبهم رغم

¹ - سورة البقرة: الآية [137]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 450.

³ - سورة البقرة: الآية [74]

⁴ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 305

الآيات الناطقة بوحْدانيته سبحانه، حتَّى صارت أشدَّ غلظة من الحجر، وهذا النَّوع من الأمثال التي ضربها الخطاب القرآني لتوصيف قلوب المشركين؛ في غاية الدقَّة والبلاغة، قد شبَّه أفئدتهم بالحجر الصَّلب أو أظفَع من ذلك، لأنَّك ترى من الحجر ما قد يَتَّسع وينفِرج حتَّى تنسكب من صلبه المياه وتَصير أنهارًا، وترى منها ما ينشقُّ حتَّى تَصير عُيونًا، ومنها ما يسقط من أعالي الجبال خشوعًا وخضوعًا.

وختامًا نستنتج ممَّا سبق ذكره؛ أنَّ جِلَّ تلك الظَّواهر الصَّوتية(الشَّدة والرَّخاوة، الهمس والجهر، الإطباق و الانفتاح، الإذلاق والإصمات، الاستعلاء والاستفال...) لها دلائل مخصوصة في سياق معين، سبقت لأغراض مستهدفة، تَحمل ضمنيًّا؛ إمَّا عبرة من قصص الأولين أو حُكمًا شرعيًّا أو آيةً ناطقة بوحْدانية الله تعالى، وكلَّ أسلوب من القاموس القرآني يقتضي أصواتًا ومعاني خاصَّة؛ وإنَّ في انتلافها تُكوِّنُ لك وحدة لغوية مترابطة الألفاظ، متناسقة المعاني، متناسلة الدلائل، متعانقة الصُّور. فقيمة الصَّوت اللُّغوي لا تتوقَّف عند المستوى الأدائي والإيقاعي وإنَّما تتعدى وظائفه إلى إنتاج المعنى وتوسيع الدَّلالة والتأثير المكين في المتلقي.

ثالثاً: الفاصلة القرآنية؛ كآلية لغوية وسمة أسلوبية

إبانة:

الحقّ أنّ مثل هاته الإشكاليات قد كانت مشغلة الدارسين منذ عهود لكن الإجابة تراوحت واختلفت من منطلق الزاوية التي نُظر من خلالها، فَلَكَ أن تلاحظ كثرة الدّراسات التي تناولت جدلية الصّوت والمعنى وأضره على مستوى الخطاب القرآني، بشكل لم يحظَ به كتاباً آخر، وهاته السّورة بالتّحديد أطول سور القرآن وأكثرها تنوعاً، بل إنَّك تُففيها قد فصلت في مواضيع شتّى لم تُطرح في غيرها تفصيلاً مكثّفاً، وبما أنّنا قد اخترنا هاته السّورة كأنموذج لدراسة الفاصلة القرآنية فإنّنا نعدّ إلى مقارنة مركّبة ابتغاء وُلوج عوالم الدّال القرآني ومدلولاته الأسلوبية بوصفها السّبيل الميسر لرفع الحجب عمّا يكتنزه الخطاب القرآني، على النحو التّالي:

فبالنّظر إلى تكاثف البحوث والدّراسات حول هاته السّمة اللّغوية فإنّ أول تساؤل يطرحه المُتلقي هو؛ كيف بعنصر جزئي أن يستدعي مثل هاته البحوث المعمّقة والمستفيضة؟ لكن وبعد اجتهدنا البسيط فإنّنا نومي أنّ هذا العنصر غنيّ جدّاً، فالمقصد الأسلوبي للخطاب القرآني لم يُجرّد وظيفة الفاصلة القرآنية ودورها في صناعة المعنى وتوجيه الدّلالة. ومشايخنا القُدّامي قد طرحوا جُملة من المفاهيم منها؛ قول الرّماني(384هـ): الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني.¹ أمّا الباقلاني(402هـ) فاعتبر أنّ الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام

¹ - الرّماني، الخطابي، عبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح؛ محمد خلف الله، محمد زغلول

سلام، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مصر، 1990م، * الرسالة الثانية؛ النكت في إعجاز القرآن للرّماني، ص: 89

المعاني.¹ ومن أشهر التعاريف كذلك ما ذكره الزركشي: "وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يُبين القرآن بها سائر الكلام، وتسمى فواصل، لأنه ينفصل عندها الكلام وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها ولم تسم أسجاءً..."²

ومن هذا المعطى لماهية الفاصلة يُمكن القول؛ أنها آخر كلمة تذكر في الآية أو بالأحرى خواتيم الآيات، وسميت كذلك لأنها فصلت خاتمة الآية السابقة وبين رأس الآية التي تليها، وتكمن بلاغتها في بيان المعنى، ناهيك عن إضفاء التناسق الصوتي والانسجام اللغوي بين أجزاء الخطاب القرآني. وبعد الدراسة الصوتية لفواصل الآيات اعتمدنا على المنهج الإحصائي فألفينا ورودها بشكل مختلف ومتباين فنلّفِي ورود فاصلة النون على مستوى نصف فواصل سورة البقرة بنسبة 60 بالمئة، وتليها فاصلة الميم بنسبة 25 بالمئة، أما الرّاء فنسبتها ثمانٍ بالمئة، في حين أنّ الدّال لا تفوق نسبتها ثلاثة بالمئة بيد أنّ فاصلتي القاف واللام تقدّر نسبتهما واحد بالمئة فقد أُستعمل مرةً واحدةً فقط.

والملاحظ عمومًا على أنّ فواصل سورة البقرة من تلكم الأصوات التي تتميز بسمّة أسلوبية واضحة السّمع - حسب القيم التقديرية المقدمة آنفًا- فالأصوات الأنفية من النّون والميم والتكرارية كالرّاء من الحروف المجهورة ذات الوقع الشّدِيد إذا وردت في أيّ موطن أبلغت أيّما تبليغ لما لها من تأثير سمعي ونفسي على المتلقّي، وهي أكثر الأصوات ورودًا على مستوى فواصل السّورة... أمّا حرف الدّال والقاف فهو كذلك من حروف الشدّة التي تتميز بالقوة في الإفصاح وتبيان الأثر في حين أن

¹ - الباقلائي: إعجاز القرآن، ص: 270-271

² - المصدر نفسه: ص ن

حرف اللّام من الحروف التي تتراوح بين الأصوات المهموسة الرخوة والتي تتميز باللين والضعف وكلاً من هؤلاء لها دلالة بيّنة على حسب السياق الذي يوجّه الآية.

01_ أنماط الفاصلة القرآنية في سورة البقرة:

إنّ الإيقاع الموسيقي الذي أحدثته الفاصلة القرآنية في منتهى الآيات أسهم في تشكيل الصورة وبناء الخطاب باعتبار أنّ وظيفتها اللسانية لا تخرج عن المعنى الضمني للخطاب القرآني، فلا تخلو أي فاصلة من علامة أسلوبية دالة، وبما أنّنا اخترنا سورة البقرة أنموذجاً لهاته الدراسة فإننا ارتأينا أن نتتبّع أنماطها على النحو التالي:

01_ المتوازي: وهو اتفاق الكلمتان في الوزن وحروف السجع كقوله تعالى: { فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ }¹ ومن هذا النمط نماذج عدّة منها:

_ قال تعالى: { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) }².

_ قال تعالى: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ

¹ - أبو عبد الله بدر الدين الزركشي (794هـ): البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء

الكتب العربية، الطبعة الأولى، لبنان، 1990م، ص: 75

² - سورة البقرة: الآية [3-5]

دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24).¹

_ قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
(34)}

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ (35).²

يتضح من هاته النماذج المقدمة أنّ النمط المتوازي قد تحقق من خلال اتفاق الفواصل في الوزن
والحرف الأخير من ذلك؛ (يُنْفِقُونَ/ يُوقِنُونَ). (صَادِقِينَ/ لِلْكَافِرِينَ)، (الْكَافِرِينَ/ الظَّالِمِينَ) وعليه؛ فهذا
الاتفاق الصوتي جيء محمولاً بمعان عدّة؛ فالنموذج الأول قد بيّن فيها شيم المؤمنين وكانت
الصفّتان المحوريتان هما؛ الإنفاق في سبيل الله واليقين الجازم بالبعث والنشور. أمّا النموذج الثاني
ففيه ضرب من الإعجاز والمحاجة لما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم، في حين أن
النموذج الذي يليه فقد أكد أنّ الكبر من شيم الكافرين، وأنّ من لم يطع الله فإنّه ظالم لنفسه.
وبذلك فالتناسب الصوتي الذي انجلى بين الموضعين يتّضح كذلك من خلال المعنى، فتلتبس في
كلّ واحدة منهما انسجام وترابط لغوي للمعنى الذي يرمي إليه الخطاب، لذلك فالفاصلة القرآنية
ليست سمة جمالية فحسب وإنّما هي كذلك آلية أسلوبية وضرورة لغوية لخدمة المعنى وتكوين
الخطاب.

¹ - سورة البقرة: الآية [24-23]

² - سورة البقرة: الآية [35-34]

02_ المطرّف: هو أن يتفقا في حروف السّجّع لا في الوزن.¹ ومن أوجه الاعتماد على هذا النّمت

نُلفي:

_ قال تعالى: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6)}.²

_ قال تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15)}.³

_ قال تعالى: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ
عَلِمْتُمْ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65)}.⁴

ومن أوجه الاعتماد على النّمت المطرف في هاته الآيات نُلفيه في الاتّفاق في حروف السّجّع
والاختلاف في الوزن من ذلك: (الْمُفْلِحُونَ / يُؤْمِنُونَ)، (مُسْتَهْزِئُونَ / يَعْمَهُونَ)، (الْخَاسِرِينَ /
خَاسِئِينَ) فالتّشاكل الصّوتي والتّناسب الإيقاعي الذي ظفرت به هاته الآيات لا يخرج عن مقصده
الدّلالي فالوظيفة الأسلوبية لهذا النّوع من الفواصل تتعدّى البناء الظّاهري للخطاب إلى البنية
العميقة للقول. وعمومًا فهذا التّناسق الصّوتي أضفى نوعًا من النّغم الموسيقي الذي يستدرج أذن
السامع بلغة في منتهى البلاغة والوضوح.

¹ - الرّكشي: البرهان في علوم القرآن، ص: 76

² - سورة البقرة: الآية [06-05]

³ - سورة البقرة: الآية [15-14]

⁴ - سورة البقرة: الآية [65-64]

03_ التّرسل: ونعني به عدم التقيّد بوزن ولا رويّ في الفواصل، ولكن البيان القرآني لا يتركه عاطلاً دون تحقيق قدر كبير من الانضباط الموسيقي.¹ ومن صور الاستناد إلى هذا النمط نلّفي قوله تعالى:

_ قال تعالى: { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105) مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) }.²

_ قال تعالى: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) }.³

_ قال تعالى: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) }.⁴

¹ - كمال الدّين عبد الغني المرسى: فواصل الآيات القرآنية، المكتب الجامعي الحديث، الطبعة الأولى، القاهرة،

1999م، ص: 193. * نقلاً عن؛ نحلة أحمد محمود: لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، ص: 373

² - سورة البقرة: الآية [105-106]

³ - سورة البقرة: الآية [110-111]

⁴ - سورة البقرة: الآية [129-131]

بالرغم من التفاوت والاختلاف في البنية الصوتية لهاته الفواصل (العظيم/ قدير)، (بصير/ صادقين)،
(الحكيم / الصالحين) إلا أنك تلتصق نوعاً من التقارب والاستثناس حينما تثنى عليك هذا النوع من
الآيات لأنها وببساطة خالية من الحشو والتنافر الصوتي، ومبلغ هذا النوع من الفواصل هو توصيل
المعنى وتبليغه من خلال انتقاء الحروف انتقاءً دقيقاً وتركيب الوحدات الجمالية للخطاب تركيباً
محكماً.

ومن هذا الطرح يُستبين لدى الباحث أنّ سورة البقرة قد لجأت إلى خاصية تعدد واختلاف
الفواصل على حسب المقام، وكلّ نمط من هؤلاء له معانٍ دالة، وهذا التنوع من ناحية الفواصل
أسهم في تحقيق التناسب الصوتي والتناسق اللغوي بين وحدات النصّ فتجعل من النصّ كلاً
متكاملاً وليس مجرد وحدات لغوية مسترسلة، وبالتالي فهذا النوع من الآليات الأسلوبية لا يقف عند
حدود التشاكل الصوتي والبناء الإيقاعي فحسب بل يتعداه إلى تحقيق الترابط اللغوي للمبنى القرآني.

رابعًا: الإيقاع القرآني؛ بين وَقْع الصِّيَاغَة وأثر الدَّلَالَة.

إبانة:

إِفْتَعَدَ الإيقاع الأسلوبي حيزًا بائنًا في الدِّراسات القرآنية لعظم أثره، وبلاغة وقعه، فالجاذبية التي يُحدثها الإيقاع القرآني من خلال التَّلوين الموسيقي الذي يستند إليه هي جاذبية خاصة مكنته من التَّفاد إلى أفئدة المتلقِّي مباشرة بطريقة مستدرجة وآسرة.

وهنا تكمن حكمة الخطاب القرآني في كيفية انتقائه لتلكم الظواهر انتقاءً مقتدرًا وخاصة تلك الميكانيزمات الإيقاعية الحرة التي يبتدعها الخطاب من دون الالتزام بقاعدة بائنة لكن تخضع لنظام دلاليّ وينجلي ذلكم تحديدًا في نظمه الإيقاعي المُبَيَّن عبر تلك الوحدات اللُّغوية المؤتلفة والمتراصفة تراصفًا عضويًا منتظمًا، فكلّ وحدة من وحداته الصَّوتية تسهم في إبراز الأداء القرآني في أرقى درجات الكمال من الاتِّساق والانسجام. وهذا الرِّكن الأسلوبي الذي يتضمَّن الإيقاع القرآني؛ بين جمالية الصِّيَاغَة وبلاغة الدَّلَالَة، يضعنا أمام جدلية نقدية - منفتحة الزَّوايا، متوعِّرة المعاينة - إزاء ثنائية؛ الموسيقى والمعنى، كمرتكزٍ جوهري للمَبْنَى اللُّغوي، ولعلّ الظواهر الإيقاعية للوحدات اللُّغوية من الظواهر التي تميِّز الأداء القرآني بشكلٍ لافتٍ منقطع النّظير ولا سيما في سورة البقرة.

ولكن السِّمة الأسلوبية للموسيقى - بكلّ خصائصها - لا يتسنى للدارس استجلاء أسرارها إلّا متى وَلَجَ إليها من الوجهة الإيقاعية من حيث أنَّها خاصية أسلوبية لِصَوِّغِ النَّسْنِ ترفُّع عن النّظم

الشعري والتركيب النثري ترفعاً مؤثلاً يليق بمقامه، وهذا ما أثّرنا أن نتبّع حيثياته في المحتوى التالي:

01_ التّجنيس: والتّجانس هو التّشابه، فتشابه الكلمتان في اللفظ وتختلفان في المعنى،¹ ممّا ينسج هذا الأخير تناغماً وتوازناً صوتياً، ناتجاً عن التكرار الصوتي للمتشابهات اللفظية، ويظهر أثره بارزاً لدى المتلقي، فتجعله أكثر مقدرة على الاستماع وقابلية على التدبر، ومن صور التّجنيس على مستوى سورة البقرة نلّفى قوله تعالى:

* في مستهل السورة وتعظيماً لمنزلة المؤمنين، قال سبحانه: { آلم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) }.² لقد ورد على مستوى هاتيه الآية جناساً ناقصاً بين لفظتي؛ (يُنْفِقُونَ / يُوقِنُونَ) ممّا أحدث نغماً موسيقياً، يستوجب التدبر في معناه، والذي يحمل ضمناً أسلوب مدح صريح للمتقين والإنفاق هنا جاء بغير اقتدار لكسب معين أو في فترة محدّدة وإنّما بشكل مطلق ومستمر في قوله: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} وارتبط كذلك باليقين الدائم والإيمان الثابت بما أنزل الله على محمّد وعلى من قبله وبكلّ ما اشتمل عليه من الغيب. ذاكرًا ضمير { هُمْ } والتي تفيد القصر والتوكيد.

¹ - ينظر؛ عبد المتعال الصّعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفاتيح في علوم البلاغة، دار الأدب، الطبعة السابعة،

القاهرة، 1999م، ص: 67

² - سورة البقرة: الآية [04-01]

* ومن سنن الخالق في الخلق تهيئة سبل الحياة لعباده في قوله: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) }.¹

في هاته الآية بالتحديد تلمس إيقاعاً موسيقياً جهرياً يتخلله بعض حروف الهمس. ومن ذلك نلفي تجنيساً بين (خَلَقَكُمْ / قَبْلَكُمْ / لَعَلَّكُمْ). (وَالسَّمَاءَ / مَاءً). (تَتَّقُونَ / تَعْلَمُونَ) وهذا ضربٌ من الجناس الناقص والذي تبعث في النفس نوعاً من الانتظام الموسيقي الذي يريح سامعه بطريقة مسترسلة وواضحة... وهذا النوع من الأنساق البديعية من شأنها التثبيته والتذكير بالقدرة الإلهية وعظمة الخالق في الخلق وتهيئة ضروريات الحياة والإقامة في الكون من ذلك ما ذكر سبحانه: { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً } وقال أيضاً: { وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } وهذا الصوت الممدود أسهم بشكل لافت إلى تبليغ الرسالة إلى أعماق النفوس. وفي خاتمة الآية نبّه سبحانه عباده: { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }. لأنه أولى بالطاعة والعبادة سبحانه وتعالى.

* وقال تعالى: { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنْتَبَهُم بِمَا فُتِحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُحَاجُّوهُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) قَوْلٌ لِلَّذِينَ يُكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ

¹ - سورة البقرة: الآية [21-22]

لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80).¹

إن الإيقاع الموسيقي الذي تميّزت به هذه الآية من ذلك استناده إلى ثلّة من ظواهر التجنيس: (لَقُوا/ قَالُوا). (تَعْقِلُونَ/ يَعْلَمُونَ). (يُسِرُّونَ/ يُعْلِنُونَ) (يَظُنُّونَ/ يَكْنُبُونَ) (يَقُولُونَ/ يَكْسِبُونَ) (تَقُولُونَ/ تَعْلَمُونَ) يثير في النفس باعثاً قوياً في التأمل والتدبر في المعنى، والذي يُحيل إلى التهديد والوعيد، وقد أدرجت هذه الآية ظاهرة التكرار والتي تمثلت في ورود لفظة { فَوَيْلٌ } ثلاث مرات، وهذا أسهم بتشديد القول وصرف ذهنية المتلقي مباشرة إلى مغزى الآية، ومن ثم ختمها بأسلوب تهكمي غير حقيقي { قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } وهذا النوع من الأساليب قد أضفى إيقاعاً موسيقياً لافتاً لا يجعل السامع يحيل عن سياق المعنى ممّا يكتسي هذا الموقف نوعاً من المهابة والحزم.

وممّا تقدّم يُستبين أنّ ظاهرة الجناس هي ضرب من الإعجاز البياني، له أثر بارز في إبراز المعنى وتصوير المشهد وصناعة الخطاب، فتراه يهمس ومن ثمّ يجهر فيشتدّ الإيقاع حيناً وينخفض حيناً آخر... وإنّك لا تلفيه في أيّ موضع إلّا وقد جسد الصورة بكامل حيثياتها بطبيعتها وديناميتها وحسّيتها كأنّها ماثلة أمام ناظريك، فهذا اللون البلاغي يستهدف أولاً إثراء الدلالة وقبل ذلك يرمي إلى جذب المتلقي، وتصفية ذهنيته، لإثارة قابلية التقبل والاستماع إلى هذا الخطاب العظيم تأملاً وتدبراً.

¹ - سورة البقرة: الآية [76-80]

02- المطابقة: وهو الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة،¹ وهو من الأنساق

البديعية التي تركز على المعنى. ناهيك عن الحسّ الموسيقي الذي تخلقه. ومن أمثلة ذلك في

سورة البقرة نلغي:

قال تعالى: { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } (179).² تحمل هاته الآية

لوناً من ألوان المطابقة بين معنيين اثنين؛ (القصاص/ حَيَاة) فبالرغم أنّها آية موجزة اللفظ إلا أنّها

تحمل معنى عميق جداً يُلخص مبدءاً صريحاً؛ القتل بعث على الحياة وحدّ للقتل، فكأنما قولهم

القصاص يرادف الحياة أو بعبارة أخرى القصاص إحياء للجميع. وهنا تلتبس بلاغة الخطاب

القرآني من خلال شدّ اللفظ وطلق المعنى، ويوحى لمبدأ آخر أن وجود شيء سبب في سقوط نفسه

أي القتل حدّ للقتل ونفي له. ضف إلى ذلك أنّه يحمل حكماً شرعياً بوجود العدل فكأنّ القتل

جريمة فإنّ القصاص جزاء للظالم. ناهيك أنّه يحمل أسلوبين متناقضين هما التّغريب والتّرهيب،

فتلغي أنّ في هذه الآية ضرباً من الرّدع للحدّ من الجريمة، وضرباً من التّغريب وبالخصوص حينما

تسمع كلمة الحياة تستشعر بقيمتها وأنّها أمانة وجب المحافظة عليها، إلى درجة أنّه أحلّ

القصاص مقابل ذلك.

* ومن الأمثلة التي ساقها الخطاب القرآني عن المنافقين نستشفّ قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا

الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } (16).³ في هذه الآية مثلٌ بأوجز ألفاظه

¹ - جلال الدّين بن محمد عبد الرّحمن القزويني (739هـ): الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني، البيان، البديع، تح؛

عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، لبنان، 1993م، ص: 255

² - سورة البقرة: الآية [179]

³ - سورة البقرة: الآية [16]

وأبلغ معانيه من خلال الاستناد إلى فن المطابقة بين؛ (الضلالة / الهدي) والتي تلخص معنى الصفة الخاسرة للذين استحبوا الكفر على الإيمان واعتاضوا عن الحق بالضلال ولو أنهم استقاموا ما أضلوا سواء السبيل.

* ومن فضل الله على أنبيائه أنه وهبهم العلم والحكمة لقوله: { قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } (33).¹ ضمن هذا الحوار تضاداً بين؛ (تُبْدُونَ / تَكْتُمُونَ) مؤكداً سبحانه وتعالى أنه يعلم غيب السماوات والأرض وما يظهره بألسنتهم وما يخفونه. والذي أظهره بألسنتهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. والذين كتموه هو قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم...² وهاته الأخيرة تحمل في مضمورها عتاباً وتوبيخاً لكن بلطف ولين مقدراً مكانتهم وغيرتهم عليه سبحانه ومؤكداً لملائكته الكرام قدرة الله في معرفة الغيب وما أسروا وما أعلنوا.

والأمثلة في هذا الباب كثيرة وكلّ منها لها معنى خاص وإيقاع صوتي مميز يتماشى مع دلالاته الأسلوبية التي لا تنفك عن السياق ومبلغ الخطاب فالأنموذج الأول يدعو إلى تجسيد شرع القصاص أو بعبارة أخرى مبدأ الحفاظ على الحياة، والثاني قد ضرب لنا مثلاً حول الذين استبدلوا دينهم بدنياهم فأضلّهم الله عن صراطه، أمّا الأنموذج الأخير فصرّح بقدرة الله وعظمته... والملاحظ أنّ هذا الفنّ يتميز بالإيجاز اللفظي والإيحاء الدلالي ممّا يجعل السامع يستوقف عند كلّ آية كونه يجمع بين المتناقضين في تركيب واحد ليترك الأفق للمتلقّي كي يعرف الفرق بينهما

¹ - سورة البقرة: الآية [33]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 225-226

والدلالة التي ينتجها، ناهيك عن ذلك فإنه يسهم في اتساق النص وانسجامه. من خلال الربط بين الوحدات اللغوية الإيقاعية.

03- المشكلة: هيمن المصطلحات والفنون البلاغية التي أدرجها مشايخنا الأقدمون في صنف علوم البلاغة العربية، ويُقصد بها على الصعيد الاصطلاحي؛ ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا.¹ ومن مواطن ورود هذا النسق البلاغي الأقرب إلى المشابهة والمماثلة في سورة البقرة نستشف:

قال تعالى: { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) }.² فإذا لقوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة، غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا وتصنعًا، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم، وإذا انصرفوا وذهبوا إلى ساداتهم وكبرائهم قالوا إننا نحن ساخرون من أصحاب الرسول.³ تضمّن هذا النصّ القرآني أسلوب مشكلة في موضع؛ { يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) } والذي يحمل تأكيدًا على الجزاء الحتمي للذين يدعون الإيمان ويفترون على الرسول صلى الله عليه وسلم، فعقيدتهم لا تقوم على التصديق الجازم واليقين الثابت وإنما تقوم على التظاهر والتناقض لقوله: { وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ } وفي هذا النصّ البياني هناك جملتين الأولى فعلية والتي تتميز بعدم الثبات على منهج معين. في حين أنّ الجملة الثانية

¹ - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 295-296

² - سورة البقرة: الآية [13-14]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 182-183

هي جملة اسمية تأكّد نهجهم وإصرارهم على كفرهم وما أكّد ذلك اقترانه بحرف {إِنَّا} وجيء أسلوب المشاكلة على هذا النحو لتأكيد أمرين هما؛ حتمية الجزاء، وقدرة الله على معرفة خبايا النفوس.

* وحينما قالوا لمحمد عليه الصّلاة والسّلام كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا ردّ عليهم سبحانه:

{ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) }¹ بل اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، صبغة الله التي هي أحسن الصّبغ، فإنّها هي الحنيفية المسلمة، ودعوا الشّرك بالله والضلال على محبّة هداة.² وفي هذا الخطاب الموجز جيء بلفظ الصّبغة على طريقة المشاكلة للمقارنة بين الملتين بأسلوب وصفي مقارن، وتبيّن ذلك في قوله: { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً } المتضمن لأسلوب التّفصيل الذي جاء في سياق الاستفهام حاملاً دلائل المفاضلة والتّعظيم للدين الإسلامي الذي ارتضاه الله لعباده.

ومنه؛ فقد أورد الخطاب القرآني في مواقع شتى لفظاً ومن ثمّ يقرنه بمعنى غيره لملائمتها لسياق محقّق ومقدّر على سبيل المشاكلة. وإن أمعنا النّظر في هذا النوع من الفنون البلاغية فإننا نلتبسها محمولاً بأساليب عدّة كالمفاضلة، الموازنة، المقارنة، التّعظيم، التّجسيد... وبمثل هكذا ظواهر تقتضي من الدّارس تفكيراً وتدبّراً للبحث عن الدّلالة العميقة التي يقصدها الخطاب وتقتضيها الأسيقة، ومن ذلك ما ورد في هاتيه الأمثلة - الآنفه الذّكر - فمنها ما يُحيل إلى تأكيد قدرة الله تعالى، ومنها ما يُحيل إلى المفاضلة وتعظيم الدين الإسلامي على بقية الأديان.. وبالتالي فنّ المشاكلة فنّ شاسع الأفق، رحب المورد، متنوّع الدّلائل، يحتضن أساليب لا حصر لها تختلف من نسق إلى آخر وهذا سرّ فاعليتها.

¹ - سورة البقرة: الآية [137]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 450-451

04_ المقابلة: هي الإتيان بمعنيين متوافقين أو أكثر من معنيين، ثم يأتي بما يقابل تلك المعاني

على الترتيب، واستشهد القزويني بقول الله تعالى في سورة التوبة: {فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا}

¹وهي من أمثلة المقابلة في القرآن الكريم، وبذلك تكون المقابلة هنا باستخدام مفاهيم متضادة، فقوبل

ما بين الضحك والبكاء والقليل والكثير.² ومن أشكال المقابلة في سورة البقرة نلفي قوله تعالى:

*قال تعالى: { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ

الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257) }.³ سيق

هذه الآية بمثل في مُتتهى البلاغة، أُضرب في سياق الذين اتبعوا سبله، والذين زُينت لهم أعمالهم،

وحينئذ على سبيل المقابلة؛ وهذا بيان لما قبله وتوكيد لمن اتبعه بأنه سينجيهم من وحل الشك

والريب إلى الحق، أما الكافرين فإنه سيحيد بهم من سبل الرشاد إلى متاهة الجهل، والمُلفت في

هاته المقابلة أنها استعملت لفظة النور بصيغة المفرد أما لفظة الظلمات وردت بصيغة الجمع، مما

يوكد أن طريق الحق بائنٌ أما طريق الجهل فقد تعددت سبله" ولهذا وحّد لفظ النور وجمع الظلمات

لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة.⁴ ومنه؛ فهذا اللون البديعي من شأنه أن يحدث

أثراً في نفسية المتلقي، فيستوقفه من خلال تلك الأبعاد البلاغية والغايات الفكرية التي يرمي إليها،

فرغم إيجازه اللفظي إلا أنه لخص شرع الله وأسباب توفيقه؛ بين عبارتين متقابلتين في آية واحدة

مُلخصها؛ أن الله ناصرُ الذين آمنوا فيتولاهم بمنته توفيقاً وسداداً، وأما الذين صدّوا عنه فإنه

سيحيل بينهم وبين سبل الرشاد.

¹ - سورة التوبة: الآية [82]

² - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 485

³ - سورة البقرة: الآية [256]

⁴ - يُنظر؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 685-686

*وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26)}.¹ وردت من متن هذه الآية مثلاً بلاغياً على سبيل المقابلة؛ "ضرب في سياق الدنيا وأهلها على مضرب البعوضة فإنها تحيا ماجاعت وإذا شبعَت ماتت، كذلك أهل الدنيا إذا امتلأوا منها هلكوا"² فالله لا يستحي من تجسيد الحق وتصوير الباطل حتى ولو بأصغر الأشياء، والحكمة من الإشارة إلى البعوض في حد ذاته حكمة عظيمة فلو تدبّر العاقل في شؤون خلقه لها لخرّ ساجداً أما الذين كفروا فإنهم ينصرفون عن ذلك، ومنه فمبتغاها الأسلوبى؛ هو إيضاح الحق وتأكيد دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى.

*ومن حكمة الله أن جعل لعباده عقلاً لِيَحْتَكُمُوا إِلَيْهِ وميثاقاً لِيَلْتَزِمُوا بِهِ طَوْعًا أَوْ قَسْرًا، ومن عظمة قدرته أن جعل الحياة والبعث من سننه في قوله: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28)}.³ فكيف تكفرون بالله بعد تنزيل الدلائل ووضوح البراهين؛ ومن ذلك أنكم كنتم نطفا في أصلاب آبائكم، فأحياكم في أرحام أمهاتكم يميّتكم عند انقضاء الأجل، ثم يحييكم للبعث والنشور.⁴ وفي تأويل هاته الآية أنها جيئت على سبيل المقابلة محمولة باستفهام

¹ - سورة البقرة: الآية [25]

² - محمود صافي: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه - مع فوائد نحوية هامة - دار الرشيد، الطبعة الثالثة،

بيروت، 1995م، الجزء الأول، ص: 87

³ - سورة البقرة: الآية [27]

⁴ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 212-213

إنكاري غرضه التأنيب والتوبيخ لفرط إجرامهم في الحياة الدنّيا واستهتارهم رغم ما أنزل من الآيات والدلائل.

ومن ذلك يَخْلُصُ لَنَا؛ أَنَّ الخطاب القرآني انفراد بأساليبه الخاصّة فتراه يميل إلى فنون إيقاعية محمولة بمقاصد بلاغية، وذلك مدعاة بالضرورة إلى جذب المتلقي والتأثير فيه فتخلق نوعاً من القابلية والارتياح الذهني التام لاستقباله، وهذا ما ألفيناه مع فنون؛ التّجنيس، المطابقة، المشاكلة، المقابلة، من حيث جودة المعنى وجزالة الألفاظ والقدرة على التّحكّم في الجرس الموسيقي لتلك الوحدات فتراها تشدّ حيناً وتخفّض حيناً وتتعاقد حيناً وتتطابق في أحيان كثيرة، ومن ثمّ تصوغ لك لفظاً فصيحاً فتأتي بمعنى آخر يُشاكله، فيسقط الغموض عن المتلقي ويغتدي، والقرآن الكريم قد تُحِفَ بهاته الألوان البلاغية لتحقيق أغراض أسلوبية.

استدلال ختامي:

وعلى سبيل الخلاصة، لهذا الجزء البحثي الموسوم؛ "بالأداء القرآني وأثره في إبراز المعاني" فإنّنا نُؤمّي؛ أنّه يستحيل لنا أن نوّطر خاتمة نهائية وبالأخص على مستوى هاته المقاربة فهذا الموضوع بقدر ما هو موضوع شائق إلّا أنّه شائكٌ شاسعٌ يجزّ أطرافَ بعضه بعضاً إلى ما لانهائية-لذا لا يسعنا في هذا المقام المعرفي إلّا أنّ نعقّل وثاقه ونشدّ عضده بثلّة من النّتائج، ليتيسّر لنا إمطة الحجب - إلى حدّ ما - عن تلكم الطّواهر التي ما انفكّت النّظريات المستحدثة عن مُدارستها استقراءً أسلوبياً بنائياً:

- فعلى أساس القراءة التّنظيرية نشير؛ أنّ التّكريس الاستقرائي للأداء القرآني في الفكر العربي اعتمد على منهج الرّؤية والمعاينة، قد أحاط - على الأغلب - ببعض سماته الإيقاعية ومن ذلك ما

ألفيناه - في مستهل البحث- من مُدرسة الأقدمين كالباقلاّني، الرّماني... وحتى في العصر الحديث لم تكن مجهوداتهم بمنأى عن ذلك المُبتغى العلمي.

_ وأما على الصّعيد الإجمالي فإنّنا ألفينا القاموس القرآني قد استند على أصوات تُحاكي طبيعتها من النّاحية الدّلالية ومن النّاحية الفيزيولوجية، وهي بدورها أسهمت في سياقة المقصد الأسلوبي للخطاب فتلمّحه يهمس ومن ثم يجهر وبالمقابل يشتدّ ويلين... فجعل لكلّ لفظٍ وقَعًا خاصًا به على حسب السّياق الذي يتصعّد منه ويتناغم فيه.

_ وكذلك هو الشّأن بالنّسبة للفاصلة القرآنية، فلم تكن زخرًا لفظيًا، وإنّما مقطعًا صوتيًا يبتغي توضيح المعاني وتقوية أواصر الخطاب اللّغوي.

_ وإنّا لا نستثني كذلك فاعلية الوحدات الصّوتية الكبرى من ألوان البديع في هيكله البنية الإيقاعية للخطاب القرآني، ناهيك عمّا تتسمّ به من إيجاز لفظي وانسلاّل دلاليّ.

تلك، إذن، هي خالصةُ هذا الفصل وخياره حتّى وإن انزاحت عن اتّجاهات فكرية أخرى إلّا أنّها تتفق جميعها حيال إطلاق حكم واحد مبلّغه؛ أنّ الأداء الصّوتي القرآني ينبثق من صلب إعجازه اللّغوي وينصهر فيه. فمجمال تلك الطّواهر الصّوتية تتمايز حينًا وتتفاوت أحيانًا أخرى، لكنّ ما نوّكه أنّ كيانهما الأسلوبي في صيرورة تامّة، تامّة؛ لذا فإنّك سترمّقها في تجدّد دائمٍ فمن عجائب مقدرتها أنّها تتناسل وتحيا وتثمر في بوتقة واحدة وهذا ما فسح المجال صوبها لتنبّع أمارتها اللّغوية، دراسةً وتنقيبًا.

الفصل الثاني:

الصّوغ القرآني للبناء الصّرفي

"أما التصريف فإن من فاته علمه فاتته المعظم"

السيوطي

أولاً - أسس التّوظيف البلاغي لصيغة الكلمة

ثانياً - التّصميم القرآني للصّيغ الصّرفية؛ هندسة الأبنية وهيئة الأقيسة.

ثالثاً - المقاس القرآني لهيئة المشتقات؛ بين صناعة اللفظ وإثراء المعنى

رابعاً - هيئة الجموع؛ الصّيغة والدّلالة.

الحدّ المنهجي وأفق التساؤل.

تَمُورُ الدّراسات النّصّانية الحديثة صَوْبَ الخطاب القرّاني لِإدراك قوام الإعجاز اللّغوي وتسلّق مدارجه الخصبّة، وهذا لا ينفي إيمانًا راسخًا بِمَنْزِلَتِهِ اللّغوية بِناتًا؛ فهي لا تنكر أنّ له أسلوبًا أخاذًا، وتركيبًا ألسنيًا دقيقًا وميزانًا صرفيًّا متّزنًا، لكن ما يُدركه الباحث أثناء مساعلته لهذا الخطاب أنّ الإعجاز اللّغوي أعظم من أن يُستَنطَق من الوهلة الأولى وأعمق من أن تُصعدَ سِمّاته من البنية السّطحية، وأشدّ استحالةً للوصول إلى مكنوناته هَوْنًا، فأقلّ ما يُقال عنه أنّه قد بلَغَ من سَقْفِ الإعجاز المبالغ.

وما نُحيله؛ أنّ القرّانَ مدادٌ أسلوبيّ ما له من تَفادٍ، بالرّغم أنّ هاته الحقيقة لا تحتاج إلى استدلال عقلي أو برهان منطقي لأنّها غنيّة عن ذلك، لكن ما تَسْتَلْزِمُهُ نظريات نصّية تعلّل قيمة تلكم الظواهر التي استند إليها الخطاب القرّاني. فقد يُخيّل للمتلقّي حينما يلقي له السّمع أنّه نصٌّ كاملٌ مفرغ في جُملة واحدة لكنّه أنزل مرتّلاً، لحكمة بالغة تُوفي المقام والمُبتغى، لكن الإشكال هنا؛ كيف تمّ تشكيل هذه الرّسالة من النّاحية اللّغوية وما دلائلها الأسلوبية؟ ومن ثم نصل إلى مبلغ الرّسالة، فالدّارس الأسلوبيّ لا يقف عند حدود غائيات الخطاب مباشرة، وإنّما ينطلق أولاً من التّشخيص العلمي للظواهر الأسلوبية بغية كشف أبعادها ومضامينها ومن ثم يُحدّد مَبْتَغَاهَا الفَنّي.

وبما أنّنا حاولنا مُدارسة هذه المسألة الموسومة "بالصّوغُ القرّاني للبناء الصرفي" فإنّنا لا نبغي سوى لفت النّظر إلى مدى قيمة التّشكيل اللّغوي في بناء الخطاب؛ تعزيزًا لِمَعْنَاه وتوجيهًا لدلائله، ولنا في ذلك أمثلة لا تعدّ ولا تحصى من سورة البقرة، وقد تعمّدنا إلى دمج الموازين الفعلية والصّيغ المشتقة وهيئات الجموع بحكم أنّ كلّاً منهم تخدم البناء الصّوغي دلاليًا وأسلوبياً ناهيك عن طرح نظري موجز يلخص أساسيات توظيف صيغة الكلمة.

ومن هذا المنطلق المعرفي نطرح الإشكال التالي: ما دلائل التّوظيف القرآني للصّيغ الصّرفية في سورة البقرة ؟ وانطلاقاً من هذا الاستفهام الجوهرى لهاته المقاربة فإنّا قسمنا هذا الفصل إلى جملة من المباحث نوردّها كالتّالي:

أولاً- أسس التّوظيف البلاغي لصيغة الكلمة

ثانياً- التّصميم القرآني للصّيغ الصّرفية؛ هندسة الأبنية وهيئة الأقيسة.

ثالثاً - المقاس القرآني لهيئة المشتقات؛ بين صناعة اللفظ وإثراء المعنى

رابعاً- هيئة الجموع؛ ونمط ورودها .

وإلى هذا الحدّ التّصوري نُجمل القول؛ أنّ التشكيل اللّغوي للبناء القرآني ينبني على مصوّغات صرفية دقيقة، ووحدات تركيبية منتظمة، فجيئت مؤتلفة مع أسبققتها، متساوقة مع نظمها، يستحيل لك أن تُلفي لها نظيراً. وإن جازَ لنا القول - إنصافاً للبناء الصّرفي - أنّ مزية الخطاب القرآني ولغته؛ ليست في ضرورة إيصال رسائله بمقتضيات الصّوغ الألسني وآلياته فحسب، وإنّما المزية التي ينفرد بها في تقاسيمه لهيئة الخطاب وموازينه واتّخاذ لكلّ مفردة صيغتها ناهيك عن مداراة السياق الذي تجول فيه، وكأنّها تبتغي بذلك وضع الحدود لنظامها، لما تتّسم به كلّ ظاهرة لسانية وما تتفرد به في الدّلالة والهيئة. لذلك فالغرض الوظيفي يكمن أولاً وآخرًا في تقدير خصوصية كلّ وحدة لغوية.

أولاً: أسس التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة

إبانة:

تُسَنَّنُ اللغة العربية عن بقية اللغات بخصائص عدّة؛ منها ما يكمن في ثراء لفظها، انسجام أصواتها، انساق تراكيبها، تعدّد أبنيّتها، واحتواء صيغها لشئى أضرب المعنى، ولما كان علم الصّرف هو الملجأ الوحيد للوصول إلى مغزى تلك الصيغ فقدّ اعتبره أهل اللغة "من أدقّ علوم اللغة وأهمّها" لأنّه علم هيّات الكلمات قبل دخولها في التراكيب وربّما كانت التّعقيدات تعترض للباحث نظراً لتشعبها وافتراض الدّراية بالأصول ونظراً لوسع اللغة العربية وصعوبتها. ولكن طبيعة اللغة العربية صوتيّة، لأنّه عبارة عن ذبذبات تُؤدي معنى، أي أنّه أصوات مجتمعة تقولب المعنى المجرد وتوصّله إلى المتلقّي، والرّسم الخطي للكلمة في اللغة الإنسانيّة ليس إلّا محاولة لتجسيد الصّوت وخلق طبيعة بصرية له، من هنا فللكلام مستويان: واحد سمعي وهو الأساس، وآخر بصري وهو عارض.¹ أو بالأحرى "الصّرف علم بأصول تُعرف به أحوال أبنيّة الكلم قبل تركيبها،² يبحث عن بنية الكلمة وتحويلها من هيئة إلى هيئة أخرى، إمّا لتغيير في المعنى وإمّا لتسهيل في اللفظ وإمّا لأمرين جميعاً، وهذا التّحويل يُسمّى تصرّيفاً".³

واستناداً لهذا الطّرح فإنّنا نستهدف مُعاينة أسس توظيف الصيغ عمومًا ومن ثمّ نخصّها بالدّراسة والتّطبيق على مستوى الخطاب القرآني وتحديدًا سورة البقرة على النّحو التّالي:

¹ - ديزيرة سيقال: الصّرف وعلم الأصوات، دار الصداقة العربيّة، الطبعة الأولى، بيروت، 1996م، ص: 7

² - شاهين عطية جرجي: سُلّم اللّسان في النّحو والصّرف والبيان، دار ربحاني للطباعة والنّشر، الطبعة الرابعة،

بيروت، 2005م، ص: 03

³ - المرجع نفسه، ص: 04

_ **ضوابط توظيف صيغة الكلمة:** نبتغي في مستهل هذه المقاربة الكشف عن الأسس الفنية التي يقوم عليها التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة بالنظر إلى التراث البلاغي القديم ورؤى النقاد المحدثين قد أجملها الباحث عبد الحميد هنداي في مؤلفه كالتالي: ¹

01_ الاختيار: فالاختيار إنما يقع بين البدائل أو النظائر باعتبار أن الصيغ في اللغة العربية تمتاز بظاهرة الاشتراك والتعدد ومن ثم يقع الاختيار بين تلك البدائل أو الأشباه و النظائر المتعددة والتي تشترك فيما بينها في التعبير عن معنى واحد بطريقة مقاربة، وحتى يزيد وعينا بطبيعة الاختيار ينبغي أن نكون واعيين بأن ثمة مستويين متميزين أساسيين للكلام عرّفهما البلاغيون قديمًا وحديثًا: .

الأول: وهو ما يُمثّل الحد الأدنى لبلاغة الكلام، وهو ما تحقّق فيه لزوم الجادة، وكان موافقًا للصواب، موسومًا بالصحة اللغوية.

الثاني: وهو ما اتّصف بالصحة اللغوية، وزادَ على ذلك بحسن التخيّر للفظ، توخيًا للمطابقة. وهذا المستوى هو ما يتنافس فيه المتكلّمون بغية التدرّج في سلّم الفصاحة والبلاغة ودرج البيان.

ومن ثم فإنّ استخدام الصيغ وتوظيفها إنّما يتمّ على هذين المستويين: مستوى الصحة اللغوية ومستوى الصحة الفنية

02-العدول: ثمة أساس آخر للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة نستطيع أن نلمح وقوف البلاغيين عليه واعتماده لديهم أساسًا للكشف عن الدور البلاغي لصيغة الكلمة وهذا الأساس الثاني هو ما

¹ - ينظر؛ عبد الحميد أحمد يوسف هنداي: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم - دراسة نظرية تطبيقية التوظيف

أطلق عليه في تراثنا البلاغي مصطلح العدول. فإذا كانت البلاغة ترجع في سائر تعريفات البلاغيين التي سبق ذكرها إلى حسن تخير اللفظ، فإنه مما يجدر بنا التنبيه إليه أن هذا التخيّر أو الاختيار للفظ يمثّل في غالب الأحيان أنواعاً من العدول. فالاختيار في حقيقته إنّما هو عدول عن المستوى النمطي أو العادي من اللغة إلى المستوى الفني من الكلام وقد يمثّل تخيّر اللفظ نوعاً من العدول عن النظام اللغوي أو عن الاستخدام الشائع، أو عدولاً داخلياً وهو ما يسمّيه رفاتير بالعدول السياقي.

وفي الحقيقة أنّ النظرة إلى العدول على أنه عدول عن المستوى النمطي إلى المستوى الفني نظرة لا تكاد تفرّق بينه وبين الاختيار. أمّا العدول الجدير بإفراده بمصطلح خاص يميّزه عن الاختيار في كونه انتقاء للفظ وإيثاراً له على غيره هذا العدول هو ما كان يمثّل في رأيي نوعاً من العدول عن النظام أو الأصل اللغوي أو نوعاً من العدول عن سياق النصّ وهو ما عرف في التراث اللغوي والبلاغي بالمجاز. وقد عبّر عنه في الدراسات الحديثة بمصطلحات عديدة كذلك منها: التجاوز، الاختلال، مخالفة مقتضى الظاهر، الانزياح، خرق السنن...¹

03- التكرار: لا نكاد نجد للبلاغيين كلاماً صريحاً في هذا الباب إلّا كلاماً لم يسق لهذه الظاهرة بالأصالة، وإنّما كان الكلام فيها مرتبطاً بالألوان آخر من الألوان البديعية أو الظواهر الأسلوبية غير ظاهرة التكرار، وتتميّز تلك الظواهر جميعاً (التي تعلق الكلام فيها بظاهرة التكرار في الصيغ) بكونها تتعلّق بموسيقى الشعر أو ما يسمّى البعض بالإيقاع الصّرفي، وذلك أنّ حركة الإيقاع في البناء الشعري كما يرى ذلك باحث معاصر قامت على أساس من التوفيق بين مظهرين له:

الأول: الإيقاع العروضي كما قنّته الخليل بن أحمد.

¹ - ينظر؛ المرجع نفسه، ص: 142

الآخر: الإيقاع الصّرفي الذي يحكم بنية الكلمة صوتيًا.

وداخل هذا الإيقاع تتضوي ألوان من التّقابلات الدّلالية والصّوتية التي تتدرج تحت ما سمّاه القدماء بعلم البديع. ومن ثمّ فهذه هي الرّأوية التي يمكن أن ندخل منها للبحث عن توظيف ظاهرة التّكرار في الصّيغ في التّراث البلاغي وهي ظاهرة التّكرار في الإيقاع الصّرفي وقد تناولها البلاغيون تحت عدّة مصطلحات وعدّة ظواهر كالسّجع والجناس والتّصريع والتّرصيع والتّطريز، والتّوازي، أو المؤاخاة وغير ذلك من فنون البديع التي اشتملت ضمن ما اشتملت عليه على تكرار الإيقاع الصّرفي أو الصّيغي وذلك أنّ هذه الأنواع البديعية لم تخلص كلّها للتّكرار الصّيغي وحده، فالسّجع والجناس وغير ذلك قد يكون مبناه على اتّحاد الصّيغة وقد يكون بغير ذلك...¹

ولا شك أنّ الباحث سوف يجد ضروبًا من القيم الفنّية،² وذلك أنّ "الاختيار الفنّي لتلك الصّيغ من قبل المبدع، وكذلك ما يقوم به من تكرار لبعض الصّيغ أو عدول فنّي مقصود عن صيغ يقتضيها السّياق إلى صيغ أخرى يراها أكثر مناسبة كلّ ذلك يُحدّث بلا شك نوعًا من الإثارة ولفت الدّهن للمتلقّي ناقداً كان أو غير ناقد".³ فبالنّظر إلى دلالة الصّيغ من خلال السّياق الذي وردت فيه بإمكاننا الوصول إلى المعاني وكشف الفروق الفنّية الدّقيقة بين الأبنية أو بالأحرى الكشف عن القيمة الأسلوبية للتّوظيف البلاغي لصيغة الكلمة.

¹ - ينظر؛ المرجع نفسه، ص: 179

² - المرجع نفسه، ص: 10. نقلًا عن؛ صلاح رزق، أدبية النص، ص: 217-2018

³ - المرجع نفسه، ص: 10

ثانيًا: التصميم القرآني للصيغ الصرفية؛ هندسة الأبنية وهيئة الأقيسة.

إبانة:

أُنشِجَتْ ألياف الخطاب القرآني بِسِلْسِلَةٍ من الوقائع الأسلوبية المتضامة، وكلّ ظاهرة من هؤلاء محمّلة بأمارة لغوية؛ تُستَنطَق من تركيبها اللّساني، وأمارّة صياغية؛ تُبرَز من هيئتها الصرفية. ووفقاً لهذا القياس الذي تُستساغ من خلاله الألفاظ فإنّه سيُحدّد الهيئة التي تتألّف بها، والزيّ الذي تُستعرض به فكرها، وبذلك يُصبح للأداء القرآني معنى ومبنى، يُوحدهما مقتضى بلاغي رصين مكثّف بالطّاقات الأسلوبية الصّاخبة، والإمكانات الجماليّة الآسرة.

ولا غرو أنّ اللّغة القرآنية هي عَدَفٌ من المقتضيات الأسلوبية تفرض سُلطَنتها على بنيتها النّسقية وعلى الهيئة التي سَتَبَرُّرُ بها، ضِمْنَ أَقْفٍ جَمَالِيٍّ مُتَعَايِرٍ؛ في الأساليب الفنيّة، واللّوحات التشكيلية والقوالب الصرفية، ناهيك عن المحفّزات البلاغية والمثيرات الانفعالية التي تجودُ بها، فنُحدّد من خلالها الهوية التي سَتُوسَمُ بها لثُمَرَرَهَا إلى ذهنيّة المُتلَقّي اجتلاباً واسترعاءً له، ممّا يشي بمقدرة لغوية فائقة فريدة من نوعها.

وحسب تقديرنا؛ فإنّ العلاقة بين الصّيغة والمعنى علاقة متينة ومُتأصّلة تُسَدِلُ فاعليتها على مستوى الخطاب القرآني؛ فنَلْتَمِسُهَا في الصّوغ البنائيّ المُحكم سَبْكَاً وقياساً، فترى البناء القرآني مُعَلِّفاً ببيانٍ فصيح، ومُشَيِّداً بلغة سامقة؛ قد اتّسقت نُظْماً، واستقرّت مقاماً، وتضافرت أسلوباً، آخذة كلّ وحدة لغوية على عاتقها الصّيغة المُواتية، والوزن الأنسب، في الوضع الذي تَقْتَضِيهِ بلاغة الكلم،

وبالقدر الذي يجعلها تتساوق مع مدلولها الفني في الخطاب القرآني، وإنّ ذلك لأجل بيّنة وأبلغ دَلالة.

ولئن كان مُبتَغانا العلمي قائماً على طرح أشكال التوظيف القرآني للموازن الصرفية والصّينغ البنائية، فهاته المقاربة ستزوي بانزواء هذه الجدلية - الصّيغة والمعنى-؛ بحثاً واستقصاءً عن دلائل البنية الصرفية لسورة البقرة انطلاقاً من منهجية إحصائية واصفة.

01. التوظيف القرآني للأبنية الفعلية:

النقد العربي المعاصر؛ بوصفه تشخيصاً علمياً يُدير الشأن الأسلوبي قد بدّل قصارى جهده إزاء الحرف العربي من حيث هو جملة من الأمارات الألسنية، ولو انتقينا من تلكم الدّراسات الاجتهاد الصّرفي لالتمسنا درجة التّبوغ العلمي التي آل إليها، والذي كان أقصى طموحه تدعيم اللّغة العربية وتُصرّتها، فكانت الوجهة الصّرفية هي الدّرع الأمثل لصون خصوصيتها. "ولاشك أنّ النّاقِد المعاصر سوف يجدُ في دراسة الألفاظ ضرورياً من القيم الفنّية التي تُبنى على الفروق القائمة في ما بينها في البنية الصّرفية، وطبيعة اللّواحق والسّوابق والظلال الدّلالية السيّاقية والإيحائية والقيم الإيقاعية والموسيقية يقف بها على نتائج طريفة ومؤثّرة في صوغ الأحكام".¹ ومن يتعقّب أسرار الأداء القرآني يُلْفي أنّ المعاني تتأثّر تأثّيراً مُعمّقا بالمباني يُمكن تفصيل ذلك على النحو الآتي:

¹ - عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي: الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم، ص: 10. نقلاً عن؛ صلاح رزق: أدبية

1.1- الضبط الزمني للبناء الفعلي؛ من حيث المغايرة والمطابقة

في مستهل التّردّد العلمي لأوجه المغايرة ومواطن المطابقة نشير؛ أنّ الاحتواء الدّلالي للبناء الصّرفي يقتضي مطواعة اللّغة؛ في انتقائها الأسلوبي للأبنية ومدى استيعابها للمعاني، ومقدرتها على محاكاة السّياق الذي تنمو فيه وتتصاعد، فاللّغة إذا؛ حمالة للخطاب، فمن خلالها تتبدى المهارة الأسلوبية التي يتّسم بها، والمقومات الفنّية التي يمتلكها من الإثارة والتّحفيز الجمالي، ناهيك عن التعاضد النصّي بين الجانب التشكيلي والجانب النّظمي، ما يخلّق تضافراً نسقياً يوجّه إستراتيجية التّلقّي ويهيئ قابليّة الإدراك.

وحسب تقدير النّقاد إجمالاً فإنّ دلالة الأزمنة تحتل عدّة وقائع أسلوبية، تبعاً للضرورة النصّية وتبعاً للسّياق الذي يتّبناه، كونها مقتضى تحفيزاً يقتضيه النصّ ويستلزمه؛ لتفعيل الرّؤية، تنشيط الحركة وبث الرّوح في الخطاب، ما يُدلي أنّ المقتضى الصّرفي عموماً مقتضى فنّي مُثير يخضع لسلطة أسلوبية دقيقة جداً. وإثباتاً لمصادقية هذا التّوجّه نورد ثلّة من الجداول مرفوعة بأزمّنتها وعدد تواترها وأنماط ورودها:

1.1.1 الفعل الماضي؛ من حيث الدّلالة الزّمنية:

الفعل الماضي؛ ما دلّ على حدوث شيء قبل زمن التّكلم، ودليله اللفظي يقوم على قبوله تاء التّأنيث الساكنة في نهايته، وأن يقبل تاء الفاعلية.¹ وقد ورد 165 فعلاً في 631 موضعاً، موضحة في الجدول الآتي:

¹ - عبد القادر عبد الجليل: علم الصّرف الصّوتي، دار أزمنة، الطّبعة الأولى، الأردن، 1998م، ص: 163

جدول(01): بناء الفعل الماضي

الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار
أتى	26	جهد	01	رجع	01	ضاء	02	فرّق	01	متع	01
أخذ	10	جاء	13	رزق	04	طلق	06	فسد	01	مرّ	01
أخّر	02	جاز	01	رسل	02	طهر	01	فصل	01	مسّ	02
ألفى	01	حبّط	01	رفع	03	طاع	04	فعل	02	مسك	01
أمر	02	حجّ	02	زلّ	02	ظلم	08	فاء	01	منع	01
أمن	45	حرق	01	زاد	02	ظنّ	01	فاض	02	مات	02
أنعم	03	حرم	02	سأل	03	عجب	02	قتل	05	نبأ	01
أيّد	02	حسب	01	سجد	01	عجل	01	قدم	01	نبت	01
ابتلى	01	حضر	02	سعى	02	عرض	02	قرّ	01	نبذ	02
اعتدى	04	حلّ	01	سفه	01	عرف	01	قسا	01	نجا	02
بثّ	01	حمل	01	سلف	01	عزم	01	قضي	03	نذر	02
بدّل	02	حيي	03	سلم	03	عصى	02	قطع	01	نزل	17
برأ	01	حاط	02	سمع	03	عفا	02	قفا	01	نسي	01
برز	01	ختم	01	سوّي	01	عقل	01	قال	91	نفق	03
بعث	04	خرج	07	شبه	02	علم	10	قام	03	نهي	03
بقي	01	خطئ	01	شرب	02	عمر	01	كبر	02	هجر	01
بلغ	03	خلف	05	شرك	01	عمل	04	كتب	02	هدى	06
بهت	01	خلق	03	شرى	06	عنيت	01	كذب	02	هزم	01
باء	02	خلا	05	شهد	01	عهد	03	كسب	12	هلّ	01

01	ودّ	15	كفر	01	عاد	08	شاء	02	خاف	01	باع
01	وسع	01	كلم	01	غرف	01	صبر	01	درا	06	بان
01	وعد	01	كاد	01	غرق	01	صدق	01	دعا	06	تبع
01	وقد	58	كان	01	غلب	03	اصطفى	01	دان	04	ترك
04	وقي	03	لبث	01	فتح	02	صلح	01	ذبح	01	تمّ
01	ولّى	01	لعن	01	فجر	05	أصاب	02	ذهب	05	تاب
02	يسر	03	لقي	01	فدى	01	ضرب	01	رأى	01	ثقف
				03	فرض	01	ضلّ	01	ريح	05	جعل

جدول إحصائي للفعل الماضي في سورة البقرة

والمطلع على سورة البقرة يستشفّ ورود هذا النوع من الأفعال بكتب، من دلائله:

01_ النصّ: "ما وافق لفظه لفظ الماضي ومعناه معناه".*¹ ومِمَّا يُؤوّل هذا المعنى في الخطاب

القرآني، نلفي:

* قال تعالى: { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا

¹ - أبو القاسم بن محمد بن سعيد المؤدّب (228هـ): دقائق التصريف، تح؛ حاتم صالح الضامن، دار البشائر،

الطبعة الأولى، دمشق - سوريا، 2004م، ص: 18. * أي؛ الدلالة على وقوع الحدث في الزمن الماضي.

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38).¹

بَادِيٌّ ذِي بَدءٍ نُحِيلُ؛ أَنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةِ تَخْطُ حِيْزَهَا الْأُسْلُوبِي بِشَبْكَةٍ مِنَ الْأَنْسَاقِ الدَّلَالِيَةِ وَالْعَلَائِقِ الْأَلْسِنِيَّةِ، وَلَعَلَّ أُبْرَزَ مَا يُحَقِّقُ مَبْتَغَاهَا؛ التَّعَاقُبَ الْحَرَكِي عِبْرَ تَقْنِيَةِ التَّصْوِيرِ الْمُطَابِقِ لِلزَّمَنِ، كَمَا هُوَ بَارِزٌ عَلَى مَسْتَوَى هَذِهِ الْمَشَاهِدِ الْمُتَتَالِيَةِ؛ بِدَايَةِ مَنْ تَلَقَّيْنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَشْرَفَ الْعُلُومِ، تَنْزِيهِ الْمَلَائِكَةِ لِرَبِّ الْعِبَادِ، خُطْبَةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَزُولُهُ، طَرْدُ إِبْلِيسَ لَعْنَهُ اللَّهُ، تَقَبُّلُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ... فَالْقَارِئُ يَلْحَظُ هِنْدَسَةَ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ التَّشْخِصِيَّةِ تَنْبَنِي عَلَى التَّدْرِجِ الزَّمَنِيِّ الْمُطَابِقِ لِلْمَقَامِ مِنْ ذَلِكَ؛ (عَلَّمَ/ عَرَضَهُمْ/ فَقَالَ/ أَنْبَأَهُمْ/ قُلْنَا/ فَسَجَدُوا/ أَبِي/ اسْتَكْبَرَ/ فَأَزَلَّهُمَا/ فَأَخْرَجَهُمَا/ فَتَلَقَّى/ فَتَابَ) هَاتِهِ الْوَحَدَاتُ الْفَعْلِيَّةُ تُثِيرُ تَأَمُّلاً إِدْرَاكِيًّا بِأَحْدَاثِ الْقِصَّةِ، مُصْحُوْبًا بِتَأَكِيدٍ جَارِمٍ بِوَقْعِهَا الْفَعْلِي، فَهَذَا الشَّرِيطُ التَّسْلِسِيُّ لِلْأَحْدَاثِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِالتَّلَاحُمِ النَّسْقِيِّ بَيْنَ الْفَوَاصِلِ يَسْتَزِيدُ مِنْ تَمَتُّئِهَا، فَكَلَّمَا تَعَمَّقَ الْقَارِئُ فِي مُتَابَعَةِ الْوَقَائِعِ كَلَّمَا أَدْرَكَ أَنَّ دَلَالَتَهُ الْبَلَاغِيَّةَ تُحِيلُ؛ عَلَى الْإِنْقِضَاءِ التَّامِّ وَالْمُضْيِ الْمَطْلُوقِ لِلْوَقَائِعِ.

وَاعْتِمَادِ الْخَطَابِ الْقُرْآنِيِّ عَلَى مِثْلِ هَاتِهِ الْحَالَاتِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الْمُطَابَقَةَ الزَّمَنِيَّةَ يَعْتَمِدُ عَلَى السِّيَاقِ الَّذِي يُوَاكِبُ الْحَرَكَةَ الْجَمَالِيَّةَ لِلْمَقْصَدِ الْأُسْلُوبِيِّ؛ بِاسْتِحْضَارِ الْأَحْدَاثِ فِي مِيقَاتِهَا الْفَعْلِيَّةِ تَأَكِيدًا وَتَشْخِصًا، وَهَذَا تَبَرُّزُ وَظِيفَةِ الْوَحَدَاتِ الْفَعْلِيَّةِ فِي تَرْكِيبِهَا الْمُنْتَظِمَةِ وَفِي حَيَوِيَّةِ انْتِقَالِهَا مِنْ مَشْهَدٍ إِلَى مَشْهَدٍ لَتَبْدُو الصُّورَ فِي غَايَةِ الدَّقَّةِ وَالتَّوْلِيفِ الْجَمَالِيِّ.

¹ - سورة البقرة: الآية [31-38]

02_ الممثل: "ما كان لفظه لفظ الماضي ومعناه لمستقبل الزمان ومستأنفه".¹ *ومن هذا

النموذج نلتمس قوله تعالى في سورة البقرة:

* قال تعالى: {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوُثُهَا تَسُرُّ
النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ
(70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ
جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71)}.² " قال ليست مذلة بالحرث ولا معدة للسقي بل هي
مكرمة حسنة تسر الناظرين".³

فمن سمات التعبير القرآني قابلية التحكم في ميقات الأحداث، فكثيراً ما يُعابير في استعمال الأفعال
من ذلك ما ورد في قوله: {الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ}؛ (جِئْتَ) فقد عدلت هذه الآية عن الفعل الماضي إلى
المضارع، للدلالة على الحال والاستقبال، فهذا لونٌ من الألوان البلاغية، المُندرج ضمن انزياح
الوحدات الفعلية عن النمط المألوف من حيث التصريف، وتتأني هاته المغايرة الصرفية من خلال
الاختلاف الحاصل بين الأزمنة في السياق القرآني.

وتكمن القيمة الجمالية لمثل هذه الاستثناءات الأسلوبية في تحفيز المتلقي واستنارته- وبالأخص
ما يُحيل إلى الحاضر على لسان الماضي- فما يُعزّز جمالياتها إذا؛ فاعلية الانتقال من دلالة إلى
أخرى ومن مشهد إلى آخر بطريقة متناوبة بين التماثل والتغاير الزمني. ولهذا تعدُّ المغايرة في
الصيغ فاعلية استثنائية تستند إلى المتغير الجمالي والمعنى المضمر لكسر المقتضى الظاهر.

¹ - أبو القاسم المؤدّب: دقائق التصريف، ص: 18. *أي؛ الدلالة على المستقبل.

² - سورة البقرة: الآية [69-71]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 300

03_ الراهن: " المُقيم على حالة واحدة "،¹ ما يُحيل على الديمومة أو المستقبل، ومن ذلك:

*قال تعالى: { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167) }.² إذ تبرؤا من أتباعهم لِبُطْلَانِ ما كانوا يدعونهم إليه في الدنيا من فنون الضلال حينما عاينوا بأعينهم العذاب وتقطعت بهم السبل".³ فمن المسالك البلاغية التي اتخذها القرآن الكريم؛ التعبير بالماضي مُريدًا بمبلغه المستقبل وفاعلية هذا الأسلوب أبلغ وأؤكد في تحقيق الفعل وإيجاده، من ذلك ما طرح على مستوى هاته الآية؛ فقد وُضعت الأفعال، (تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا/ وَرَأَوْا الْعَذَابَ/ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) موضع الفعل الماضي رغم أنه يُدلي في معناه على الزّمن المستقبل؛ تنبيهًا وتأكيّدًا على تحقيق وقوعه.

والمُطلّع على الخطاب القرآني كثيرًا ما يقف على مثل هذه الأساليب وبالخصوص مواطن ذكر أهوال يوم القيامة من الجزاء والحساب، وتكمن فاعلية هذا النوع في إبراز هيئة الحدث باستحضار مشاهده ورسم تفاصيله، فموقع هاته الصيغة أعمق بلاغةً لما أُريدَ بها من تصوير أحوالهم وتهويل استفظاعهم، وبالتالي تكمن وظيفته الأسلوبية في تنزيل منزلة الواقع تنبيهًا وجزمًا على وقوعه.

ففضل القرآن إذا؛ إنما يُعرف بما خصّه الله به من تعدّد مذاهبه الأسلوبية وافتتان أساليبه البلاغية، ومن ذلك أوجه التّصرف في أبنيته فتراه يستند إلى فنّ المطابقة الزّمنية لغرضٍ يستوقفك

¹ - أبو القاسم المؤدّب: دقائق التّصريف، ص: 18- 19. *أي؛ الدّالة على الاستمرارية على طول الأزمنة

الماضي الحاضر المستقبل.

² - سورة البقرة: الآية [166-167]

³ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 187

إيمانًا جازمًا بحصولها، أو اللجوء إلى فنّ المُغايرة بمخالفة ظاهر اللفظ للمعنى لغاية تستدعي توصيف الحاضر أو الأخذ بأفق توقّع المتلقّي إلى الغيب وإطلاعه على ما سيكون أو ما سيتمّ وقوعه.

***الفعل المضارع؛ من حيث الدلالة الزمنية:** "هو ما دلّ على معنى في نفسه مقترن بزمن يحتمل الحال أو الاستقبال، وقد سُمّي مضارعًا لأنّه يضارع اسم الفاعل، أي يساويه في عدد الحروف، وعدد الحركات، وعدد السّكنات، مثل يذهب ذاهب، يحكّم حاكم، والفعل المضارع مرفوع إذا لم يسبقه ناصب ولا جازم".¹ وقد تمّ إحصاء 187 فعلًا في 558 موضعًا، موضحة في الجدول الآتي:

جدول (02): بناء الفعل المضارع

الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار
أبى	02	حزن	06	رضي	03	طمع	01	فكر	02	تمنّى	01
أتى	16	حسب	02	رغب	01	طمأن	01	فلح	01	مات	07
أخذ	06	حكم	02	رفع	01	طهر	01	قبض	01	نبت	01
أدى	02	حلّ	04	رودّ	04	طاع	01	قتل	11	نذر	01
أعاذ	01	خلق	01	زكّى	03	طاف	01	قدر	01	نزل	01
أكل	04	حمل	02	زاد	01	طاق	01	قدّس	01	نسخ	01
آلى	01	حيي	08	زال	01	ظلم	06	قدم	01	نسي	03
أمر	05	حاط	01	سأل	09	ظنّ	03	قرب	03	نشر	01

¹ - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الخضير السيوطي (911هـ): همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح؛

عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1980م، الجزء الأول، ص: 60

أمن	19	خبط	01	سئم	01	ظهر	01	قرض	01	نظر	03
بخس	01	خدع	02	سبح	01	عبد	04	قطع	01	نعق	01
بدل	04	خرج	06	سخر	01	عتدى	04	قلب	01	نفع	03
بدا	03	خشي	01	سرّ	02	عجب	01	قام	06	نقض	01
برأ	01	خطف	01	سقى	01	عثا	01	كبر	01	نكح	04
بسط	01	خفي	02	سمع	02	عذب	01	كتب	04	نال	01
بشّر	01	خلط	01	سما	01	عرف	03	كتم	09	هبط	01
بصر	01	خلف	02	شرى	04	عزم	01	كذب	01	هدى	10
بغى	01	خاف	01	شعر	03	عضل	01	كره	01	هزأ	02
بلغ	02	خان	01	شفع	03	عفا	02	كسب	01	هلك	01
بلي	01	دخل	03	شقّ	01	عقل	11	كسا	01	هوي	01
بان	11	دعا	02	شكر	04	علم	50	كفر	10	وجد	04
تبع	07	دلّ	01	شهد	02	علن	01	كفى	01	ودّ	03
تلا	07	دار	01	شاء	10	عمل	07	كلم	03	وذر	02
تمّ	04	ذبح	02	صبّ	01	عمه	01	كاد	01	وعد	02
تاب	01	ذكر	05	صبر	01	غفر	02	كان	18	وعظ	01
ثار	01	رأى	09	صدق	01	غمض	01	لبس	01	وفى	01
جرى	03	ربص	03	صلح	01	فجر	01	لقي	01	ولّى	03
جاب	02	رجع	06	ضرب	01	فدى	01	منع	01	يقن	02
جاز	02	رجا	01	ضرّ	01	فرض	01	محقّ	01		
حبّ	08	ردّ	03	ضعف	02	فرق	02	مدّ	01		
حجّ	02	رزق	01	ضلّ	03	فسد	04	مسّ	02		
حدث	01	رشد	01	ضاع	01	فسق	01	مسك	01		

حرف	01	رضع	02	طعم	01	فعل	10	ملّ	03		
-----	----	-----	----	-----	----	-----	----	-----	----	--	--

جدول إحصائي للفعل المضارع في سورة البقرة

من أوجه استعمال الفعل المضارع في سورة البقرة نُلفي:

01_ النَّص: ما وافق لفظه لفظ الحال أو المستقبل ومعناه معناه،¹ نحو:

* قال تعالى: { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) }.² هي جملة من الصفات التي خصَّ بها الله عباده المتقين الذين يبلغون من الهدى كنهه وإيراد كلمة الاستعلاء (على هدى) بناءً على تمثيل حالهم في ملابسهم بالهدى بحال من يعتلي الشيء ويستولي عليه.³ فقد استندت هاته الآية على الأزمنة الحاضرة لبيان ما تقتضيه عبادة الله وما يسوق المؤمن إلى رضوان ربه، من ذلك؛ (يُؤْمِنُونَ / يُقِيمُونَ / يُنْفِقُونَ) فهذا تقرير موجز لفنون توفيقه، ومسالك بلوغ هدايته، وتفخيم وتشريف -للموصوف- من المتقين الأخيار، فقوة الحركة هنا تكمن في المطابقة الزمنية، وانتقائه لمثل هاته السلوكيات السامية يُدلي على ملائمة الموقف واستهداف العقل بالمنطق، ومحاورة الأعماق بالتجلي.

02_ الممثل: "ما كان لفظه لفظ المستقبل، ومعناه لماضي الزمان وعائده"،⁴ نحو:

¹ - أبو القاسم المؤدّب: دقائق التصريف، ص: 18

² - سورة البقرة: الآية [05-03]

³ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 23-33

⁴ - أبو القاسم المؤدّب: دقائق التصريف، ص: 18

*قال تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (48) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) }¹ وهذا تذكير بفضل الله على بني إسرائيل ونعمه عليهم.

فمن الرصيد الجمالي الذي يختزنه الخطاب هو كمية الاستيعاب الأسلوبي لدى المفردة القرآنية لمعانٍ جمّة، وحيوية تدرّجها عبر دينامية متّزنة، ناهيك عن تلاحمها القائم بين وشائج السياق، صائغًا بذلك مشهدًا أسلوبيًا مكثفًا؛ ومن ذلك ما ورد على مستوى هاته الآية: (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ / يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ / يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ / وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ / فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) والملاحظ من خلال هذه السلسلة الأدائية للوحدات الفعلية استنادها على الأفعال المضارعة؛ استعادة واستحضارًا لقصص الأولين، والعدول عن الإتيان بالمصدر الصريح في متن القول تكون فاعليته أبلغ وأؤكد وأقرب إلى التصديق، وقد أبدع الخطاب القرآني في إجمال هذه التفاصيل بطريقة موجزة من خلال التعبير بالمضارع على نحو يسرد وقائع مضت وانقضت مع بني إسرائيل، وهذا ما يسوقنا للحكم على الخطاب القرآني؛ كونه فاعلية سرمدية تعاصر كافة الأجيال.

وبالتالي الوظيفة الدلالية لهاته المغايرة تتلخص في معنيين؛ التذكير والامتنال. فهاته الصور التشخيصية على العموم تتميز بالتحفيز لما تعتمد عليه من التجسيم والإثارة، وهنا تظهر قوة الكلمة القرآنية، في الكشف عن أسرار الوجود البشري، ووقائع الفصل والجزاء.

¹ - سورة البقرة: الآية [47 - 50]

* فعل الأمر؛ من حيث الدلالة الزمنية : "وهو ما دلّ بذاته على أمر مطلوب تحقيقه في زمن

مستقبل"¹ وقد تمّ إحصاء 72 فعلاً في 147 موضعاً موضحة في الجدول الآتي:

جدول (03): بناء فعل الأمر

الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار	الفعل	التكرار
أتى	10	جعل	03	ركع	01	شهد	02	غفر	02	مسك	01
أخذ	04	حذر	01	رهب	01	صار	01	فرغ	01	تمنى	01
أذن	01	حسن	01	زود	01	صفح	01	فعل	01	مات	01
أكل	07	حفظ	01	سأل	01	ضرب	02	فاض	01	نبأ	02
أمن	02	خرج	01	سبق	01	طهر	01	قبل	01	نصر	02
بشّر	04	خشي	01	سجد	01	عبد	01	قتل	06	نظر	04
بعث	02	دخل	03	سرح	01	عتدى	01	قدم	01	نفق	03
بغى	01	دعا	06	سكن	01	عزل	01	قال	01	هبط	03
تبع	01	رأى	02	سلم	01	عفا	02	قام	04	وذّر	01
تمّ	02	رحم	01	سمع	02	علم	12	كتب	01	وفى	01
تاب	02	رزق	01	شرب	02	عمل	01	كان	03	وقى	01
ثبت	01	رعى	01	شكر	02	عان	02	متع	01	ولّى	05

جدول إحصائي لفعل الأمر في سورة البقرة

¹ - عبد الله بن صالح الفوزان: دليل السالك إلى ألفية بن مالك، دار المسلم، الطبعة الأولى، الرياض، 1999م،

دلالاته في جميع القرآن " تحتوي على 23 معنى".¹ من أوجهه على مستوى سورة البقرة:

*فمنه أمر وجوب، نحو قوله تعالى: { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } (45).²

* ومنه دعاء، نحو قوله تعالى: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (129).³

* ومنه اعتبار، نحو قوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (260).⁴

* ومنه على سبيل التهديد والتعجيز، نحو قوله تعالى: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } (24).⁵

¹ - أبو القاسم المؤدّب: دقائق التصريف، ص: 128

² - سورة البقرة: الآية [45]

³ - سورة البقرة: الآية [127-129]

⁴ - سورة البقرة: الآية [260]

⁵ - سورة البقرة: الآية [23-24]

* ومنه عتاب، نحو قوله سبحانه: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) }.¹

الأثر الأسلوبي للكلمة يكمن في مقدرتها على التصوير الحركي؛ وفقاً لِلإقتضاء النصّي الذي يُوجّهه الخطاب ووفقاً للسياق الذي يفتّحه، ورصدًا لأفعال الأمر على مستوى السّورة؛ فإنّ دلالتها أصعب من أن تُحاط بأسيجة أو تُحدّد بهيئة مُعينة؛ ذلك أنّ دلالتها لم تنحصر في حقل واحد وإنّما اختلفت من حيث القياس وتباينت من حيث المعنى؛ ومن ذلك ما ورد في متن هاته النّماذج المُقدّمة منها ما يُحيل على وجوب تأدية شرائع الله، ومنها ما يُحيل على الدّعاء، ومن ذلك ما يُدلى على المُحاجة، التّهديد، والعتاب (...) وكلّ من هؤلاء يُبرّر دلالاته من خلال السياق الذي يتضمّنه.

وبالتّشخيص العلمي للخطاب القرآني تُلّفه قد استحكم نظمه بحركيّة فاعلة، مُثيرة، ومنضبطة؛ ليست بنبض مُتذبذب عشوائي وإنّما هندسة فنيّة تقودها سلطة أسلوبيّة مكتفية بذاتها؛ حيثما تُركّب الألفاظ بعضًا ببعض و تُعلّق معانيها بدوالها، على النّحو الذي ترتضيه حدود اللّغة وتسنّسه بلاغة الكلم، وبالتالي بالتّعبير القرآني يقوم على ثنائية دمج الصّيغة بالمعنى و بهما يُركّب المشهد القرآني، بطرائق فنيّة تعكس البعد الجمالي للخطاب.

¹ - سورة البقرة: الآية [93]

2.1- البناء المبني للمجهول؛ من حيث الاقتضاب اللفظي والتّمكين الدّلالي.

تلكُم الذّخائر الأسلوبية التي اكتنّزها البيان القرآني يتبدّى - بعضها - تقديرًا وامتنالًا؛ في التّجليّ موضع الإضمار، الإبراز موضع الإسقاط، والاجتلاب موضع الغياب، فمن مسوّغاته قبض حدود الكلم وطلّق غائيات المعنى؛ إقرارًا في الذّهن دون إطالة، وإتيانًا بالمقصد دون تقصير، فمن شأن هذا الاستثناء اللّغوي تَعَبِيدُ الأفق التّأملي بأوجز الألفاظ وتأديّة المُبتغى بأجود الألسن.

واستدلالًا بما أحرزناه؛ فإنّا لنصّرف مدّار الكفاية البلاغية على مستوى الكلمة إلى المتّسع اللّساني والشّحن الأسلوبي؛ إيجازًا وإبانةً مع استرعاء وضوح الدّلائل، ومن مداليله الاستناد على القياس الإثرائي والصّوغ المُقتضب وكلّ ما يستدعي الحمل على المعنى بطرق فنيّة مُتوارية، فكّون لغة الخطاب القرآني تستهدف تبليغ رسائل مُتوخاة لا ينفي اشتمالها على خواصّ فنيّة تتّسم بالتّضمين وتستدعي التّخمين، وهذا النّوع من الحملات لم يوضع عفويًا وإنّما يُسنّ تقعيديًا في الوضع الذي تزجّ به سياسة التّركيب، وبالتالي؛ الحرف ولادّ فيما تُثريه محمولاته الأسلوبية، فما نستشفّه من تضاعيف هذا التّصوّر امتثاله في التّعبير وما يعقّبه من وقائع بواسطة وحدات السّنية تتغيّا التّوصيل بإجلاء وإن التّبست مسالكها وتّبأينت سُبُلها.

وإحصاءً لهاته الكفاءة الأسلوبية؛ القائمة على إمكانات حمّالة للمعنى - بإسقاط ركن من أركان الوحدة الجُمليّة وترجيح قرائن لغوية؛ إزاحةً لفاعله وإنابةً عنه بما يُخول شأنه ويُفوّض مقتضاه، على سبيل المُغايرة في الصّيغ - فإنّا نورد مواضع تواترها لأغراض استقرائيّة تُحيلنا إلى مقاصد شتى، على النّحو التّالي:

* الفعل الماضي المبني للمجهول: "تقتضي صياغته ضمّ الحرف الأول وكسر ما قبل الأخير".¹

وقد ورد 22 فعلاً على مستوى 49 موضعاً موضحة في الجدول الآتي:

جدول (01): بناء الفعل الماضي المبني للمجهول

الفعل	تكرار	الفعل	تكرار	الفعل	تكرار	الفعل	تكرار	الفعل	تكرار
أتى	08	حلّ	01	زلّ	01	عدّ	01	نزل	08
اضطرّ	01	خرج	01	زان	01	عفا	01	هلّ	01
أمن	01	دعا	01	سأل	01	قضى	01		
تبع	01	رجع	01	شرب	01	قال	06		
حصر	02	رزق	02	ضرب	01	كتب	07		

جدول إحصائي لمورد الفعل الماضي المبني للمجهول في سورة البقرة

رغبةً منا في التماس دلائل هذه المغايرة، فإنّه من الأهمية القصوى أن نحيل إليها بقسطٍ من المعاينة، استشهداً ببعض من النصوص القرآنية المنوطة بفضائلها الأسلوبية - ما أبان عن دقّة وتبصّر عميق في تصريف المفردات، واقتدارها المنسّع في توجيه الدلالة - ومن ذلك نستعرض النماذج التالية:

* في مقام التعجيز والنّهي؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَيَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ

¹ - أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش موفق الدين (643هـ): شرح المفصل، الطباعة المنيرية، دط، مصر ،

جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25){¹ "إن استبنتم العجز فاتركوا العناد"² وهذا إثباتًا للنبوة، ودحضًا للشبهة وإيفاءً للسداد. فمن دواعي الاستناد إلى هذه المتغايرة {والجارة أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} إفساحًا لمُنْتَهَى العجز وهم من خاصّة البلاغة وأربابها، وإنذارًا لعنادهم، وتهويلًا شديدًا بفضاعة العقاب وجسامته، الذي قد هُيِّئَ لأصنافهم. والكناية المُقَدِّمة ضربٌ من الإيجاز البديع تتضمّن وضع المؤثر موضع الأثر؛ فالالتقاء يستلزم التّرك، والسّيق الذي افتعل هاته المغايرة النصّية سيقَ على وجه الإنصاف والتّنبية.

ومن يُؤوّل دلائل الاستثناء الوارد، فإنّه يُحيل أسلوبياً إلى تمام الإِرْصَاد ومُنْتَهَاهُ بِأَسًا وتتكيلًا، فالإمكانات التّأويلية لهذا التّغاير تكمن في تقريب المشهد، ومن ثمّ الاعتلاء به لإيهابه النّبض، والصّيرورة والإيقاد، فإذا بالصّورة الدّهنية استحالت مرأى حسيًا جسّد الموقف تصويرًا دقيقًا واستحضره استحضارًا مُقتضِبًا.

ومن ثمّ أرفق التّعبير القرآني التّرهيب بالتّغريب، مُستأنفًا وصف النّعيم السّرمدى وحال أهله بمتغايرة بديلة: { كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } " لفرط الاستغراب من الكمال والنّقاوت العظيم في اللّذة".³ وقد تمّ إلحاق هذا الأثر بالمقطع الأول على سبيل الاستحقاق والسّداد لكن لفئة مخصوصة، قد بيّنها على مستوى الآية، لتكون الصّورة الماثلة جامعة بين العتاب والجزاء وبين القبض والمنح، وهذا

¹ - سورة البقرة: الآية [23-25]

² - الرّمخسري: الكشاف، الجزء الأول، ص: 218 - 224

³ - أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، الجزء الأول، ص: 252

أبلغ وأفخم لِيُنْبَأَ به لَهول مَطْلعه وعِظَم شأوه، فالأمر إِذَا لجديرٌ بأن يُبَشَّرَ به، فمن يُمعن شِدَّة هذا الصَّوت سرعان ما تتشكَّل في ذهنيته بلاغة ما تحمله المُتغَايرات الصَّرْفِيَّة بإبراز صورٍ تشخيصيَّة ما أمكننا التَّنَبُّؤ بمجريات غيبيَّة ومشاهد لم تسمعها أذن ولم تبصرها عين، الأمر الذي حفَّ المشهد بهالة استثنائية منوطة بالرَّهبة، والتَّوق من جهة أخرى.

* في سياق تنفيذ التَّنْزيل وأسرار القضاء؛ قال سبحانه: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (216).¹
"هذا ردٌّ من الله حول جهاد المسلمين، بأن يكفوا شرَّ الأعداء عن حوزة الإسلام".²

وسبرًا لمقاصد تلك المتغايرة الصَّرْفِيَّة نُحِيل أَنَّهَا محمولة بثَلَّة من الدَّلَائِل الصَّرِيحة قد استطاعت أن تفعل الحركة الجمالية بين أبنية النصِّ وتوقد فاعلية كلِّ نسق دلالي لتبرز الصَّورة بإجمال مفصَّل، ففي مقام فرض أحكام الشَّرَائِع تُلفيه أَنَّهُ أسند لكلِّ أمرٍ حكمة، ومن ذلك ما طُرِح من هذه النصوص: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ } فضرورة الاستناد إلى هذا النوع من المتغايرة تكمن في إبراز قيمة الحكم ووجوب الإيذان به لعظمته من جهة وتفصيل أسرارِ تنفيذه من جهة أخرى، رُغم النَّفور الذي يجتاحه، لما فيه من فتكٍ ومشقَّة على الأنفس إلَّا أَنَّهُ في جُلِّ الأحوال حدٌّ للاستيلاء والنَّهب، وقد استسيع هذا البناء المبني للمجهول لِسَنِّ الفرض وتحديد القيمة حِفَاطًا على الوجود الإنساني وصونًا له، ومن ثمَّ أعقب قوله: { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } وَخَنَمَ الوحدة التَّركيبية بهذا التَّعبير لا يفيد التَّرجي بِقَدْرِ مَا يُحِيل أسلوبه إلى التَّحْقِيق على وقوع ما أُنذِرَ به.

¹ - سورة البقرة: الآية [216]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 572

وتأسيسًا على هذا التّصوّر؛ فإنّ الوظيفة الإبرازية عن مضمّر هاته المتغايرة تتحدّد في دلالتيّ؛

الإعلاء من ركن الجهاد، صونًا للكرامة الإنسانية، والارتضاء بما جرت به المقادير لأنّها لا تستبعد
مصلحتهم، في قول السّرحان: ¹

كَمَ فَرْحَةٌ مَطْوِيَةٌ لَكَ بَيْنَ أَثْنَاءِ الْمَصَائِبِ

وَمَسَرَّةٌ قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ حَيْثُ تُنْتَظَرُ النَّوَائِبُ

وقال الوضّاحي:

رَبِّمَا خَيْرَ الْفَتَى وَهُوَ لِلْخَيْرِ كَارِهِ

فالاستثناءات الأسلوبية المصاحبة لمثل هاته المتغايرات تتّسم بصفقتها النمطية بالمرونة
والإبراز، تتساقق أقيستها مع مدلولها الأسلوبي فتوجّه أفق المتلقي لمغزى مقصود إيجازًا وإفصاحًا،
وهنا تتجلى وظيفة النّظرية الأسلوبية في إدراك القيمة الفاعلة للأثر الصّياغي، واللافت أنّ بلاغة
هذه المحمولات الأسلوبية تتأسّس فنّيًا؛ بالاختزال اللفظي والتّناسل الدّلالي في الآن نفسه، ما يُمثّن
أواصر الخطاب، على مستوى التّركيب القرآني.

* **الفعل المضارع المبني للمجهول:** " تقتضي صياغته ضمّ الحرف الأول وفتح ما قبل

الأخير".² وقد ورد 19 فعلًا في 34 موضعًا، موضّحة في الجدول الآتي:

¹ - أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، الجزء الثاني، ص: 153.

² - أبو بكر محمد بن السّري بن سهل التّحوي بن السّراج (361هـ): الأصول في التّحو، مؤسسة الرّسالة، دط،

بيروت، 2012م، الجزء الأول، ص: 76 - 77

جدول (02): بناء الفعل المضارع المبني للمجهول

الفعل	تكرار	الفعل	تكرار	الفعل	تكرار	الفعل	تكرار	الفعل	تكرار
أتى	02	خفّ	03	سأل	03	قتل	01	وصل	01
أخذ	01	ذكر	01	ظلم	02	كفّ	01	وعظ	01
أمر	03	رجع	02	عمّر	02	نصر	03	وفى	03
حشر	01	ردّ	01	قبل	02	نظر	01		

جدول إحصائي للفعل المضارع المبني للمجهول في سورة البقرة

ولئن كان الخطاب القرآني فضاءً أسلوبياً مُحكَمَ النَّظْمِ والمقصد؛ فإنّه لا مناص إلى مُكاشفته بغير المُعَايَنَةِ التَّشْخِصِيَّةِ لِلصَّوْغِ اللَّغَوِيِّ بتحديد جزئياته وقياس مقاديره مع إدراك عمق العلائق بين الوحدات الصَّغْرَى والمركَّبة، فاستعلاء القيمِ الفَتِيَّةِ التي يحملها لا يتأتَّى إلّا من حنكة الانتقاء الأسلوبِي الخبير لمفاصل الخطاب والسَّمو به وبمداليه من خلال تقنيات الإثراء، الإبلاغ، وتصعيد الأفق، وكلّ ما يَهَبُ التَّصْمِيمِ اللَّغَوِيَّ مسحةً إيحائية مكثفة.

والحقّ أنّنا حينما نقول؛ أنّ قيمة الوحدة الفعلية فيما تُصْفِيه، فإنّنا نستنتج كذلك - وفي الآن ذاته - أنّ النِّسْقَ الحركي هو افتعالٌ للصَّنعة، وإيقادٌ للمعنى. ولئن كانت ماهيتها البلاغية تأخذ بهذه المُسَلِّمة اعتباراً فماذا عسى أن تكون غايته؟ واستثماراً لهذا المعين الأسلوبِي المتمثّل في مواطن الاستناد على الفعل المضارع المبني للمجهول، فإنّا نبتغي مجابته في معرض توظيفه النَّقْصِي ضمن سلسلته اللَّغَوِيَّةِ في الخطاب القرآني، فمن تشكيلاته ألفينا:

* في مقام الحمل على معنى نصره الله وفضله، قال سبحانه: { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو

الْفَضْلُ الْعَظِيمُ (105)}.¹ "هذا تنبيه لنفور الذين كفروا من المؤمنين، وتذكيرٌ برحمة الله على عباده، وإشعارٌ بأنَّ إيتاء النبوة لَفَضْلٍ عَظِيمٍ".²

القيمة المُتلى لفاعلية الأسلوب القرآني؛ التعبير عن موقف ما بمؤثرات جمالية صريحة أو مضمرة، ولو نتمعن في كنف هاته الآية المحمولة بكناية فنية جازمة - عن مدى كراهيتهم حيال المؤمنين، وإبداء فضل الله بإشهاد النبوة، وإحاطة رحمته لمن يشاء لحكمة يقتضيها - لألفينا ضرورة استعمال هذا النوع من الأبنية تلخيصاً وتفصيلاً في الآن ذاته، ما يجعله يُدمج جملة من الأحداث في مشهد مختصر مع الإحالة إلى المقصود.

والمُلاحظ؛ أنَّ الاستناد على البناء المبني للمجهول في مثل هذا السياق إيذانٌ بفخامة الحدثين؛ التحذير من شرٍّ ما يجترئ عليه الكفار، والتعظيم بمنة الله ولطفه. فالتأثير الذي تورده هذه المتغايرة لتوفيق أسلوبيّ بين الآليات اللغوية والسياق الذي وُضعت فيه، مما يُدلي إلى فاعلية استثنائية في مُبتغاها الصياغي، تضطلع إلى توجيه أفق المتلقّي وتنبيهه على نحوٍ يلتبس فيه مقصد الرسالة.

* في سياق ذكر قصص الأولين وتفاصيلهم قال سبحانه: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (134) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (135).³ لا أحد ينفعه كسب غيره مُتَقَدِّمًا كان أو مُتَأَخِّرًا،

¹ - سورة البقرة: الآية [105]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 375

³ - سورة البقرة: الآية [134-135]

نحو قوله صلى الله عليه وسلم: يا بني هاشم، لا يأتيك الناس بأعمالهم وتأتونني بأنسابكم.¹ فالإشارة هنا تقرير لقطع أمانهم بالانتفاع بأعمال الأمم الخالية، فلن تترتيد من حسناتهم ولن تنتقص من معاصيهم، فلكل امرئ ما كسب، وإقصاء الفاعل هنا على سبيل المغايرة في الصيغ مضاعفة إلى حد كبير لأسلوبية الوحدات اللغوية، حيث الزمن المضارع المبني للمجهول؛ { وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }؛ تجسيد لما هو حق، وإرشاد لما هو أنفع للمؤمنين.

فالانتقاء القرآني لمثل هاته المتغيرات وان كانت في نوعيتها صريحةً بائلة، ستأخذك إلى المعنى مباشرة، على نحو تقريرى موجز يشحن المتلقي بثلة من المثيرات تستقطب فكره للتوجيه والإقناع بالدرجة الأولى، وتنقيته من الأوهام والإتباع كذلك، وهذا مبلغ الأمر ومُراده.

وأيًا كان صنف تلك المتغيرات الصرفية - ماضية كانت أو آنية - إلا أنها تنهض على التعددية الوظيفية ناهيك عن النقاوت الدلالي الذي تنسم به ما بين كل ظاهرة، فمنها ما يبتغي الإبراز والتفخيم، ومنها ما يركن إلى الإعلاء والتوجيه ومنها ما ينزوي بانزواء الفصل والتقرير، لكن ما ننقق عليه إجمالاً حيال هذه المتغيرة؛ القيمة الجمالية التي تستحدثها على مستوى الخطاب، ناهيك عن القيمة الفكرية التي تعطيها، لأنها تُخاطب العقل والوجدان معاً على نحو أسلوبى مؤسس فنياً ومُحكماً منطقياً.

وبالتالي فمستوى اللغة يضطلع إلى مستوى هذا الخطاب المعظم، من الرصانة الأسلوبية والإحاطة البلاغية، ما يجعلها تسمو عن بقية الأنظمة الألسنية فكراً وحرفاً، فالأناقة اللفظية إذاً، لا تفي بالغرض من دون المعنى السديد، والمعنى الوفير كذلك لا يفي بالغرض من دون هيئة لفظية معتدلة القياس مستوية المقاس.

¹ - الرّمخسري: الكشف، الجزء الأول، ص: 333

3.1- نمطية اشتغال الفعل؛ من حيث الصّحة والاعتلال

التّفاعل الحركي القرآني؛ وإن كانت تقنيّة في غاية التّعقيد لأنّ كلّ بنية تأخذ نسقها الخاص في اختيار الوحدات اللّغوية وانتقاء المؤشّرات الفنّية، وإبراز الألوان البلاغيّة، فإنّها ستغدو بنظام مُؤدّجي خاصّ يستحضر آليات التّكوين الأسلوبي، تبعًا لمؤثّرات جمالية تُواشج بين الأنساق الأدائية والرّوى المُعمّقة لِنَبْدُو في غاية الإتيان والتّكامل الجمالي.

وتقديرًا لأسلوبية التّناسق النّظمي بين الوحدات الصّياغية نومي؛ أنّه ليس للكلمة إمرة بانعزالها عن سلسلتها اللّغوية ولا يُمكن البتّة من أن تُنصّفها حُكمًا وتُجملها توصيفًا حينما تتسرّب من منظومتها الأسنويّة، فاقتناس دلائل المناورات الأسلوبية تقتضي فنّيًا؛ الإحاطة بحيثيات الظّاهرة وبواعث ورودها، ناهيك عن قياس الهيئة التي أبرّزت بها على مستوى القول، كي يتسنى لنا ضبط آليات اشتغال الصّيغة دونما المساس بسيادتها وبالخصوص على متن التّصميم القرآني.

بيد أنّ الكفاءة الأسلوبية لدى القارئ تختلف درجاتها حسب إمكانيّة تمييز إمكانياته، فبقدر ما يتضمّن الخطاب القرآني أبنية لغوية تبتغي الإفهام والإرسال، إلّا أنّه في ذات الخطاب تتساق إليه أبنية فنّية ذات شفرات ترميزيّة، وإنّها لن تتكشف سيميولوجيًا إلّا لمن يسعى إلى الإحاطة بزواياها المعرفيّة، والبحث عن الأبنية الصّرفيّة على مستوى الخطاب القرآني يعتمد بالدرجة الأولى على الفهم الأمثل لأنساق التّعبير، من ذلك ما خصّصناه في هذا الجزء الاستقصائي، على النّحو الآتي:

* **الفعل الصحيح:** وهو ما خلت مادته من أحرف العلة،¹ أقسامه ثلاث:

ـ **السالم:** "وهو ما سلمت مادته من الهمز والتضعيف، وحكمه أنه لا يُحذف منه شيء عند إئصال

الضّمائر ونحوها بها، وكذلك ما تصرّف منه لا يُحذف منه شيء عند التثنية والجمع".² وقد ورد

159 فعلاً في 613 موضعاً موضحة في الجدول الآتي:

جدول (01): بناء الفعل السالم

فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار
بخس	01	حكم	02	سخر	01	عبد	05	فصل	01	منع	01
بدل	06	خلق	01	سرح	01	عجب	03	فضل	03	نبت	08
برز	01	حمل	03	سفك	02	عجل	01	فعل	13	نبذ	02
بسط	01	خبط	01	سفه	01	عذب	01	فكر	02	نذر	01
بشر	03	ختم	01	سكن	01	عرض	02	فلح	01	نزل	18
بصر	01	خدع	02	سلف	01	عرف	04	قبض	01	نسخ	01
بعث	04	خرج	03	سلم	04	عزل	01	قبل	03	نشر	01
بلغ	05	خطف	01	سمع	05	عزم	02	قتل	18	نصر	05
بهت	01	خلط	01	شبه	02	عضل	01	قدر	02	نظر	08
تبع	16	خلف	07	شرب	05	عقل	12	قدم	03	نعق	01
ترك	04	خلق	03	شرك	01	علم	69	قرب	03	نعم	03

¹ - عبد الصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية - رؤية جديدة في الصّرف العربي - ، مؤسسة الرسالة،

الطبعة الأولى، سوريا، 1980م، ص: 78

² - المرجع نفسه، ص: 78

ثبت	01	خلق	03	شعر	03	علن	01	قرض	01	نفع	03
ثقف	01	دخل	06	شفع	03	عمل	12	قطع	02	نفق	17
جعل	10	ذبح	03	شكر	06	عمه	01	قلب	01	نقض	01
جهد	01	ذكر	06	شهد	05	عنّت	01	كبر	02	نكح	04
حبط	01	ذهب	02	صبر	02	عهد	03	كتب	14	هبط	04
حدث	01	ريح	01	صدق	01	غرف	01	كتم	09	هجر	01
حذر	01	ريص	03	صفح	01	غرق	01	كذب	03	هزم	01
حرف	01	رجع	09	صلح	03	غفر	04	كره	01	هلك	01
حرق	01	رزق	06	ضرب	05	غمض	01	كسب	13		
حرم	02	رسل	02	ضعف	02	غلب	01	كفر	25		
حزن	06	رضع	02	طعم	01	فتح	02	كلم	04		
حسب	03	رغب	01	طلق	06	فجر	02	لبث	03		
حسن	01	رفع	04	طمع	01	فرض	04	لبس	10		
حشر	01	ركع	01	طمن	01	فرغ	01	لعن	03		
حصر	02	رهب	01	طهر	03	فرق	02	متع	03		
حضر	02	سبق	01	ظلم	16	فسد	05	محق	01		
حفظ	01	سجد	02	ظهر	01	فسق	01	مسك	03		

جدول إحصائي للفعل السّالم في سورة البقرة

ـ الفعل المهموز: " وهو ما كان أحد حروف همزة " ¹ وقد ورد 14 فعلاً في 141 موضعاً،

موضحة في الجدول الآتي:

¹ - عبد الصّبور شاهين: المنهج الصّوتي للبنية العربية- رؤية جديدة في الصّرف العربي - ، ص: 79

جدول (02): بناء الفعل المهموز

فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار
أخذ	21	أكل	04	أمن	67	دراً	01	نبأ	02
أخر	02	ألفى	01	برأ	03	سأل	16	هزأ	02
أذن	01	أمر	10	خطأ	01	سئم	10		

جدول إحصائي للفعل المهموز في سورة البقرة

الفعل المضعف: "ما كان مضعفًا من الثلاثي، وهو ما كانت عينه ولامه من جنس واحد، وما كان مضعفًا من الرباعي، وهو ما كانت فاؤه ولامه الأولى من جنس، وعينه ولامه من جنس آخر، مثل زلزل".¹ وقد ورد 34 فعلًا في 93 موضعًا موضحة في الجدول الآتي:

جدول (03): بناء الفعل المضعف

فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار
آل	01	خصّ	01	شقّ	01	عتّ	03	مسّ	04
بثّ	01	خفّ	03	صبّ	01	عدّ	08	هلّ	02
برّ	01	دلّ	01	صرّ	01	قدّس	01	ملّ	03
تمّ	07	ردّ	04	ضرّ	03	قرّ	01	منّ	02
حبّ	08	زلّ	01	ضلّ	01	كلّف	01	ودّ	04
حجّ	04	سبح	01	ظلّ	01	مدّ	01	ولّ	09
حلّ	06	سرّ	02	ظنّ	04	مرّ	01		

جدول إحصائي للفعل المضعف في سورة البقرة

¹ - المرجع نفسه، ص: 78

الفعل المعتل: "ما كان أحد أصوله حرف علة"،¹ وقد ورد 85 فعلاً في 466 موضعاً، موضحة في

الجدول الآتي:

جدول (04): بناء الفعل المعتل

مثال		أجوف				ناقص				لفيف			
فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	مفروق	مقرون		
وجد	04	باء	02	صاب	05	أبى	03	سما	01	وفى	05	حيي	11
وذر	03	باع	01	صام	02	أتى	56	شرى	10	وقى	05	سوي	01
وسع	01	بان	17	ضاء	02	أدى	01	صفا	03			هوى	01
وصل	01	تاب	08	طاع	05	بدا	03	عدا	05				
وعد	02	ثار	01	طاف	01	بغى	02	عسى	03				
وعظ	02	جاء	13	طاق	01	بقى	01	عصى	02				
وقد	01	جاء	02	عاد	01	بلي	02	عفا	07				
وقن	02	جاز	03	عاذ	01	تلا	07	فدى	02				
يسر	02	حاط	01	عان	02	جرى	03	قسا	01				
		خاف	03	فاء	01	خشي	01	قضى	04				
		خان	01	فاض	03	خفي	02	ققا	01				
		دار	01	قال	27	خلا	05	كسا	01				
		دان	01	قام	13	دعا	10	كفى	01				
		راد	04	كاد	02	رأى	12	لقي	04				

¹ - المرجع نفسه، ص: 79

				01	مشى	01	ربا	79	كان	03	زاد		
				02	نجا	01	رجا	03	مات	01	زال		
				04	نسي	05	رضي	01	نال	01	زان		
				03	نهى	04	رعى			18	شاء		
				16	هدى	03	زكى						
						02	سعى						

جدول إحصائي للفعل المعتل في سورة البقرة

إحاطةً لفاعلية البناء الأسلوبي على مستوى الخطاب، فإننا نستبين سلفاً؛ أن أولية المبنى الصرفي وإمّرتِه، تكمن - في مبدأ الأمر ومنتهاه- في اعتصام البنية اللغوية من التشظي والهشاشة والتحول إلى مجرد وقائع تعبيرية مشتتة يسودها النّيه ويخيم عليها النّشاز، فبذلك المقاس المحكم فنّياً وألّسناً تكتسب المفردة نفوذها وحضورها البارز، فلا يتأذى المعنى به رغم هيمنته عليه - بحكم أن كلّ مفردة تستند على قياس صرفي وتلتزم به- ولا تشلّ أواصر الحياكة التكوينية بين وحدته بل ترتزّيده أزرًا وتمتّناً، فتراه ينأى عن السطحية والعفم الدلالي، وهنا بالضبط وانطلاقاً من هاته القاعدة يمكننا تحديد القيمة الوظيفية للأقيسة الصرفية على متن الصّوغ القرآني.

والغاية الإجرائية من هذا المبدأ فصاعداً؛ الاهتمام إلى الصّينغ البنائية الفاعلة كونها تتضمن البلاغة العميقة المختبئة بين فتائل النصّ وثنياته، من ذلك ما نستشهد به من خلال النماذج التالية:

* عن نسق التدبّر في إبداع الخالق والاعتبار من الأولين؛ قال سبحانه: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا

يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّعُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167).¹

الأثر الإبداعي الذي تبصمه تلك الأفعال في متن الخطاب أسنسيغ أسلوبياً، للتدبر في خلق الله وشؤونه؛ بدءاً من افتراض الأرض ورفع السماء، وتعاقب الليل والنهار، ومسرى الفلك ومجره، وتنزيل الماء فيحرك الجمار ويحيي النباتات، وقذف الروح في الكائنات... وكل من هؤلاء إثبات لعظمة الله في الخلق والتسيير، ومن ثم أرفق هاته الآيات التي تستوقفك للتدبر في جوانها بعرض أحوال الذين اتبعوا غير الله فتقطعت بهم السبل ومالهم من منج غيره.

ومن يطلع على لغة الخطاب القرآني في مذهبها النصية يلحظ أن فاعلية الحركة تبرر تقنياً في ربط الأحداث وتفعيل المشاهد لتغدو نسقاً محكماً نابضاً يحيا بتفاعل أجزائه ويتوسّع بتكاثف دلائله، وإنا لا ننكر اعتناء الخطاب القرآني بمثل هاته التقنيات التي تعتمد على توظيف الأفعال بشتى أنواعها وبمختلف هياتها، والملاحظ على مستوى هذا النص الاستناد إلى الأفعال الصحيحة والمعتلة في الآن ذاته لتشكيل بنيته من ذلك: (تَجَرَّعَ / يَنْفَعُ / أَنْزَلَ / أَحْيَا / بَثَّ / يَتَّخِذُ / يُحِبُّونَهُمْ / ءَامَنُوا / تَرَى / ظَلَمُوا / يَرُونَ / تَبَرَّأَ / اتَّبَعُوا / وَرَأَوْا / وَتَقَطَّعَتْ / وَقَالَ / اتَّبَعُوا / فَتَبَرَّأَ / تَبَرَّعُوا / يُرِيهِمْ...) فمصدر الطاقة الأسلوبية على متن الخطاب القرآني اعتماده على بثّ النبض وتفعيل الحركة ناهيك عن الامتداد الرؤيوي المحفوف بالتأمل والتشخيص ما يجعل النص يسمو بأفق المتلقي للنظر في إبداع الخالق، والاعتبار من قصص الأولين، وتشخيص أحوالهم بفصل الأحكام إقامة الجزاء،

¹ - سورة البقرة: الآية [164-167]

والملاحظ كذلك أنَّ هاته المشاهد سِيَقَتْ مُتسلسلة منتظمة لثَبِيْن أَنَّ الخلق والأمر والحُكْم يُرجع إليه كَلِّه سبحانه وتعالى.

* وعلى سبيل تفخيم الحُكْم وتعظيم الحق؛ قال سبحانه: { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّنَّهُمْ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَرُبِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215) }¹ " ذكر ابن جرير أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلَفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وذكر الرازي أنهم كانوا أمة واحدة حتى اختلفوا فبعث فيهم النبيين، وأنزل معهم الحجة والبيان وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض".²

وبالنظر إلى متن الرسالة نلتَمِس زواياها الحركية مُستندةً إلى جملة من الأفعال منها ما هو معتلٌّ صريح ومنها ما هو صحيح بائن غنيٍّ عن التَّأويل والمُلابسة؛ (فَبَعَثَ / وَأَنْزَلَ / لِيَحْكُمَ / اخْتَلَفُوا / اخْتَلَفَ / جَاءَتْهُمْ / فَهَدَى / ءَامَنُوا / يَهْدِي / يَشَاءُ / حَسِبْتُمْ / تَدْخُلُوا / يَأْتِكُمْ / خَلَوْا مَسَّنَّهُمْ / وَرُبِلُوا / يَقُولُ / ءَامَنُوا / يَسْأَلُونَكَ / يُنْفِقُونَ / قُلْ / أَنْفَقْتُ / تَفْعَلُوا...) وهاته الوحدات الفعلية تُحيلنا إلى ثلَّة من الدلائل أولاهها تأكيد أنَّ هاته الأمة كانت تجمعها كلمة واحدة حتَّى أنزل عليها البيان إذعانًا بالحق ودعوة

¹ - سورة البقرة: الآية، [215-213]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 569-570

إلى الصراط السوي، وأنَّ جنَّة الله غالية ومُهِزُّها ثمين، وأمَّا أعمالنا فخيرها أنفعها والله بكلِّ شيءٍ عليم.

فالخطاب القرآني يركز على تيمات دالة عميقة، ومفارقات صريحة، ومثيرات فاعلة تجتمع فيها الاستثارة الزمنية، بإدلاء الحجج، والدعوة إلى سواء السبيل؛ وبالنظر إلى النص الذي بين أيدينا نلفي أنه قد اجتمعت فيه جلُّ تلك المثيرات تذكيرًا وإقرارًا؛ أنَّ أمتنا كانت موحدة متفقة على كلمة واحدة قوامها الحق، حتى تشعبت، فأنزل الله فيها رُسلًا ناصحة منذرة فهدى من اتبع رضوانه وأشقى من ابتغى غير ذلك.

وعموماً؛ فقوة الأسماء حينما تعجز تحل محلها الأفعال كبديل تركيبى، فإن أراد الخطاب أن يبيث الروح ويعتمر في بناء دلائل نصية فإنه يستدل بالوحدات الحركية لأنها أعمق في الإفصاح وأبلغ في تصوير المشاهد لكن على حسب السياق الذي يستدعي حضورها، فالوحدة الفعلية على مستوى النص مرصوفة بإيقاعها على نحو تصاعدي تقابلي من الهدوء إلى القوة، ومن الثبات إلى أوج الانفعال ما أضفى نوعاً من التكاثف الدلالي في أوجز مشهد، ولا نبالغ إذ نقول؛ أن الخطاب القرآني سيُوهب الحركة أقصى توهجها الانفعالي ونبضها المتدفق حتى وهي في أدنى درجات السكون والهدوء، وهاته السمة الأسلوبية يستحيل لك أن تُلَفِّي لها نظيراً مع بقية النصوص لأنَّ قوة الأفعال مرتبطة بدرجة حساسيتها من جهة وبتكاثف طاقاتها من وجهة أخرى، بمعنى أننا مع الخطاب القرآني سنُقدف في كلِّ حركة؛ دلالة بلاغية، وأمانة أسلوبية.

* وفي مقام التوجيه واستعلاء القيم؛ قال سبحانه تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ
 حَلِيمٌ (263) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا
 يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
 شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ
 وَتَنْثِيًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265) أَبَوْدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ
 يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ((266)).¹

ما تستحوذ عليه لغة الأفعال على متن الخطاب القرآني هو التأثير المكين لأفُق السامع، ناهيك عن
 الاستحضار الموفق للأحداث بتركيز وعناية بالغة ما يجعل السامع يتتبع مفاصل الخطاب بشكلٍ
 تدريجي مُنتظم. والمُلاحظ على مستوى هذا النص امتثاله لفضائل القيم وأنبُلها وبالخصوص التَّفَقُّة
 وأخلاقياتها، وتعظيمًا لفضائلها قد استهلَّ قوله بتصويرٍ تمثيلي يوضِّح تفاوت مقادير الجزاء وفقًا
 لمراتب السعي ودرجات الاجتهاد؛ {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ
 سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261)} ثم أرفق هذا
 التمثيل، التخصيص بالثواب؛ {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا
 أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ومن ثم أعقب القول باستئناف تقريره
 على نحو ينص فيه أن الردَّ اللطيف والكلمة الطيبة في وجه السائل لآرفع قدرًا عند الله من صدقة
 مثوبة بالأذى والتجريح { قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ }

¹ - سورة البقرة: الآية، [261-266]

مُشَخَّصًا منزلتهم الدنيَّة بمُقايَسة في غاية الدقَّة ومُرتدِّيًا بما يقابل منزلة المؤمنين بمُشابهة في منتهى البلاغة لقوله؛ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265) } وقد اختتم هاتيه الرِّسالة بمثل - إن جاز لنا التَّوصيف- في أبلغ صوره وأصدق معانيه وأنصف دلائلها عن الذين أُحبطت أعمالهم بالرياء والأذى { أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (265) } مُشَبِّها إِيَّاهم بمن أصابه العجز والكبر فهبَّ عليه إعصار نيران فالتفت وأحرق كلَّ ما يملك، وهذا لتَوصِيرٌ سديد لمن يجتهد في الدُّنيا ومن ثمَّ تذهب أعماله حسرات يوم الحساب.

وإدلاءً ببلاغة الوحدات الفعلية - بمختلف أصنافها- في متن الرِّسالة (يُنْفِقُونَ/ أَنْبَتَتْ/ يُتَّبِعُونَ/ يَحْزَنُونَ/ يَتَّبِعُهَا/ ءَامَنُوا/ تَبْطُلُوا/ يُنْفِقُ/ يُؤْمِنُ/ فَأَصَابَهُ/ فَتَرَكَهُ/ يَقْدِرُونَ/ كَسَبُوا/ يَهْدِي/ يُنْفِقُونَ/ أَصَابَهَا/ فَآتَتْ/ يُصِيبُهَا/ فَطَلَّ/ تَعْمَلُونَ/ أَيَوَّدُ/ تَجْرِي/ فَاحْتَرَقَتْ/ يُبَيِّنُ/ تَتَفَكَّرُونَ...) فَإِنَّا نُلَخِّصُ دلالتها الأسلوبية في الثَّنَائِيَّاتِ التَّالِيَةِ: الوعد والوعيد، التَّوَجُّه والتَّوَجُّه، التَّوَابُّ والعتاب. فقد استثمر الخطاب القرآني تلك الأفعال المعتلَّة والصَّحِيحَة للتَّوَجُّه والتَّوَجُّه وتنزيل النَّاس منازلهم، ولعلَّ الملمح البارز استحضار الأنساق المُتَقَابِلَة ما حفَّ الصَّوْرَة بلمسة إِيْحَائِيَّة مَكْتَفَة الدَّلَائِل بليغة المعاني، حيث تتجلي جزئياتها مُلتَحِمَة موحَّدة كأنَّها سبيكة واحدة، أسهمت إلى حدٍّ بعيد في توجيه مَسَالِكهَا البلاغية.

4.1- النمط الوظيفي للبناء الفعلي؛ من حيث الجمود والاشتقاق

إنّ الوعي النقدي بالخرائن الأسلوبية بين طبقات الخطاب القرآني يُلقي بنا طوعاً؛ إلى استِعلاء القيم التي يَسْتَحُوذُ عليها، فالافتضاء النَّصَّاني الذي يستدعي إدارة الشَّأن التَّعبيري بالانتقاء اللغوي السَّامي؛ يستدرك الزَّلل لإتمام نقائصه، يلتبس العُقد لِيُقَكَّ أسرها، يقتنص الدَّلالة لِيُفَعِّل طاقتها، مُسْتَدْرِجاً بِذَلِكَ أَفَقَ السَّامِعِ لِيَعْلُو بِهِ إِلَى مَا فَوْقَ سَفْهِ البلاغة، فَتَحْطَى هَيْبَتَهُ بِالْقَبُولِ وَتُجْزَى سَطَوْتُهُ بِالتَّمَكِينِ، وتلكمُ إِذَا؛ الصَّنعة المِثَالِيَّة التَّامَّة، التي حُطِّي بها الخطاب القرآني.

فترُمِّقه بَيْنَ كُلِّ مَوْضِعٍ ومَوْضِعٍ مُحَمَّلاً بِنِسْقٍ معرفي تَنْفُذُ مَعَانِيهِ مِنْ كُلِّ مَنْفَذٍ وتُسَدِّلُ دَلَالَتِهِ مِنْ كُلِّ مَرْفَأٍ، ويكأنَّ هذا المؤهَّل الأسلوبي ما منحه تِلْكَ السَّلْطَةُ والاسْتِطَاعَةُ فِي التَّبْلِيغِ والإِثْرَاءِ، لكن في الأصل هناك زخمٌ من المؤهَّلات أَحَارَ به على هذا الاستحقاق، بيدَ أنَّ الحدود العلميَّة والميقات المؤطرَّ لم يُسْعِفْنَا ولم يشفع لنا بأن نتوسَّم النَّظَرَ إلى بقية الوقائع اللِّسانية بالمُعَايَنَةِ التي تليق بشأوه.

وتتويهاً عمَّا استكان إليه الاجتهاد الصِّرفي؛ فيما يخصّ دلائل النمط التَّوظيفي للأبنية الفعلية، فإنَّا نُحِيلُ أَنَّ الخطاب القرآني لم يُعْغَلْ قيمة التَّصْنِيفِ الألسني للأبنية كونه تفاعلٌ لغوي فَنِّي متَّحد، واللَّغة بهذا الشَّأن ليست هيئةً أسلوبيةً مجردة تكتسي النِّظْمَ وإِنَّمَا الأداة المُثْلَى التي تَكْتَشِفُ بها ذاتية الخطاب وتشي عن أماراته وتنبئ عن مقاصده. وتخصيصاً لِسِمَاتِ التَّوظِيفِ القرآني للأبنية الفعلية على مستوى السُّورَةِ نستبين ما يلي:

* **الفعل الجامد:** "ما لم يؤخذ من غيره ودلّ على حدث أو معنى من غير ملاحظة صفة، كأسماء الأجناس المحسوسة أو أسماء الأجناس المعنوية"¹. وقد تمّ إحصاء ستة أفعال في 15 موضعاً، موضحة في الجدول الآتي:

جدول (01) بناء الفعل الجامد

فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار
أحسن	01	بئس	01	خلا	01	عسى	03	ليس	08	نعم	01

جدول إحصائي للفعل الجامد في سورة البقرة

تَحْتَكُمُ تِلْكَ التَّنْفُلَاتِ الجمالية بين الأبنية الفعلية إلى حَصَانَةٍ مُتَعَالِيَةٍ تُطَوِّقُهُ من حيث القيمة الفكرية والاستثارة البلاغية، خاصةً حينما ندرك أَنَّ كُلَّ مُقْتَضَى بِنَائِي يَتَّبِعُهُ مُقْتَضَى فَنِّي لِتَحْقِيقِ مُبْتَغَاهِ الأسلوبِي من ناحية الجذب النَّصَاعِدِي للمتلقّي والاحتواء الدَّلَالِي للكلمة، فتشغيل تلك الأنساق اللُّغَوِيَّةِ يُفْتَضِي إِذَا؛ تفعيل كمّ هائل من المحفّزات الذهنية والمثيرات السيكلوجيّة، وإنا التمسنا بين بنيات الخطاب القرآني آلية التّتميط الاشتغالي للوحدات الفعلية فمنها ما تُثَبّت دلالته مع الجامد ومنها ما تُوجِبُ الاشتقاق والتّصريف، وكلّ منهما يتفرّد بخصوصيّة من ناحية الصّيغة والمعنى في متن القول؛ ما تُثِيرُك إلى دقّة التّوظيف القرآني في تشغيل الوحدات الصّيّغية لكلّ نسق لفظي، يُمكن إيجاز ذلك على النّحو الآتي:

*من صور الذّم، ذكر سبحانه: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ

¹ - أحمد الحملاوي: شذا العرف في فنّ الصّرف، دار الكيان، الطبعة الثانية، الرياض، 1957م، ص: 111

المَصِيرُ (126).¹ امتثلت على متن هذه الآية صورًا متقابلة بين التَّرييب والتَّرهيب، بين الإعلاء والزَّجر، وتخصيص هؤلاء بالذمِّ ليس للاحتقار وإنَّما للتَّعظيم والتَّهويل بسوء الختام. وبالنَّظر إلى ما سبقت إليه هذه الآية وإلى الوظائف التَّعبيرية فإنَّنا يمكن أنَّ نحدِّد نمطية الفعل لمعاينة هذا المقطع، وما يُمكن إجماله؛ تقديرًا لأسلوبية فعل الذمِّ وأثره على حساسية المُتلقي فإنَّنا نخلُص إلى قيمته التي تتحدَّد بكونها تفخيمًا وتهويلًا بِدرك المصير.

* ومن صوَر المدح، قوله سبحانه: { إِن تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْنُوها الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271) } لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفُسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (272) }.² " إِنَّ اللَّهَ أَدْرَى بِعِبَادِهِ وَعَلِيمٌ بِمَا يُنْفِقُونَ وَيَنْذِرُونَ وَأَمَّا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ إِنْ أَظْهَرْتُمُوهَا وَلَكِنْ أَفْضَلُ فِي إِسْرَارِهَا إِلَّا لِمَصْلَحَةِ رَاجِحَةٍ".³ ومن يؤول مقاصد هذه الآيات يستبين أن دلالاته تكمن في إبداء قيمة الصَّدقة وإسرارها أفضل من جهرها، استبعادًا للرياء والتَّفاخر، إلَّا في سبيل تحقيق منفعة لوجه الله كالحثِّ على الإقتداء أو الدَّعوة إلى التَّطَوُّع الجماعي مثلاً. فالأبنية الفعلية التي اختصَّت بها هذه الآيات لتأسيس أسلوبٍ ذو بعد إقناعي حول النِّفَّة وآدابها، مُستحسنًا إبداءها { إِن تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ } مُستعظمًا إسرارها { وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْنُوها الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } وهذا ما يبعث على التَّرييب والإتيان، احتسابًا لمرضاة الله سبحانه وتعالى.

¹ - سورة البقرة: الآية [126]

² - سورة البقرة: الآية [271-272]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 271

*ومن صور التفضيل والاستحسان، قوله تعالى: { فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) }.¹ " فَإِنْ آمَنُوا فَقَدْ أَصَابُوا الْحَقَّ وَأَرشَدُوا إِلَيْهِ وَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فَسَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ وَيُظْفِرُكَ بِهِمْ، وَمِلَّةُ الْإِسْلَامِ لِأَفْضَلِ الْمَلَلِ".²

يشتغل الحيز اللغوي لهذا المقطع حول ثلاثة من الوحدات الفعلية مُحَمَلَّةٌ بصورة استعارية قد وُهِبَتْ أَلْقَ حُضُورُهَا وَقُوَّةُ أَثَرِهَا تَبْتَغِي فِي ذَلِكَ؛ الإِعْلَاءُ وَالتَّرْغِيبُ فِي الْآنِ ذَاتِهِ { صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً } عَلَى سَبِيلِ تَعْظِيمِ شَأْنِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَعَلَى سَبِيلِ التَّرْغِيبِ وَالجذب بأسلوب استثنائي لطيف يبعث في النفس القبول والإتياع بالحُسنَى، وقد اعتمد الخطاب القرآني في مواضع شتّى على هذا النوع من الأساليب لتفعيل المعنى وتبليغ الرسالة.

فما نحيل إليه إذا؛ أَنْ لِكُلِّ نَمَطٍ دَلَالَةٌ تَتَسَاقُ إِلَى سِوَاءٍ مَدْحًا أَوْ ذَمًّا أَوْ اسْتِحْسَانًا وَكُلٌّ نَسَقٌ لُغَوِيٌّ لَهُ حَقْلُهُ الْأُسْلُوبِيُّ الْخَاصُّ وَهَذَا مَا إِنْ تَمَسَّنَاهُ عَبْرَ تِلْكَ الْمَشَاهِدِ.

* **الفعل المُتَصَرِّفُ:** "ما أخذ من غيره ودلّ على ذات، مع ملاحظة صفة كعالم وظريف، ومن أسماء الأجناس المعنوية يكون الاشتقاق، كفهْم من الفهم، ونَصَرَ من النَّصْر".³ من مواضع وروده نلّفي:

¹ - سورة البقرة: الآية [137-138]

² - ينظر؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: الجزء الأول، ص: 450

³ - أحمد الحمالوي: شذا العرف في فنّ الصّرف، ص: 111

جدول (02) بناء الفعل المتصرف

فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار	فعل	تكرار
جعل	10	زال	01	كاد	02	نصر	05	يدع	02	وذر	03

جدول إحصائي للفعل المتصرف في سورة البقرة

وتشخيصاً للأبنية الفعلية التي تعتمد على التصريف الاشتقاقي لتوليد المعاني وتحقيق الإفهام،
نستحضر ما يلي:

* في مقام التهديد والإنذار؛ قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْنُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (279) }.¹ أمر بتقوى الله ونهي عما يُقربهم إلى سخطه ويُبعدهم عن رضاه، من ذلك ترك مال الربا إن كنتم تؤمنون بشرع الله - من تحليل البيع وتحريم الربا- والاستيقان بحرب من الله ورسوله لمن تعاطى الربا بعد توجيه الحكم.² ومن يلتبس دلالة الصيغة الموازية للفعل (وَذَرُوا) فإنه يستخلص من نبرتها المجهورة شحنة من التهديد الشديد والوعيد المحقق، فهذا المستلزم يقتضي الترك التام امتثالاً لما أُمر به واستجابة له، ومن ثم أعقبت هاته الصيغة بفعل أمر { فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } وحيء على سبيل التخييم والتأكيد على عظيم قدرة الله وجبروته.

* في سياق توسيع منافذ الإدراك بضرب الأمثال وإقامة الحجة؛ قال سبحانه: { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ

¹ - سورة البقرة: الآية [278-279]

² - يُنظر؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 716

شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20).¹ اعتمد الرّمخشري في توصيفه للخطاب القرآني على مقاصد بلاغية مع تأييد الحكم الديني لكل آية، من ذلك ما استوقفنا عنده بين تضاعيف هاته الآية بقوله: وهذا تمثيل آخر، ليكون كَشْفًا لحالهم إجمالاً وإيجازاً في الآن ذاته... وحسب تقديره أنّه شبّه الدين الإسلامي بالصَّيْب، لأنّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وشبه الكفار بالظلمات، وما فيه من وعد ووعد بالترّد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفراع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصّواعق...² ومن ثمّ أعقبها بقوله: يكادُ البرق يَخطفُ أبصارهم؛ لشدّته وقوّته، وضعف أبصارهم، وعدم ثباتها للإيمان، فكّلما ظهر لهم الإيمان اتّبعوا واستأنسوا وكلّما تعرضهم الشّكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين.³ واستناد الخطاب القرآني على هذا النوع من الأبنية الفعلية (يكادُ) يُحيل بلاغيّاً إلى المبالغة في ارتيابهم ونفاقهم وتخبّطهم.

* في عرض التّنبيه والتّحذير؛ قال سبحانه: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزِدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218).⁴ وأكبر من القتال في الشهر الحرام وصدّ عن سبيل الله، والكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه وفتنة المسلمين لردّهم إلى الكفر؛ أعظم عند الله من القتل، ثمّ إنّه لا يزالون

¹ - سورة البقرة: الآية [19-20]

² - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 53

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 191

⁴ - سورة البقرة: الآية [217-218]

مقيمون على هذا الخبث غير تائبين.¹ وبالرجوع إلى دلالة الصيغة الموازية للفعل (لا يزالون) فإنّها تُحيل إلى التّمادي والاستمرارية في منهاج فتنّهم وإغوائهم للمسلمين.

فلَمَّا جُعِلَتِ الألفاظ أمارَةً على المعاني، والمعاني رهينة ألفاظها فإنّه تَحَتَمَ على جُلِّ الأنظمة الألسنيّة بدون استثناء أن تقيس لكلّ وحدة لغوية مَقاسًا أسلوبياً يحتكمُ إلى موازين صرفية؛ مراعاةً للمعنى وتهذيباً للفظ وتضميناً للدلالة، وقَلَمًا تُلَفِّي ظواهر شغواء تنمرد عن النّظام القواعدي المتفق عليه إلّا لضرورة بلاغية قصوى. وبالنّظر إلى جزيئيات الخطاب القرآني وقوّة أشدّها فلا يمكن البتّة أن ترى الألفاظ عاجزة على تأدية المعنى ولا المعاني قاصرة على تصوير الموقف، بالإضافة إلى ذلك فإنّنا نتحسّس مقصد الرّسالة من نحويّتها وهيئتها وصورها، وحتّى في مواضع الإسقاط والإضمار فإنّك ستَلْتَمِسُ جوهر الخطاب بالقدر الذي استطعت إليه فهمًا وتأويلًا.

¹ -ينظر؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 573-574

ثالثاً: المقاس القرآني لهيئة المشتقات؛ بين صناعة اللفظ وإثراء المعنى.

إبانة:

التَّوجُّه الاستقرائي صوب تعدد المعنى للقياس القرآني؛ يسوقنا فكرياً إلى الاعتكاف بما ينفرد به من توالدٍ لفظي وانسلاخٍ دلالي، كون خصوصيته تتسم جذرياً بالتباين والتمايز والإثراء، فهذا الركن اللغوي المستأصل من مَنبَتِهِ المعجمي يَتَوَخَّى بالدَّرَجَةِ الأولى المناسبة اللفظية للمعنى، والملائمة التكوينية للصيغة، ناهيك عن إبقاء الرموز الأصلية وحفظ تركيبها كي لا تتشاز الظاهرة عن سلسلتها اللغوية ولا تعدل عن غاياتها اللسانية في تكثيف الدلالة وتشديد الأبنية.

فمن المقولات الثابتة: " الاشتقاق نزعٌ لفظي من آخر، بشرط مناسبتها معنى وتركيباً، ومغايرتها في الصيغة".¹ والرؤية الأسلوبية للوحدات الصرفية من هاته الزاوية لا تقف عند حدود التغيرات اللفظية والانقلابات القياسية وإنما تضطلع إضطراراً إلى مراقبة التقلات المعنوية التي تُصيب المعنى وتمس البنية العميقة، فالاستزادة في اللفظ لتغيّر في الصوغ ولتطوّر في النظم بين المنبت وبذوره؛ "والأصل هنا يُراد به الحروف الموضوعية على المعنى وضْعاً أولياً"،² في حين أنّ الفرع وضعٌ مُشتقّ متفق عليه يجمعهما رباطٌ سرّي قائم غير افتراضي لا عدول عن وشائجه؛ تحقيقاً لمبدأ الديمومة التوليدية للمفردات اللغوية.

¹ - وئام الحيزم: تأويل اللفظ والحمل على المعنى، بحث مقدّم لنيل درجة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية

والاجتماعية، جامعة تونس، 2009م، ص: 160

² - المرجع نفسه، ص: 160

* أو بتوصيف أهل الاختصاص لنظرية النحو التوليدي؛ "أنّ اللغة تولّد مجموعة غير متناهية من التعبيرات". يُنظر؛

نعوم تشومسكي: بنيان اللغة، تر: إبراهيم الكلثم، جداول، الطبعة الأولى، لبنان، 2017م، ص: 33

وتتقياً عن مسألة التّوظيف القرآني لصيغة الكلمة* فإنّنا نومي أنّ الصّوغ اللّغوي يعتمد على الانتقاء المنتظم الدّقيق للأقيسة، بحكم أنّ البناء اللّغوي يُستثنى بالتّشوّع والتّداخل في الإيحاء على المعنى المفرد، ما يستلزم ضرورة؛ السّلامة اللّغوية واسترعاء جداول البلاغة ناهيك عن المقاس المُحكّم للصّناعة اللّفظية، وهذا النّحو لَصْرُبٌ من ضروب الإعجاز القرآني ومذاهبه، من صور ذلك نورد ما يلي:

01_ اسم الفاعل؛ الصّيغة والدّلالة

اسم الفاعل: اسمٌ مصوَّغ من المصدر للدّلالة على الحدث* والذّات، ويكون معناه التّجدّد والحدوث.¹ وقد ورد 89 اسماً في 142 موضعاً، كما هو موضّح في الجدول الآتي:

*الصيغة: مصدر فعل صاغ يقال صاغ الشّيء يصوغه صوغاً، وصغته أصوغه صياغة، وصيغة، سبكته، ويقال

صاغ الشّيء، يصوغه صوغاً: هيأه على مثل مستقيم، القالب الصرفي: الهيئة التي توضع عليها المادة اللّغوية.

ينظر ؛ عبد الحميد هنداي: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ص 17- 19

¹ - خديجة عبد الرّزاق الحيدثي: أبنية الصرف في كتاب سيبويه، مكتبة النّهضة بغداد، الطبعة الأولى، 1964م،

بغداد، ص: 259 * ويُقصد بالحدث معنى المصدر، وبالحدوث ما يُقابل الثّبوت - مثلاً- قائم اسم فاعل يدلّ على

القيام وهو الحدث، وعلى الحدوث أي التّغيّر فالقيام ليس ملازماً لصاحبه، ويدلّ على ذات الفاعل أي صاحب

القيام. يُنظر؛ فاضل صالح السّامرائي: معاني الأبنية في العربية، ص: 41

جدول (01): بناء اسم الفاعل

اسم الفاعل	تكراره	اسم الفاعل	تكراره	اسم الفاعل	تكراره	اسم الفاعل	تكراره	اسم الفاعل	تكراره
آثم	01	خائفين	01	الطائفين	01	المتطهرين	01	المعتدين	01
آذيه	01	دابة	01	ظالمون	01	مبتليكم	01	مفسد	01
الآخرة	08	الدّاع	01	ظالمين	08	متشابهًا	01	مفسدون	01
بارئ	01	راجعون	02	عابدون	01	محسن	01	مفسدين	01
باطل	02	راكعين	01	عادٍ	01	مخرج	01	مقتر	01
تابع	01	الرّكع	01	عاكفون	01	مخلصون	01	ملاقو	03
خارجين	01	صالحين	01	كاملة	01	مصدق	02	الممترين	01
الخاصعين	01	الصواعق	01	كاملين	01	مصدقًا	03	منذرين	01
جاعل	01	سائلين	01	عاكفين	01	مزحج	01	الموسع	01
جاعلك	01	شاكر	01	غافل	05	مستقيم	01	موصي	01
جاهل	01	الصابرين	04	فارض	02	مستهزئون	01	الموفون	01
جاهلين	01	الصابئين	01	الفاستين	01	مسلمون	03	مؤمن	01
خالدون	07	ضّارين	01	اللاعنون	01	مصلحون	01	مؤمنة	01
خاوية	01	الضّالين	01	مبشرين	01	مصيبة	01	واحد	02
حاضرة	01	صادقين	04	كاتب	04	مشرك	01	الوارث	01
حاضري	01	الصاعقة	01	كافر	02	مشركة	01	الوالدات	01
الخاسرين	01	صالح	01	الكافرين	07	مشركات	01	والدة	01
خاسئين	01	صالحات	01	كفارا	01	مشركين	03		

جدول إحصائي لاسم الفاعل في سورة البقرة

ذلكم التّصوّر التّأسيسي الذي أَعَقَلْتُ به هاته المسألة وثاقها يَتَمَاهَى مع المبدأ المُتَوَاضِع عليه
حيال تعدّد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد، ما يُفَصِّحُ إِجْمَالًا: "أنّ المعاني الوظيفية التي تعبّر عنها
المباني الصّرفية هي بطبيعتها تتّسم بالتّعدّد والاحتمال فالمبنى الصّرفي الواحد صالح لأنّ يُعبّر عن
أكثر من معنى واحد غير مُتَحَقِّق بعلامة ما في سياق ما فإذا تحقّق المعنى بعلامة أصبح نصًّا في
معنى واحد بعينه تُحدّده القرائن اللفظية والمعنوية والحالية.¹ فضلًا عن التّكاثر اللّغوي من رَحَم
النّواة الأولى إلّا أنّه في ذات الأبنية الاشتقاقية تحملُ بذور نمائها في العلاقات البنوية النّاشئة بين
أطرافها، ما يجعلها تتّسم بالقدرة والمرونة في صياغة الألفاظ وتنشئة المعاني، ما يتسنى للباحث من
خلالها تفسير الرّوابط القائمة بين جزيئات النصّ وبنياته.

ولِإِفْتِتَاصِ محمولات المعنى بين طبقات الأبنية الفرعية، لابد من مراقبة التّفاعل المُنجز
بينهما بشكل تدريجي، أي؛ بين المصدر ومشتقاته، كي لا تنفلت منّا الدّلالة المقصودة في ظلّ
الإحاطة السيّاقية التي تتحوّ منحى التّعدّد والإثراء في الآن ذاته. ولئن كانت البنية الأولى نواتًا
تكوينية لِفَصَائِلِهَا - كما أشرنا سالفًا - فعلى أساسها إذا؛ سيتمّ التّعامل الأسلوبى، بالنّظر إلى
المصدر لمعاينة تصرّف الظّاهرة اللّغوية، وفهم نمط اشتغالها في الحمل لمعنى الفروع المشتقة -
المتولّدة تَقْنِيًّا من كَنَفِ أُصُولِهَا - ومن أوجه ذلك فإنّا نستبين مقاصد المصدر للدّلالة على اسم
الفاعل كالتّالي:

* على سبيل التّذكير بعهد الله لبني إسرائيل ونعمه عليهم؛ قال سبحانه: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا
نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا

¹ - تمام حسان: اللّغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، الطّبعة الثّالثة، القاهرة، 1998م، ص: 163

لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)}¹

"تذكيرًا بالنعمة؛ ألا يخلوا بشكرها ويعتدوا بها تعظيمًا وطاعةً لمانحها، ولا يجعلوا الحقّ مُشتبهًا بباطلهم".²

هاته العلامات اللغوية أحدثت نقلةً نصيةً على مستوى المواقف المحتدمة في الخطاب؛ من التّغريب إلى الترهيب حيث امتزج المتناقضان بأسلوب إقناعي وعظي يدعو إلى الحقّ امتثالاً لأوامره وتصديقاً لأحكامه، لقوله: { وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ } ما ترتّب عن توظيف اسم الفاعل مُصَدِّقًا (من الرّباعي صدّق، على وزن مفعلاً) من حيث كونه اسمًا يتمييز عن الفعل في هذا السياق للدلالة على الثّبات والحدوث، فمن خلال هذا السياق لا يكون الغرض تبيين امتناع الفعل أو حصوله تدريجيًا وإنّما ثبوت الصّفة وتَمَام حُصُولِهَا. أي مُصَدِّقًا وموافقًا غير مُخلٍّ ولا مُعارضٍ - لا محالة - لِمَا معهم من التّوراة والإنجيل، ما يُدلي أنّ هاته الحجّة دعوة إلى التّوحيد وإيدانٌ بمشروعيتها المطلقة وإعلاءً لنبوة محمّد صلى الله عليه وسلّم كونها تنمّة لجلّ الديانات السّابقة، وقال أيضًا: { وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } متضمّنًا اسم الفاعل الباطل (من الثلاثي بطل، على وزن فاعل) ما يُحيلُ إلى الأمر بالانصراف عن التّضليل والتّلبيس، فالإقدام عليهما لحجبٌ للعلم وتقييدٌ له.

ففي متن التّعبير القرآني إيجازٌ بليغ يختصر جملةً من الأنساق المترابطة بين الوعد والوعيد وبين التّذكير والتّنبية؛ بقيمة النّعم وإتباع الحقّ والإعراض عن مسترذلات الدّنيا، ناهيك عن استقباح

¹ - سورة البقرة: الآية [43-40]

² - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 258-259

اللبس والشبهة لما ينجّر عنهما من كتمانٍ للحقّ وإشاعة للفتنة، واضطراب في بنية المجتمع. وما يلحظ بتوصيف عام عن الخطاب القرآني وسورة البقرة بالخصوص؛ ملامح التشكّل الواقع وطرق استوائه، وأمارات النفس البشرية ونوازعها ومبادئ إصلاحها، ولا نقصد بذلك التصوير الفوتوغرافي التجريدي باستحضار الأمكنة والشخصيات والتناوب الزمني؛ وإنّما بوصفٍ مُتكامل الأجزاء، مُتراصّ الوحدات، مسترسل الأحداث، من مقوماته؛ البُعد الرؤيوي والعمق الدلالي، وبالتالي بقيمته الأسلوبية وقوّته الفاعلة تقع خلف لغته. ولو أمعنا النظر في تقنية توظيف هذا النوع من المشتقات لألفينا أنّها تمتلك حضوراً بارزاً، من شأنه توجيه نسقية البنية مُخطّية النظام اللغوي إلى التأثير السيكولوجي في المُتلقي.

*وفي سياق الاعتراض عن ملّة الإسلام؛ قال سبحانه: { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) }¹. وهذا ردّ لاغترار اليهود والنصارى، بإدعائهم أن لن يدخل الجنة إلا من كان على ملّتهم، فأثبت لما نفوه، متضمناً شرط الإحسان، فمن أخلص لله فله أجره وثوابه². فقد استخدم النصّ اسم الفاعل؛ مُحسنٌ (من الرباعي أحسن، على وزن؛ مفعّل) ليكسبها دلالات متعدّدة تتأوّل معنى الإخلاص، الانقياد، التسليم المستوي قولاً وعملاً... فالتعبير باسم الفاعل (محسنٌ) إدلاءً على الحال - أو بالأحرى الفضائل التي يتعيّن على المؤمن أن يتحلّى بها والتي تقتضي بموجبها ترجيح النية الخالصة على الطاعة العلنية لقوله صلى الله عليه وسلّم: " إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم وإنّما ينظر إلى

¹ - سورة البقرة: الآية [111]

² - الرّمخسري: الكشف، الجزء الأول، ص: 311

قلوبكم ونيّاتكم".¹ ما يدلي أنّ العبادة الحقّة تلتزم الثّبات على شرائع الله، فهذه إحالة إلى حكمة الله وعدله أصدق حجة لمواجهة تعنّتهم وإسقاطاً لإفترائهم.

وتكمن قيمتها الفنّية خلف هذا التّوظيف الأسلوبي لاسم الفاعل مُبدئاً معنى الإحسان في أصدق صوره وأدومها ثواباً، بإتيان العمل على الوجه المُستحب، وقد فسّره النّبي صلّى الله عليه وسلّم بقوله: " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك".² ما يبرز مهام هاته الرّسالة إجمالاً؛ في تبيان تضليل هؤلاء المُستبدّين للمؤمنين؛ إقامةً للبرهان وإيداناً بضرورة الإخلاص لاستحالة نيل الرّضا من دونه.

* وفي التّنزيل ذكرٌ لالتزام إبراهيم عليه السلام بشرائع الله تأديّةً وقياماً، لقوله سبحانه: { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) }.³ وهذا قولٌ في تشريف

¹ - أبو عبد الله محمد الرّازي فخر الدين (604هـ): التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، الطّبعة الأولى،

1981م، بيروت، الجزء الرابع، ص40

² - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 147

³ - سورة البقرة: الآية [124-128]

إبراهيم الخليل وتنصيبه إماماً لأُمَّته، وجعل مَقَامِهِ حَرَمًا شَرِيفًا، مُنَبِّها إياه عن سُؤله؛ أن لا ينال عهده الظالمين".¹

يُرجعنا هذا التسلسل القرآني إلى قصة إبراهيم عليه السَّلام بنسق أدائي في غاية الترتيب والتنظيم لأحداث العرض القصصي، بدءًا من امتحان إبراهيم عليه السَّلام واصطفائه، إلى نشوء هذه الأُمَّة. وفي معرض هذا النسق السردى نلتزمه حافلًا بالمؤشرات اللغوية والدلائل العميقة المُلتقّة خلف تلك الآليات الألسنية، من ذلك الاستناد على الأبنية الاشتقاقية بصيغة اسم الفاعل منها: جاعلٌ؛ (من الفعل الثلاثي جَعَلَ، على وزن فاعِلٌ) لقوله: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)} اتسعت هذه الصيغة لعدّة دلائل؛ ظاهريًا استسيغت تحقيقًا للعهد الذي بينه وبين نبيّه سبحانه وتعالى، أي إن أتممت تلك الكلمات وأدّيت الفرائض سأجعلك إمامًا للنَّاس، في حين من يُدقق النَّظر في معناها الضمّني يُلّفي جملة من المقاصد منها؛ أنّه صيّره إمامًا ورسولًا على أُمَّته يُقتدى به قولًا وعملاً، تعظيم مكانة إبراهيم في العالمين، وأنّ التشريف لا يأخذ بعين الاستحقاق حتى يتحقّق التكليف بوجه لائق. ومنه إفادة معنى الزّمن للاسم الفاعل (جاعلك) على وجه الاستقبال والصّيرورة؛ لإثباتٍ لِتَحْقِيقِ الوعد من جهة، وعلى الإقتداء المستحقّ من جهة أخرى. وبالتالي الإمامة والنّبوة ليست منحة أو مزية وإنّما تكليفٌ عظيم لمن يستحقّه.

وأيضًا نلّفي ورود الصّيغ الموالية: الطائفين؛ (جمع طائف، اسم فاعل من الفعل الثلاثي طاف على وزن فاعل)، العاكفين؛ (جمع عاكف، اسم فاعل من الفعل الثلاثي عكف على وزن فاعل)، الرّكع؛ (جمع راکع، اسم فاعل من الفعل الثلاثي ركع، وزنه فاعل أو فعَل بصيغة ركّع)، السّجود؛

¹ - يُنظر؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 408-412

(جمع السّاجد، اسم فاعل من الفعل الثلاثي سجد، على وزن فاعل، ووزنه فعول بصيغة سجود)،
 آمناً؛ (اسم فاعل، من الثلاثي آمن، وزنه فاعل)، لقوله سبحانه: { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
 وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
 وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ
 مَنْ أَمِنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ
 الْمَصِيرُ (126) } ما تتأوله هاته الصيغ؛ نصب بيت الله حرماً آمناً وتهيئته للمؤمنين تشريفاً
 وتكريماً لهم. وهذا إيذانٌ بتقديس محارم الله وإسناد التكليف إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام،
 وتخصيص المثابة ورخصة التوجه إلى بيت الله فيما أجملهم بوصفه، فقد وُظِّفت على الحدوث
 وفاعله، منزاحة إلى دلالات فنية وتركيبية تتداخل ودلالاتها المعجمية. وهذا لمؤاخاة بين المعاني
 والمباني.

ونلتبس كذلك صيغاً بنائية محمولةً لمعنى التضرّع والالتماس من ذلك قوله: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ
 الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ
 وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) }. فعلى متن هذا
 المشهد القرآني وُظِّفت صيغ اسم الفاعل توظيفاً فنياً مركباً بين مساقات المضي الديمومة والاستقبال
 في الآن ذاته. فأمّا قوله: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ } فقد استند على الفعل المضارع رغم مضي
 الواقعة استحضاراً وتفخيماً لشأنها. وأمّا قوله: { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } فقد استند
 هذا الطلب على سبيل الدّعاء والالتماس على صفة مشبهة بصيغة اسم الفاعل السميع؛ (من
 الثلاثي سمع، على وزن فعيل) دلالة على الاستمرارية والديمومة وهذا لتأكيد على اختصاصه
 سبحانه بتحسّس رغباتنا وسماع دعائنا وتضرّعنا، وهذا من كمال صفاته العليا سبحانه وتعالى.

وأما قوله: { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ } فقد تضمّن هذا الأسلوب الطلبي اسم الفاعل بصيغة مسلمين؛ (جمع مسلم، من الفعل الرباعي أسلم، على وزن مفعل). محتملاً دلائل عدّة منها؛ الصّير، الايهاب، التّوفيق. ما يوحي إلى الاستسلام والانقياد التّام لأحكامه وقضائه.

وبالتّالي؛ بلاغة توظيف هذه الأبنية على مستوى الوحدات الجمليّة تكمن تحديداً في استحضر الصورة وإبراز غايتها في إعلاء شرف محارم الله ورفع مقامها، وبيان اختصاص الله بالدّعاء والمناجاة تصديقاً جازماً بألوهيته ومقدرته على تدبير الأمور.

وتأسيساً على ما سبق رصده فإنّ دلائل اسم الفاعل متباينة حسب السّياق الذي يُحيطُ به يمكن أن نجعلها في؛ إفادة معنى الحدوث والتّبوّت، إفادة معنى التّجدّد والحدوث، إفادة معنى الزّمن؛ الماضي، الحال، الاستقبال. فما ينبغي التّأكيد عليه إذا؛ فيما يخصّ فنيّة الأبنية الاشتقاقية أنّ مداليلها تختلف من موضع لآخر وهاته الأمارات تُدلل على أنّ آفاق أسلوبيته متنوعة وأبعادها مُتغايرة، ولهذا يُلفي الدّارس قاموساً خصباً من المعاني والدّلالات التي تعتمدُ إلى إنتاجها سواء بالإشارة أو المفردات أو الرّموز أو الصّور، وبالتّالي مع مثل هذه الأبنية يستحيل على المُتلقي أن يعود فارغ الوفاض، فقيّمته الأسلوبية والجمالية لا تقلّ قدرًا عن وظائفه اللّغوية إبلاغاً وتأثيراً.

02_ الصّفة المشبّهة؛ الصّيغة والدّلالة: الصّفة المشبّهة؛ "اسمٌ يدلّ على الثّبوت والدّوام، وتتميّز

عن غيرها من المشتقّات باستحسان إضافتها إلى فاعلها في المعنى".¹ وقد ورد 47 اسماً في 130

موضّعاً موضّحة في الجدول التّالي

¹ - محمد محي الدّين عبد الحميد: شرح ابن عقيل، دار التّراث، الطبعة العشرون، القاهرة، 1980م، الجزء

الثالث، ص: 140. *وسمّيت مشبّهة لأنّها تقوم على مقام اسم الفاعل، وأوزانها غالباً اثنتي عشرة وزناً. يُنظر؛ أحمد

الحملوي: شذا العرف، ص: 56

جدول (02): بناء الصفة المشبهة

الصفة المشبهة	تكرار	الصفة المشبهة	تكرار	الصفة المشبهة	تكرار	الصفة المشبهة	تكرار
أثيم	01	رحيم	12	العبد	02	قليلة	01
أليم	03	رؤوف	02	عزيز	06	القيوم	01
بعيد	01	سريع	01	عظيم	05	كبيرة	02
بكم	02	سفيها	04	عمي	02	كبيراً	01
الحرّ	01	شديد	03	عوان	01	كثير	01
الحكيم	07	صغيرا	04	غفور	08	كثيراً	03
حليم	02	صمّ	02	غلف	01	كثيرة	02
حميد	01	صيّب	01	غني	02	مبين	02
حنيفا	01	ضعيفا	02	فقراء	02	نبي	08
الحيّ	01	طيبا	01	قدير	06	نذيراً	01
الخبِيث	01	طيبات	03	قريب	02	ولي	04
خبير	02	عباده	01	قليلًا	08		

جدول إحصائي للصفة المشبهة في سورة البقرة

من السنن اللغوية التي يؤول إليها الخطاب القرآني؛ البناء بالتعويض أي الأخذ بالأصل لتشييد كلمة في موضع كلمة أخرى، لذا تعيّن على الدارس الأسلوبى النظر إلى أصل المشتقات لتشخيص نمطية اشتغال الصناعة اللغوية في توليد الألفاظ وتسويغ المعاني، ولا ريب؛ أن محاولة التفتيش عن أصل هاته المشتقات لهو المفتاح الأساس للفهم اللائق للسلسلة اللسانية، فلا يمكن البتة من أن تقتصر على الأبنية الاشتقاقية فحسب لكشف الدلالة وإنما بالرجوع إلى شحنة العلائق

القائمة بينها وبين أصولها، مع ربطه بمقصدية الخطاب التي تتخطى الوضع الظاهري إلى مُبتغى المعنى، ما يختزل تواشجاً متمتناً بين الطرفين في الدلالة والتركيبية الصرفية معاً.

وتَوَحَّجاً لمعاني الأبنية الصرفية ومساقاتها الجمالية؛ فإننا اعتمدنا على التصنيف الألسني للمسوغات الاشتقاقية قياساً على التّصاميم العربية ومدارةً للموازن الأصيلية، التي اعتمدها أهل الاختصاص، ما يُقحمنا في تقصّي البنية العميقة للأبنية ليس بتخطّي المعنى الوضعي إلى البؤرة الفاعلة وإنّما بالربط الواعي بين المعنى المصوّغ والمعنى المقصود أولاً وبالتنسيق الفنّي بين الأصل المعجمي وتفرّعاته. ومن أوجه توظيف أبنية الصّفة المشبّهة على مستوى سورة البقرة نلّفِي:

* من الأمثال السائرة في محكم تنزيله، قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18)}¹. خصّص هذا المثل للذين اتّبعوا الضلالة وتركوا الهدى. وقد ورد على متن هذا التشبيه البليغ أبنية مشبّهة؛ صُمٌّ؛ (جمع أصمّ وزنه أفعل) بُكْمٌ؛ (جمع أبكم، من بكم ييكم، وزنه أفعل) عُمِيٌّ؛ (من عمى يعمى، وزنه فَعَلٌ) أَي؛ صُمٌّ بكم عميٌّ عن الحقّ لا رجعة لهم للهدى، وقد سيقّت هاته الأبنية لبيان كمال جهلهم وعصيانهم. وورود هذا النوع من الأبنية إثباتٌ لصفات الذين ضلّوا وأضلّوا.

* وفي سياق ذكر قصص بني إسرائيل وتمردهم قال سبحانه: { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالِ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا

¹ - سورة البقرة: الآية [17-18]

ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) }¹ "وهذا سرٌّ عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم عن حالها وصفتها".²

حيث صيغت هاته الأبنية لاستحضار هيئة الموصوف وتشخيص صورتها من ذلك: بَكْرُ؛ (جمعه أبكار، من بكر يبكر، وزنه فَعَلْ) عَوَانُ؛ (جمع عون، وزنه فعال) صَفْرَاءُ؛ (مؤنث أصفر، وزنه فعلاء) ذَلُولُ؛ (من الفعل دَلَّ، يذلّ، وزنه فعول) أَي؛ " لا هرمة ولا صغيرة وإنما بين ذلك شديدة الصّفرة تسرّ الناظرين... وليست مذلّة بالحرّاة ولا معدّة للسّقي في السّانية بل هي مكرّمة حسنة سليمة لا عيب فيها..."³ ففضلاً عن التّناسب الموسيقي التي أحدثه هذا التّنوع الصّيغي بين الوحدات اللّغوية فإنّها تشخص كذلك الصّورة بتفاصيلها الدّقيقة، فقد أجاد هذا المشهد القرآني توظيف الصّيغ في تعداد خصال وسمات الموصوف.

* من مَنَّةِ اللَّهِ أَنْ اجْتَبَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَسَطًا، لِقَوْلِهِ: { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) }⁴ وسطاً صفة مشتقّة (من الفعل وسط، يسط على وزن فعلاً) كبيرة صفة مشبّهة (من كبر يكبر ، وزنه فعيل) رؤوف صفة مشبّهة (من الفعل رَأَفَ يرأف على وزن فعول) استندت الآية على مثل هذه الصّيغ إقراراً وتعظيماً لمكانة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وأمّته فوهبها الحكمة وعلوّ المنزلة، لقوله: "أنا وأمّتي يوم القيامة مشرفين على كرم مشرفين على

¹ - سورة البقرة: الآية [68-71]

² - يُنْظَرُ؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 301

³ - يُنْظَرُ؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 301

⁴ - سورة البقرة: الآية [143]

الخالق، ما من النَّاسِ إِلَّا وَدَّ أَنَّهُ مَنَّا. وما من نبيٍّ كذَّبه قومه إِلَّا ونحن نشهد أَنَّهُ قد بَلَغَ رسالة ربِّه عزَّ وجلَّ".¹ فهذا الخطاب الموجَّه لأُمَّة محمَّد استُسيغ على وجه التَّنَاء والتَّشريف لشأوها ومقاديرها بين الأمم.

والنَّاطِر للصفَّات المشبَّهة في متن الخطاب يُلْفِي أَنَّ التَّوْظِيفَ القرآني قد اعتمد عليها لمبلغيين؛ الدَّلالة على الحقائق وإبراز الصفَّات الحقَّة. وبالتَّمَعْن لأوجه هذا الفنِّ الصَّرفي نستبين؛ أَنَّ إرفاق الموصوف بهيئة تستوصفه لمكمن البلاغة ولكمالٍ للصَّورة في أبهى حُلُلها. ومن ذلك ما التمسناه بين ثنَّيات هذا الأنموذج. وإِنَّا لا ننكر أَنَّ موضعها يثير الالتباس في أحياء كثيرة بحكم أَنَّها تتداخل مع بقية المشتقَّات في الميزان والهيئة لكن من ناحية الدَّلالة كلَّ وحدة تنفرد بخصوصيتها معنًى وإثراءً.

¹ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 455.

03- صيغ المبالغة؛ الصيغة والدلالة: صيغ المبالغة؛ "أسماء تأتي على أوزان محدّدة للدلالة على

التكثير أو المبالغة"¹* وقد وردت 23 صيغة في 75 موضعًا توزّعت هيئتها في سورة البقرة على

النحو التالي:

جدول (03): بناء صيغ المبالغة

صيغة المبالغة	تكرار	صيغة المبالغة	تكرار	صيغة المبالغة	تكرار	صيغة المبالغة	تكرار
أثيم	01	الجحيم	01	رؤوف	02	كثير	06
أنصار	01	حكيم	07	السميع	07	كفار	03
بشيرًا	01	خلاق	02	شهيدًا	01	مسكين	01
بصير	05	خليفة	01	عزيز	05	نذيرًا	01
تواب	05	الرحمن	01	العزیز	01	نصير	02
توابين	01	الرحيم	05	عليم	15		

جدول إحصائي لصيغ المبالغة في سورة البقرة

وإن اختلفت آليات الخطاب القرآني وتباينت أحكامه؛ إلّا أنّها تنهض في مجملها على وظيفة تجتمع فيها جُلّ المسالك اللغوية؛ تبليغًا وتأثيرًا. الأمر الذي أحال أبنيته إلى قياس ما يليق بخصوصيته من الناحية البنائية وما يسمو به من الناحية الفكرية، فعلى الصّعيد الأسلوبى - في تأسيس المنظورات الرؤيويّة و تشييد الممرّات الجمالية - فإننا نواجه زخمًا من المُقتضيات الألسنية

¹ - أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة، 2008م، الجزء الثاني،

ص: 1335

*أوزانها: فعّال، مفعال، فاعول، فاعيل، فعل.

تسهم - أيما إسهام- في التكوين المثالي للخطاب، ما يسوقنا إلى استقراء بلاغة الانتقاء اللغوي للفظ وهيئته ومحمولاته. مُدرجاً ضمن ذلك مسألة الخلق اللغوي والإثراء الدلالي. وهو ما تسعى إليه هاته المقاربة في ظلّ معالم التعدّد الوظيفي للمشتقات. ومن صور الاستناد لصيغ المبالغة في متن سورة البقرة نستشف ما يلي:

*قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)}.¹ وعدّ شديد لمن كتم ما جاءت به الرّسل من الدّلالات البيّنة على المقاصد الصّحيحة والهدى النّافع للقلوب، من بعد ما بيّنه الله، ومن ثمّ استثنى من هؤلاء من تاب إليه،² فقال: {وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} التّعبير بصيغة (فعال وفعليل) لتحقيق المبالغة في القبول والرّحمة منه سبحانه للذين اجترموا وانصرفوا عن الحقّ فهو المتكفّر برّدهم إليه والعافي عنهم بعد أن أصلحوا أنفسهم وتابوا.

*قال تعالى: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29) }.³ احتجّ سبحانه بوجوده وقدرته وعظمته في تصريف الخلق وإنشاء الكون وما فيه.⁴ انتظم نسق هاته الصيغة "عَلِيم" (من الفعل علم على وزن فعيل) تحقيقاً للمبالغة في درايته بما خلق.

¹ - سورة البقرة: الآية [159-160]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 472-473

³ - سورة البقرة: الآية [28-29]

⁴ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 212-213

*قال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119)}.¹ أي؛ " أننا أرسلناك لأن تبشّر وتتنذر لا لتجبر على الإيمان، وهذا ضرب من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية عنه لأنه كان يغتم ويضيق صدره، لإصرارهم وتصميمهم على الكفر".² انتظمت الآية من صيغ المبالغة؛ بشيرًا ونذيرًا على وزن (فعل) تحقيقًا للمبالغة في الثواب والعقاب أي؛ بشيرًا بالثواب ونذيرًا بالعقاب.

وبالنظر إلى بلاغة هذا النوع من المشتقات فإن دلالتها تكمن في إثراء المعنى، وتقوية التعبير القرآني بوصف دقيق يستدعي المبالغة وتحقيقها في التّخيم، التّهيل، التّعظيم...على حسب المقام ومقصدية النصّ.

وما نلاحظه عمومًا؛ أنّ الصياغة البنائية للخطاب القرآني تمثل ملمحًا أسلوبيًا من شأنه الحمل على المعنى بين طبقاته، والانتقاء القرآني لصيغة دون أخرى لا يتأتى إلا لخصوصية بلاغية اقتضت ذلك. ومن يتأمل بنيته النصية والأدائية فإنه لا يستبعد تكفله بضبط القياس وإحكام وضعيته بنهج في غاية الاستواء تتساق في الألفاظ والمعاني، أمّا فاعليتها فإنها توزن بمقدار ما تُضفيه للخطاب وبمقدار توسيع الأفق وتقريب المقصد لدى المتلقي.

¹ - سورة البقرة: الآية [119]

² - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 316.

04- اسم المفعول؛ الدلالة والصيغة: ما دلّ على الحدث، والحدوث وذات المفعول كمأسور، وهو لا يفترق عن اسم الفاعل إلا في الدلالة على الموصوف فإنّه في اسم الفاعل يدلّ على ذات الفاعل كقائم، وفي اسم المفعول يدلّ على ذات المفعول كمنصور¹. وقد ورد 15 اسمًا على مستوى 30 موضعًا.

جدول (04): بناء اسم المفعول

اسم المفعول	تكرار	اسم المفعول	تكرار	اسم المفعول	تكرار	اسم المفعول	تكرار
أسارى	01	مرسلين	01	المطلقات	02	مقبوضة	01
رسول	01	المسخر	01	معروف	14	مولود	02
القتلى	01	مسلمة	01	معروفًا	01	نصيب	01
محرم	01	مسمى	01	معلومات	01		

جدول إحصائي لاسم المفعول في سورة البقرة

ما نأخذه حُسْبَانًا - قبل وبعد- مساءلة هذا الخطاب؛ أنّ جمالية الأساليب القرآنية تبقى على سجيّتها في التّناسل والإثراء، وهذا أمرٌ أزليّ لا قطيعة له، بيد أنّ هذا المطمح الذي تدعّن إليه يخضع لعوامل عدّة، لذا تختلف مقتضياته وأوجهه - حسب المعين الذي تنهل منه- فمنه ما يُؤسّس على قاعدة نحوية ومنه ما يرتكز على مُتَكَيّ بلاغي، ومنه ما يركن إلى ركنٍ موسيقي. وبالتالي فسلطته الأسلوبية تُستمدّ طاقتها من تلكم التّواميس التي انبثقت منها.

¹ - فاضل صالح السامرائي: معاني الأبنية في العربية، دار عمار، الطبعة الثانية، 2007م، الأردن، ص: 52

وبالإحالة إلى أبنيته الصّرفية فإننا نومي؛ أنّها لم تبرمج لذاتها غائية قياس الظاهرة اللّغوية بقدر امتثالها للتداعيات الأسلوبية واستجابتها للمقتضيات اللّغوية، ناهيك عن مُدارة ما يتحكم في نزوعها التفاعلي بين إمرة السّياق ومبلغ الخطاب ومركزية التلقّي، والقول بأنّ الإضافة في اللفظ إضافة للمعنى، يوجّهنا إلى معاينة دلائل المشتقات وترصد أنماط صيغها من ذلك دلالة اسم المفعول على متن سورة البقرة:

*وعن آداب الصدّقة، قال سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (262) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} (263).¹ ردُّ جميلٍ وعفوٌ عن السائل خيرٌ من إنفاقٍ يعقبُه منّا وأذى".² وورود اسم المفعول؛ (معروف على وزن مفعول) اختصارًا لآداب الصدّقة؛ حيث ترسم هاته الآية أخلاقيات الصدّقة وآدابها التي تحيلها إلى مُبادرةٍ بصبغة مهذّبة من مُقدّمها، ونفعًا مريحًا لمُمسِكِها، صَوْنًا لِلْكَرَامَةِ الْإِنْسَانِيَةِ وتعزيرًا لآخذها، فلا يعتلي الغنيّ برزقه ولا يُهان الضّعيف بنقصه، ما يُسهم من خلالها في تحقيق التكافل والتّراحم بين أطراف المجتمع.

وتكمن الدّلالة الأسلوبية لهذا البناء الصّرفي في التّأكيد على قيمة البذل والعطاء، أمّا وظيفته فتتجلّى في تهذيب النفوس المانحة وترضية القلوب الضّعيفة لتقوية أواصر المجتمع بين المنفق والآخذ برباط المودّة والرّحمة.

*ومن الصّور الحسيّة التي تتحت عجائب هذا الكون وتُعظّم قدرة الخالق في الإبداع، قوله سبحانه: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ

¹ - سورة البقرة: الآية [262-263]

² - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 496

النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164).¹ "دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة".² فتعاقب الشمس والقمر، وتوالي الإشراق والظلام، وإحياء الأرض وعلو السماء لآية لأولي العقل الراجح بقدرة الله على تسيير هذا الكون، وقوله: اِئْمُسَخَّرِ؛ (اسم مفعول من الفعل الثلاثي سَخَّرَ على وزن فعول)، أي "سَخَّرَ للرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله يُمطر حيث يشاء".³ ما يُحيل إلى الحكمة في التسيير والخبرة في التصميم، والدقة في الإبداع، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وهذه دعوة إلى تشغيل العقل بالتدبر في خلق الله، لتجديد الإيمان وثبتت اليقين بعظمته، وتكمن القيمة الأسلوبية للتوظيف القرآني لهاته الأبنية إبرازاً للاقتدار الإلهي في الخلق والتسيير والتدبير.

*وتأكيداً لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)}.⁴ "يعني القصص التي اقتصها يتلوها باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب، وإنَّك يا محمد لمن المرسلين وهذا تأكيد وتوطئة للقسم".⁵ وانتقائه لصيغة المرسلين (على وزن اسم المفعول من الرباعي أرسل) ما يُحيل أن الله اصطفى محمداً نبياً ورسولاً يتلو آياته حاملاً معها الحق وجاعلاً إياها دستوراً للحياة ومنهاجاً للعباد. وصيغت هاته الأبنية على وجه الإنصاف

¹ - سورة البقرة: الآية [164]

² - الرَّمْخَشَرِي: الكشَّاف، الجزء الأول، ص: 353

³ - المرجع نفسه، ص: 353

⁴ - سورة البقرة: الآية [252]

⁵ - الرَّمْخَشَرِي: الكشَّاف، الجزء الأول، ص: 477.

والتَّعْظِيمَ لمنزلة محمد صلى الله عليه وسلّم عند ربّ العالمين ودوره في إصلاح الأُمَّة وإرشاد أهلها.

ومنه؛ فالاعتناء القرآني بتوظيف الأبنية الدّالة على المفعول يقتضي تعيين الموصوف والإحالة إليه بالصيغ التي تثبت صفته، وبالنّظر إلى طبيعة تركيبته اللّسانية والتي من شأنها تبني وظائف إبلاغية من خلال العبور إلى أفق المتلقّي بإيقاد سيكولوجيته وتشغيل ذهنيته، فإنّها تبتغي بذلك قيمًا انفعالية وتأمّلية للارتقاء إلى مستوى التّكامل الفنّي الإبلاغي.

05- اسم التّفضيل؛ الصّيغة والدّلالة. "اسم يدل على أنّ شيئين اشتركا في أمر واحد إلّا أن أحدهما زاد على الآخر في هذا الأمر ويكون على وزن أفعل".¹ وقد تم إحصاء 17 اسما في 46 موضعا، موضحة في الجدول الآتي:

جدول (05): بناء اسم التّفضيل

اسم التّفضيل	تكرار	اسم التّفضيل	تكرار	اسم التّفضيل	تكرار	اسم التّفضيل	تكرار
أحرص	01	أشدّ	05	أقوم	01	الوسطى	01
أحق	02	أطهر	01	أكبر	03	أحسن	01
خير	11	أظلم	02	أكثر	02		
أدنى	02	أعلم	01	ألدّ	01		
دنيا	10	أقرب	01	الوثقى	01		

جدول إحصائي لاسم التّفضيل في سورة البقرة

¹ - محي الدّين عبد الحميد: شرح ابن عقيل، الجزء الثّالث، ص: 146.

بالنظر إلى الصنعة اللغوية للخطاب القرآني فإننا نحيل أنه؛ نصّ مُحَكَّم التركيب والقياس، وعلّة هذه المقاربة تنشأ من زاوية النظام الصّرفي لتلك اللغة بصرف النظر عن شبكة العلاقات التي تُكوّنها فإنّها تستهدف الدّلالة البنائية في حدّ ذاتها، ومبدأ هذه الدّلالة؛ مبدأ لساني ناظم بين الخطاب وصيغته، ففيها يُقرن الدّال بالمدلول والشّكل بالبنية، فنقتضي طوعاً معايينة البناء ومحمولاته لبلوغ المقصد.

وبالإحالة إلى المستوى العلائقي للأنظمة الصّرفية في الخطاب القرآني فإنّ كينونتها تُنظمه جهاز من الروابط البنائية ما يحتمل عدّة نُظم دالّة تعقّبه، تساير السّياق من جهة وتتجاذب مع النّيمة المحورية التي ينهض عليها من جهة أخرى. وبهذا الاعتبار تَسَى لنا تشكيل تصوّر موجز حول وظيفة المشتقات وتحديد دلالتها، من ذلك اسم التّفصيل على النحو التّالي:

* في سياق التّعبير التّشريعي وتعظيم القرض الحسن والتّجارة الأمانة من المكر والرياء، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282) }¹. "هذا إرشاد من الله

¹ - سورة البقرة: الآية [282]

تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها".¹

وورود أسماء التفضيل على نحو : (أَقْسَطُ على وزن أفعِل/ أَقْوَمُ على وزن أفعِل/ أدنى على وزن أفعِل) أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو أقسط وأعدل عند الله، وأقوم للشهادة أي أثبت للشاهد إذا وضعه خطه ثم رآه تذكر به الشهادة لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه غالباً، وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة.² ومنه؛ فوظيفة اسم التفضيل لا تكمن في ترجيح شيء على آخر وإنما تأكيد قيمة الشيء والمبالغة في وصفه، فالأقسط يعني الأعدل، والأقوم يعني الأثبت والأدنى يعني الأقرب.

والإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإحياء والتوجيه، بل هو أوضح وأقوى لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد.³ فالصياغة لغة القانون على متن الخطاب القرآني لم تنتهك خصوصيته الجمالية، ولم تكسر ترابطه النصي، بل أضفت عليه مسحة فنية لطيفة ربطت بين الجانب التشريعي والجانب النفسي والجانب الديني في صورة متنسقة نظماً وبلغاً مقصداً.

*وفي سياق الحديث عن سمات المشركين وتعتتهم، قال سبحانه: { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ

عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ

¹ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 722 - 728

² - المصدر نفسه، الجزء الأول، ص: 725 - 728

³ - ينظر؛ سيد قطب: في ظلال القرآن، ص: 334.

أَيَّدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهٗمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ
لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْخِزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) ¹. إن
كانت الجنة خالصة لكم ليس لسواكم حق فيها فتمتوا الموت رغبةً فيها، لكن لن يفعلوا فهم أحرص
على الحياة الدنيا لأنهم أدرى بما ينتظرهم في الآخرة". ² وقد تضمن هذا التحدّي أسلوب التفضيل
على نحو؛ (أحرص على قياس أفع) ما يدلّ على التفضيل والزيادة، فكلّ منهما أحرص على
الدنيا لكن المشركين أشدّ حرصاً عليها وأشدّهما مَقْتاً للموت.

* وعن صبغة الله التي شاء أن تكون أجلّ رسالاته، قال فيها سبحانه وتعالى: { صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) } ³. على سبيل الترغيب بتقدير القول؛ " أي إلزموا
صبغة الله وقلوا نحن له عابدون". ⁴ وقد سبق اسم التفضيل على وجه الأفضلية؛ (أحسن على وزن
أفضل) بمعنى أجمل وأطهر وأفضل. والوقوف عند معاني هاته الآية يلخص اقتدارها الفني في
تلخيص منزلة الرسالة السماوية وإيهابها هذا القدر من التشريف والتعظيم.

تُضفي المعايينة الضمنية لهذا النموذج إلى التصريح بأنّ التوظيف القرآني للأنظمة الصرفية
يُسعفه لتفعيل الصلة بين الصيغة والسياق على نحوٍ يُبرّر وجوده الأسلوبي، فمكمن الدلالة إذن؛ في
الرباط البنائي بينهما، وبالنظر إلى طبيعة التوظيف التقني لأسلوب التفضيل في الخطاب القرآني
نستبين أنّه يحمل عدّة دلائل منها؛ ما يحيل إلى التفضيل التعظيم، التشريف...

¹ - سورة البقرة: الآية [94-96]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 323-324

³ - سورة البقرة: الآية [138]

⁴ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 168

رابعًا: هيئة الجموع؛ ونمط ورودها

إبانة:

التشكيل الصّوعي القرآني؛ أين تتوارى حنكته الفنيّة في النّظم ودقّته الألسنيّة في التّصريف وجودته الأسلوبية في الصّياغة، وحيثما تتأرّسه - فنّيًا ونظاميًا - هندسة تقنيّة في غاية الإتقان والاتّزان من شأنها؛ تقويم البناء وتشبيد الموازين على النّحو الذي يحفظ فصائلها من الانسلاخ عن الأصل ويحوط عصمتها من التّراخي عن الجذر. إيمانًا منه بأنّ قيمة النّسق ليست في وحدته وإنّما في تواشجه العلائقي مع بقية الأجزاء البنائية، لأنّها، وبطبيعتها تضطلع إلى الاستيفاء الجمالي الأمثل.

فلا مناص إذًا؛ إلّا الاعتراف بحُطوة اللّسان العربيّ بذلك المؤهل الأسلوبي الذي يمتلكه، كونه مقتضى لغوي مكّنه من إقامة الحدود وخلق الفوارق؛ بمُقايضة التّصاميم وتنشئة الأبنية، ممثلة إلى سياقها طبعًا بعد إنزالها منزلة الاستعمال والتّركيب على مستوى الخطاب.

فمنطلق المسألة إذن؛ يكمن في التّقرير بأنّ اقتران دوال الخطاب بمُدلولاته لِنسقًا معرفيًا يَصُول في فضاءٍ إيحائي متناهٍ بحاجةٍ إلى مِقياسٍ صرفيّ يضبطه. بل يتوجّب علينا القول أنّ النّظام الألسني عمومًا ينزِعُ صوبَ التّقيدِ باستراتيجية ثابتة؛ تضع لكلّ مُفردةٍ لغويةٍ صيغةٍ صرفيّةٍ وتَهَبُ لكلّ صيغةٍ دلالةً أسلوبيةً. وبالتالي؛ الطّاقة الاستيعابية لتلك الشّحن الدّلالية الهائلة تؤكّد مدى إلزامية الاحتكام إلى النّظام الصّرفي.

وإنّ تمثّل لنا ركن هيئة الجموع كمنفذ بحثيّ لمُداسة البناء القرآني فإنّه لا يتأتّى لنا استيعاب مقاصده إلّا من خلال العبور إلى مكانه بالتّشخيص والتّوصيف على النّحو التّالي:

01_ الجمع المذكر السالم؛ الصيغة والدلالة: الجمع المذكر السالم هو: " ما دلّ على أكثر من

اثنين بزيادة واو ونون مفتوحة في آخره في حالة الرفع، وياء ونون في حالتَي النصب والجر شرط

ألا يلحق مفردَه تغيير في بنائه".¹ وقد ورد في سورة البقرة 48 اسمًا في 94 موضعًا موضحة في

الجدول التالي:

جدول (01): بناء الجمع المذكر السالم

الجمع	تكرار	الجمع	تكرار	الجمع	تكرار	الجمع	تكرار
الأقربين	02	صابرين	04	مبشرين	01	مفسدون	01
أميون	01	صابئين	01	متطهرين	01	مفلحون	01
توابين	01	الصالحين	01	المتقون	01	ملاقوا	03
جاهلين	01	طائفين	01	المتقين	03	الممترين	01
حاضري	01	ظالمون	04	محسنين	03	منذرين	01
خارجين	01	عابدون	01	مخلصون	01	مهتدون	02
خاسرون	02	عاكفون	01	مرسلين	01	الموفون	01
خاسئين	01	العالمين	04	مستهزئون	01	مؤمنون	01
خاشعين	01	فاسقون	01	مسلمون	03	مؤمنين	07
خالدون	07	قانتون	01	مشركين	03	ناظرين	01
خائفين	01	كافرون	01	مصلحون	01	النبيون	01
راكعين	01	كافرين	11	معرضون	01	النبيين	03

جدول إحصائي لنسبة ورود جمع المذكر السالم في سورة البقرة

¹ عبد الله بن عقيل بهاء الدين: شرح ابن عقيل، دار مصر للطباعة، الطبعة العشرون، مصر، 1980م، الجزء

النسق اللفظي؛ صوغ أجوف يبقى مُفْتَقَرًا إلى الدلالة حتّى تُقَدَّفَ في رَوْحِهِ المعاني، فيضخّ نبض أوردته، وتوقّد صُور لوحته، وتُفْتَعَلُ مقاصد أسيقته، بنهج تكويني في غاية الدقّة والتّوليف الجمالي. ما يتعيّن عليه ضرورةً مراعاة المستوى المظهري الأدائي والمستوى الدلالي البلاغي مُتَسَلِّحًا بتقنيات مُتَّاخِذَة ومُنْصَفَة تُخْضِعُ كلَّ ركنٍ لِتَأْديَةِ وظائفه فيكون مُعيّنًا لِلاَخر وخادمًا له؛ فلا الألفاظ قاصرة على اكتساء المعاني ولا المعاني بخيلة على تركية الألفاظ، حينئذٍ يُصْبِحُ كلُّ طرف رهين شريكه بناءً وإبلاغًا، وهذا المبتغى - إن صحّت الرّؤية - لعمدُ الصّوغ القرآني وأساسه. ولئن كانت الأبنية الاشتقاقية أبنية بديلة، فإنّ تيمة الجنس تحمل بنيتين مضمرة وبائنة من خلال الحمل على دلائل المفرد، المثني والجمع. وبالوقوف على هيئة صيغ جموع المذكر السّالم في متن السّورة فإنّنا نلّفي ورودها قد تبنى وضعية الفاعل، المفعول، الصّفة المشبّهة... ما تدلي عمومًا على إرادة الحدث. ومن مظاهر الاسترسال الدلالي القائم بين مستوياتها اللّغوية نستشفّ ما يلي:

* تذكيرًا بمنّة الله على بني إسرائيل؛ قال تعالى فيهم: { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) }¹. " فيتوفيق من الله وفضله ودعوة محمّد صلى الله عليه وسلم إلى الحقّ لكنتم من الخاسرين".² تضمّنت هاتيه الآية صيغة الجموع؛ (الخاسرين، جمع مذكر السالم). للتعبير عن مدى رحمة الله بعباده وعدم التّعجيل بالعذاب، مستهلاً ذلك بلو الامتناعية وحرف النّفي لا، فلولا فضل الله وإبعادكم عن المعاصي لكنتم من الضّالّين.

والمقام هنا تصوير موجز عن عظمة ربّ العالمين وعن رأفته بعباده، وتأتي صيغة "فاعلين" لتصوير جرم الخطيئة التي كادوا يقترفونها وهول المصير الذي أوشكوا بلوغه. حاملةً كذلك معنى

¹ - سورة البقرة: الآية [64]

² - أبو السّعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 109

آخر وهو دور المرسلين في الوعظ والتوجيه ومدى حرصهم على تحصين الخلائق من الوقوع في الكبائر.

* ومن صور إعلاء الحق، قوله سبحانه: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)}¹. "وهذا إشعارٌ باستقباح اللبس لما فيه من كتمان للحق"². فلا تتجردوا من كلمة الحق في سبيل نُكرانه، وداوموا على الصلاة والزكاة واركعوا مع الرَّاكعين. انفردت الآية بتوظيف اسم الجموع؛ (الرَّاكعين، جمع مذكر سالم) لنُدلي على فضل صلاة الجماعة وقيمتها مقارنة مع الصلاة الفردية.

* ومن باب تعظيم الصلاة الوسطى، قال سبحانه: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238)}³. أي وقوموا لله ذاكرين خاشعين، بصيغة الجمع المذكر السالم؛ (قَانِتِينَ) ما يلخص آداب القنوت من الذكر والخشوع. ومن ثمّ فهذه الصّيغ من الناحية اللغوية سواء صيغت بغرض الحال أو التّعت فإنّها تدلّ على غرض معين، أمّا على المستوى الفنّي والجمالي فإنّه لكلّ صيغة خصوصية ودلالة تقتضي مراجعة سياقها الذي وردت فيه.

وبالتّالي؛ فاللغة العربية محظوظة جدًا بوجود الصّيغ الصّرفية؛ لأنّ هذه الصّيغ تصلح لأن تُستخدم أداة من أدوات الكشف عن الحدود بين الكلمات في السّياق، وتشكو معظم لغات العالم من عدم وجود مثل هذا الأساس الذي يُمكن به أن تُحدّد الكلمات. والباحثون في لغاتٍ غير لغاتهم يعانون التّعب والمشقة اللّذين يجدونهما في سبيل هذا التّحديد، فيعمدون إلى كلّ الوسائل الممكنة

¹ - سورة البقرة: الآية [42-43]

² - أبو السّعود: إرشاد العقل السّليم، الجزء الأول، ص: 97

³ - سورة البقرة: الآية [238]

يستخدمونها في هذا الغرض ويظهر القسر والتعسف في استخدامها واضحاً، فأما اتّخاذ الصّيغة الصّرفية أداة من أدوات خلق الحدود بين الكلمات في السّياق، فميزة للغة العربية تُحسب من كُبريات ميزاتها التي تُفاخر بها.¹ وهذا الغرض الأسلوبي فيما نرى لاستعمال الجمع المذكّر السّالم؛ إنّما هو مناسبة سياق الآية يحمل بطبيعته عدة معاني، أمّا بالنّظر إلى التّماذج المقدّمة فإنّها تندرج في حقل التّكوين الأخلاقي؛ بتوجيه الأنفس وتهذيبها.

02_ جمع المؤنث السالم؛ الصّيغة والدلالة.

جمع المؤنث السّالم: هو كلّ ما دلّ على أكثر من اثنتين بزيادة ألف وتاء لمفرده الصّحيح في آخره، ويرفع بالضمّة وينصب ويُجرّ بالكسرة،² وقد ورد 21 اسماً في 54 موضعاً موضعاً في الجدول الآتي:

جدول (01): بناء الجمع المؤنث السالم

الجمع	تكرار	الجمع	تكرار	الجمع	تكرار	الجمع	تكرار
بيّنات	09	خيرات	01	صلوات	02	معدّوات	02
ثمرات	04	درجات	01	طيّبات	03	معلومات	01
جنّات	01	سموات	09	ظلمات	04	والدات	01
حرّمات	01	سيّئات	01	كلمات	02		
حسرات	01	صالحات	03	مشركات	01		

¹ - ينظر؛ عبد الحميد الهنداوي: الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم، ص: 09

² - أحمد بن الحسين بن الخباز: توجيه اللّمع، تح؛ فايز زكي دياب، دار السّلام، الطبعة الثانية، مصر، 2007م،

خطوات	02	صدقات	03	مطلقات	02		
-------	----	-------	----	--------	----	--	--

جدول إحصائي لنسبة ورود جمع المؤنث السالم في سورة البقرة

فالميزة الحقّة التي تذكر للغة العربية "في مقابل غيرها من اللّغات ليست أفضليتها في اعتمادها على القوالب للتعبير عن المعاني الوظيفية في مقابل اعتماد غيرها على العناصر الصّرفية غير القالبية، للتعبير عن تلك المعاني، وإنّما الفضل الحقّ لتلك الظّاهرة الصّرفية يكمن في اتّخاذ العربية للقوالب والأبنية وسيلة حاسمة للحدود بين الكلمات في السّياق، وهذه الحقيقة قد فطن إليها علماؤنا القدامى فبيّنوا أنّ كلّ لفظ له معنى لغوي يفهم من مادة تركيبه، ومعنى صيغي وهو ما يفهم من هيئته؛ أي حركاته وسكناته وترتيب حروفه...¹ والبحث عن صيغة الجمع المؤنث السالم لإثبات عن أهميتها من ناحية تحقيق دورها اللّغوي والفّني، من أوجه ذلك نلّفني:

*من باب تشريع ما أحله الله من الطيبات، قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } (172).² يقول تعالى أمرًا عباده بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى وأن يشكروه على ذلك، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدّعاء والعبادة، كما أنّ الأكل من الحرام يمنع القبول، في قوله صلى الله عليه وسلّم: إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.³ وقد وظّفت صيغة الجمع المؤنث السالم (طَيِّبَاتٍ) للإحالة على رخصة التّمتع بمستلذات الدّنيا، ووجوب شكر الله على نعيمه.

¹ - عبد الحميد الهنداوي: الإعجاز الصّرفي في الخطاب القرآني، ص: 10

² - سورة البقرة: الآية [172]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 481

* وتعظيمًا لذكر الله قال سبحانه: { وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِنَّهُ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِنَّهُ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } (203) ¹. " الأيام المعدودات أيام التشريق وذكر الله فيها التكبير في إدبار الصلوات وعند الجمار، فمن تعجل أو تأخر فلا حرج عليه".² وقد تمّ توظيف صيغة الجمع المؤنث السالم؛ (مَعْدُودَاتٍ) تعظيمًا لذكر الله وإجلاله.

* وتفخيمًا لمحارم الله، قال سبحانه: { وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (148).³ " لكل أمة قبلة هو مولّوها، فاستبقوا الفاضلات من الجهات، وهي الجهات، وإن اختلفت أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا يجمعكم ويجعل صلواتكم كأنّها إلى جهة واحدة وكأنكم تصلّون حاضري المسجد الحرام".⁴ ما تحيله صيغة الجمع المؤنث السالم؛ { الْخَيْرَاتِ } على قدرة الله وسلطته على عباده حتّى وإن تفرّقت بهم السبل فسابقوا إلى ما يرضي الله تعالى.

وتأكيدًا لما أستهل به القول؛ حيال فضل الأبنية في تسييج الحدود لكلّ وحدة لغوية، فإنّها تتوسّم المقادير مراعاة لخصوصية كلّ مفردة. وبالنظر إلى الدلالة الأسلوبية لكلّ حالة منها فإنّها تختلف من مقام إلى آخر ومن سياق لآخر ، ولا شكّ أنّ الناظر الأسلوبي للفظ القرآني سيُلقي ضروبًا فنيّة تتباين مع كلّ ظاهرة صرفية تبعًا للدلالة وما يرفقها سياقياً وما يُجاورها تركيبياً، يستند بها لتأسيس أحكامه وذلك أنّ الانتقاء القرآني لتلك الصيغ يستهدف إنتاج المعنى وإثراء المبنى ممّا

¹ - سورة البقرة: الآية، [203]

² - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 415

³ - سورة البقرة: الآية، [148]

⁴ - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 346

يُخْلَقُ نوعًا من التَّنَوُّع والتَّعَدُّد الدَّلالي، وبالتالي فالدَّارس الأسلوبِي يقف عند حدود دلالة الأبنية وما تُضْفِيهِ من فَنَيَات على مستوى الخطاب القرآني.

استدلال ختامي:

التَّوظِيف القرآني لصيغة الكلمة؛ يُحْمَلُنا على مساءلة القِيَم الفنيَّة التي يستحوذ عليها النِّظام الصَّرْفِي بِمُلامسة التَّنَاسِب الأسلوبِي بين المُفْرَدَة وهيئَتِها وتوسُّم طبيعَة العلاقة بين الصِّيْغَة ومعناها الوِظَافِي، وهو ما يسوِّقنا إلى إلقاء حُكْم المُفاضلة بين الصِّيغ وكشف الباعث الدَّلالي تبعًا للرباط النُّظْمِي بين المعنى ومبناه. وتبعًا لذلك فإنَّا نستخلص:

_ أن الصِّيغ في اللُّغة العربيَّة تمتاز بظاهرة الاشتراك والتَّعَدُّد... والاختيار سيُتَمَّ بين تلك البدائل أو الأشباه والنُّظائر المتعدِّدة والتي تشترك في ما بينها في التَّعبير عن معنى واحد بطريقة مقاربة.¹ وبالنَّظر إلى بنية الخطاب القرآني نستشفَّ إحاطة المعنى بحسن تَخْيِير الصِّيْغَة وموافقَتها لمقتضى الخطاب.

_ هذا الاجتهاد البحثي الذي يطرح مسألة التوظيف القرآني للصِّيغ الصَّرْفِيَّة يقف عند حدود الدَّور الذي يؤهِّلها لتنشئة المباني وصياغة المعاني الأسلوبية وقد استلزم ذلك مسائلة الكلمة في حدِّ ذاتها من حيث طبيعتها النَّمْطِيَّة وعلاقتها البنوية وما يحتويها من حيث تعدُّد المعنى الوظيفي للصيغة الواحدة وتعدُّد الصِّيْغَة للمعنى الواحد.

¹ - عبد الحميد الهنداوي: الإعجاز الصَّرْفِي، ص: 68

_ وما ينبغي الإشارة إليه أنّ الوحدات الفعلية باختلاف أنماطها ترتبط بجمالية الصّورة وبلاغتها وبفاعليّة الأنساق ومُثيراتها، وكما أومأنا سالفًا أنّ هذا الصّوغ الأسلوبي يتطلّب الفهم الأمثل لنُظمه، فمقدار استتطاق جماليّاته وتحديد مقاصده بمقدار درجة التّلقّي والتّأويل لمضامينه.

ومُلخَصّ هذه المقاربة من الوجهة الصّرفيّة؛ يُحيل إلى أنّ الإمكانات الأسلوبية لصيغة الكلمة تتعدّى أي نظام يسعى إلى حصر دلالتها في معنى واحد، وهذا ما يُلقى بنا أمام زخم أسلوبي ماله من نهاية، واستعمال صيغة دون أخرى يحتكم إلى سياق ورودها، وعدم احترام ذلك يُسقط معناها ويفقد خصوصيتها وهذا يتنافى وإعجازية اللّغة القرآنية.

الفصل الثالث:

التّعاُضد القرآني للتركيب الالّسني

" وما اللّغة إلّا دارًا محكّمة البناء."

الفراهي.

أولًا: النّسق اللّغوي القرآني؛ صوغٌ مستجدّ للنّظم الأسلوبّي

ثانيًا: التّركيب القرآني للوحدات اللّسانية:

ثالثًا: مُقتضى العدول القرآني؛ بين حمل المعنى وكسر الأفق.

الحدّ المنهجي وأفق التساؤل:

التركيبية الألسنيّة للخطاب القرآني؛ تستمدّ فاعليتها القصوى من المعاوضة الأسلوبية بين الوحدات اللغوية والعلاقة التكوينية بين جزئياتها المتأخذة، ما يُحيل أنّ الخطاب القرآني متوالية من أنساقٍ بنائية دالةٌ مُنتقاةٌ بِدِقّةٍ وعناية. فاشتغاله الوظائف يتعدّى السبكة اللفظية إلى توحي النظم الدلالي الذي يحتويه - فلا يَهْتِكُ النظم كسأه، ولا يتجرّد المعنى من رَدَائِهِ، ولا يبتتر المقصد صوغه- فاتّحاد الفكرة مع المبنى ضمن السلسلة الأسلوبية لهو عماد الأمر وقوّته. وهو المجزى الطّبيعي الذي تتساقُ إليه أيّ لغةٍ ليس بِمحض الاختيار وإنّما بِمَا يَنْعَيّنُ عليها أن تقومَ به وبما تُلميه عليه سلطة الخطاب- لِتَحْمِي خُصُوصِيَّتِهَا من الانصهار والتشظي، وهنا تحديدًا تثبّت اللغة شرعيّتها الدائمة، وتُحقّق ميثاق انتمائها مع الصّرح اللغوي الكفء بالتّام والاثراء والتّوصيل.

فمبلغه إذا؛ تكوين آلياتٍ تتبنّى مُحنّواه الضمّني، بخلق استراتيجيات تتكفل بتبليغ رسائله بأسلوبٍ تأثيريّ إقناعيّ، مع إرفاقها بمؤشّراتٍ أسلوبية تفتح بها مَنَافِذَ التّلقّي وتوسّع درجات القَبُول لَدَى السّامع، وإن كانت دواعي اللغة - كما هو مُتعارف عليه- تتلخّص في الإفصاح عن مضامينه وإبرازها، فإنّ وظيفة الدّارس الأسلوبية تتلخّص في المساءلة عن هذا النّظام التركيبي وكشف أماراته الدلالية. وتوافقًا مع هذا التّصور نطرح الإشكال التّالي: ما مدى فاعلية النّظام التركيبي لإثراء الأنساق البنائية للخطاب؟

وقبل المُباشرة في توصيف معمارية الخطاب القرآني فإنّا نستبقُ القول؛ أنّ هذا النصّ حينما يَعمد إلى بَنِينة هيكله اللغوي فإنّه يَرْكُنُ إلى حياكة جملة من الوحدات الجُمليّة وربط حدودها بعلاقات تكوينيّة تُوصِد بَعْضَهَا بِاسْتِحْكام، فلا ترى إلّا صورةً واحدةً مُحكّمة النّظم والصّياعة. فما نُؤكّده؛ أنّ مبناه التركيبي ليس مجرد رَصْفٍ للألفاظ كَيْفَمَا اتّفَق، بل إنّ مجموع الألفاظ في تَرْكِيبِ

معين تتعاضد فيما بينها وفق علاقات نحوية وارتباطات دلالية. وتفاعلات سياقية هي التي ستمنح الفكرة معناها والكلام قيمته الإبداعية والفنية.¹ ليصبح التكامل الجمالي على مستوى الخطاب القرآني سمة تتجاوز النسق الأحادي، كونه نظاماً فنياً متكامل الأنساق والتراكيب يحوي ثراءً أسلوبياً لا منتهى لدلائله.

ولعل ما ساق بنا إلى هذا الحيز التصوري هو امتثالنا لمعالم التفكير البلاغي لدى عبد القاهر الجرجاني في تحسسه لنواميس الظاهرة الأسلوبية وأبعادها البلاغية وفي تخطيه لمزالق إعاقة المكاشفة البنائية للخطاب إلى سبل اشتراط اللفظ والمعنى معاً بدون تحيز لأيٍ منهما، كنمط ثابت لا مغايرة فيه. وإن كانت البلاغة "وضع للكلام في موضعه من طول وإيجاز وتأدية للمعنى أداءً واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثرها مع ملاءمتها للمقام الذي تُقال فيه"،² فإنّ النظم في مجمله أن تضع الكلام في الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها.³ ومُرادُ هذا القول؛ أنّ النظم ما هو إلاّ توحي معاني النحو في معاني الكلم.⁴ فلا تفاضل بين الألفاظ والمعاني حتى تأتلف في الوضع الذي تقتضيه نحويته وتستدعيه أسيقته. فما يهبُ الديمومة للنسق اللغوي ضمن تشكيله النصّي هو وضعيته في المنزلة

¹ - التركيب القرآني؛ تشكلاته البنائية وإحياءاته النفسية: بلقنشي علي، مجلة المعيار، الجزائر، 2021م، العدد 55،

الجزء الخامس والعشرين، ص: 74. نقلاً عن؛ النصّ الأدبي في اللسانيات البنوية : يوسف حامد جابر، مجلة

علامات، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، مج 07، الجزء التاسع والعشرين، ص: 29.

² - فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، الطبعة الثانية، الأردن، 1985م، ص: 13.

³ - عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (471هـ): دلائل الإعجاز، تح؛ محمود محمد شاكر، دار

الفكر، الطبعة الأولى، دمشق - سوريا، دت، ص: 55.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 233

التي أختصّ بها والملائمة التركيبية التي تُمنحُ له، وقيّمته الفنيّة تتوقّف عند حدود إمكانيات تكوين الخطاب بنائياً وأسلوبياً.

وإن كانت الأسلوبية؛ سعيّ خلف تصعيد القيم الفنيّة للتركيب اللّغوية، فإنّنا سنقتصر على مُدارسة الجُملة وأنماطها، مع مستهلّ تنظيريّ مُوجز نبتغي إسقاط مُتغيّراته على المستوى الإجرائي لمُعاينة سورة البقرة إرفاقاً بالشّواهد الاسنادية، ناهيك عن تلخيص أبرز الظواهر المُنزاحة عن النّظم القواعدي، على النّحو التّالي:

أولاً: النّسق اللّغوي القرآني؛ صوغٌ مستجدّ للنّظم الأسلوبي

ثانياً: التّركيب القرآني للوحدات اللّسانية:

01_ التّركيب القرآني للجملة الخبرية (اسمية)؛ المثبتة، المنفية، المؤكّدة

02_ التّركيب القرآني للجملة الخبرية (فعليّة)؛ المثبتة، المنفية، المؤكّدة

03_ التّركيب القرآني للجملة الإنشائية؛ الطلبية وغير الطلبية

04_ التّركيب القرآني للجملة الشرطية.

ثالثاً: مُقتضى العدول القرآني؛ بين حمل المعنى وكسر الأفق.

وتقديراً لقيمة النّظم التّركيبي فإنّنا نستبينُ سلفاً؛ أنّ الاحتواء اللّساني للكلمة يجعل من القرآن الكريم منظومة تواصلية فعّالة، ونسق بنائيّ مُتّحد العناصر متضافر الوحدات. فما سيعيّننا على إبراز دلائل النّظم التّركيبي للنّصّ هو مدى إفرازه للطّاقات الأسلوبية الكامنة ومقدرته على تكوين الأنساق الدّلالية.

فالبحت عن أسرار الجملة القرآنية ما هو إلا استطلاع على خواص السّمُو اللّغوي أو بالأحرى بَحْثٌ عن مَكَامِنِ الإعجاز التّركيبي وقوانينه؛ "فخيرُ ما تُوصف به الجملة في القرآن أنّها جملة محكمة، فهي بناء قد أُحكمت لِبَنَاتُها، ونُسِقتْ أدقّ تنسيق لا تُحسّ فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تتعايش مع أخواتها، حتّى صار من العسير، بل من المستحيل أن تُغيّر في الجملة كلمة بكلمة أو تستغني فيها عن لفظٍ، أو أن تزيد فيها شيئاً، وصار قُصارى أمرِك إذا أردت معارضة جملة في القرآن أن ترجع بعد طول المطاف إليها كأنّما لم يخلق الله سبحانه لأداء تلك المعاني غير هذه الألفاظ، وكأنّما ضاقت اللّغة فلم تجد فيها وهي بحرٌ خضمّ ما تؤدّي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء".¹ وهذا القول إن صَحّ التّعبير من أنصف ما نَصِفُ به الجملة القرآنية، تعظيماً لدقّة الانتقاء القرآني في معرفة أصل الوضع التّركيبيّ للمفردة.

¹ - التّركيب القرآني؛ تشكّلاته البنائية وإحياءاته النّفسية : بلقنيسي علي، ص: 75. نقلاً عن؛ سلطان منير: بلاغة

الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الطبعة الأولى، الإسكندرية، مصر، دت، ص: 107.

أولاً: النسق اللغوي القرآني؛ صوغٌ مستجدٌ للنظم الأسلوبي

إبانة:

إنَّ الصَّحوةَ الحداثيةَ للدراساتِ القرآنيةَ تُحمِّلنا على الجزمِ التامِّ بأنَّ وعياً أسلوبياً مُستجداً ينبثق من غياهب النصِّ القرآني ومكامنه، والمقدرة على استيعاب هذا الزخم الجمالي تتطلَّب تدقيقاً مشوباً بخلفياتٍ معرفيةٍ تترصد معالمه المتوارية؛ ولا يُمكنك من ذلك سبيلاً إلاَّ إجراء التَّعسُّفي أو الانسياق الانفعالي، وإنَّما رقابة التشخيص الأسلوبي الصَّارم، الذي يتعلَّق بمَوْقعِ النسق ومكوناته الجمالية، دون أن ينتزعها من أسيفتها ضيماً، أو يستخفَّ بأواصر انتمائها مع المنبت المعجمي الذي تناسلت من لدنه جذرياً وتعاضدت معه دلاليّاً.

والذي يُميِّز النظرية الأسلوبية هو منهاج المُعابنة وإصرارها الدؤوب لِتصعيد الطَّاقات الأسلوبية الكامنة في أبنية النظم، ولا نستثني إجتهادها الحداثي السَّاعي إلى كشف جماليات الخطاب القرآني كونه مشكاةً ألسنية آسرة - تركيباً، سبكاً، وبياناً - ونُحيل كذلك أنَّها لا تركز على مُتكئٍ بآئِنٍ وإنَّما تكرِّس استقصائها المعرفيَّ عبر سلسلة من التَّقنيات الرَّصينة، والرَّؤى المعمَّقة، لِتَبْلُغَ حقائقَ علميةَ ثابتة ودقيقة. فما يُعزِّز التجربة النَّقدية إذاً - حيال هذا التَّصميم الأسلوبي للبناء القرآني - هو تلمُّس سلطة الجمال الفنِّي على مستوى المقتضيات التَّركيبية ناهيك عن مقتضيات استثنائية؛ استحوذت على مقاييس فنية مؤثقة، قد اسْتُشِيعَتْ في غاية الإتقان والإثارة.

وفي حدود أسيجة هاته المسألة- التي تبتغي اقتحام الصَّوغ القرآني- فإننا حاولنا اجتياز أبرز السمات اللغوية لهذا الغدف الدلالي، كتقعيد تنظيري موجز نَفْتَح به مصراعي هاته المُقاربة أولاً، وكي يتسنى لنا بعد ذلك تشييد السبيل لفهم مقاصده المضمرّة على النحو التّالي:

01_ اللَّفْظ القرآني: تمتاز الكلمة القرآنية بالميزات التّالية:¹

- _ تلاؤم نسيجها الصّوتي، وجمال وقعها في السّمع، وخلوّها من التّنافر.
- _ استغلالها الجرس الموسيقي للكلمة، وما تحويه من ظلال للمعاني في إثراء معنى الكلمة، والإيحاء بمضمونها قبل أن يوحى مدلولها اللّغوي به.
- _ اعتدالها في التّركيب والوضع حتّى جاءت في معظمها من أعدل التّراكيب.
- _ خلوّها من اللَّفْظ الغريب المستنكر، أو الوحشي المستكره، ممّا جعلها قريبة إلى الأفهام، يُبادر معناها لفظها إلى القلب، ويسابق المغزى منها عبارتها إلى النّفس.
- _ دقّتها في الاستعمال حتّى تبدو بطريقة استعمالها، وبدقّة دلالتها كأنّها فوق اللّغة.
- _ تلاؤم حركاتها في الوضع والتّركيب، وجريها مجرى حروفها في أمر الفصاحة، وتهيئة بعضها لبعض، ومساندة بعضها بعضاً.
- _ استخدام الكلمة القرآنية الواحدة في أكثر من معنى.
- _ استخدام الحروف استخداماً خاصّاً، قد تخفى على الكثير فيضلاً القول فيها.

¹- أحمد مختار عمر: قاموس القرآن الكريم - لغة القرآن الكريم، دراسة توثيقية-، مؤسسة الكويت للتّقدّم العلمي،

_ استخدام المفردات والجموع استخدامًا خاصًا، تثبت أنّ نظم القرآن مادة فوق الصنعة، ومن وراء الفكر وخارج قدرة الإنسان (...)

واستنادًا لهذا المعطى نجمل سمات المفردة القرآنية في النقط التالية:¹

أ . جمال توقيعها في السّمع : فليس في القرآن لفظ ينبو عن السّمع ، أو يتنافر مع ما قبله أو ما بعده، فالكلمة القرآنية في الذروة من الفصاحة ، وهي تحمل المعنى في طيّاتها ، وقرأ إن شئت قوله تعالى: { رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) } النازعات [28-30] وانظر إلى كلمة أغطش كيف أنّها تقدّم لك المعنى في تلافيف حروفها قبل أن تقدّمه في معناها اللّغوي المحفوظ، وفي الوقت نفسه هي منسجمة مع ما قبلها وما بعدها من الألفاظ، لا ثقل فيها ولا إغراب، وكذلك بقية ألفاظ الآية، فكأنّها تُوقع على السّمع موسيقى رائعة في منتهى الجمال.

ب . اتّساقها مع المعنى: وكأنّ القارئ يشمّ منها رائحة المعنى المطلوب، أو يلحظ فيها إشراقاً يصوّر المعنى أمام العين. اقرأ قوله تعالى { وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) } التّكوير [17 - 18] ثم انظر كيف أنك تشم رائحة النهار من كلمة تنفّس.

ج . اتساع دلالتها: لما لا تتسع له دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات عادة، بحيث يعبرّ بكلمة واحدة عن معنى لا يستطيع التّعبير عنه إلّا ببضع كلمات أو جمل. وخذ مثلاً على ذلك قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) } الواقعة [71-72] . أراد الله تعالى أن يحدثنا في هذه الآية عن مظاهر نعمته علينا، ومن جملتها

¹ - مصطفى البغا، محي الدّين مستو: الواضح في علوم القرآن، دار الكلم الطّيب، الطّبعة الثّانية، دمشق،

النَّار ، فنَبَّهنا إلى مختلف فوائدها لحياتنا على اختلاف أطوارها ، فعَبَّرَ عن ذلك بكلمة (المقوين)
التي تحمل كلَّ المعاني التي يمكن أن يعَبَّرَ بها عن فوائد النَّار ... وهذه الميزات الثلاث قلَّما
يختلف اجتماعها في كلمات القرآن، بينما لا تجتمع في غيره إلَّا نادرًا، وما ذاك إلَّا لأنَّ القرآن من
كلام ربِّ العالمين سبحانه وتعالى.

وقد عُنِيَ القُدَّامى بالمُفردة القرآنية وفق منهجين من الدِّراسة: المنهج الأول؛ يعتمد على
تقريب المجاز إلى الحقيقة، وهو مناط التفسير بالمأثور، كما هي الحال في تفسير الطَّبْرِي، وفي
دراسة خاصَّة لأبي عبيدة في كتاباته مجازات القرآن وقد أَرَدفه الشَّريف الرِّضِي بكتاب له العنوان
نفسه؛ تلخيص البيان في مجازات القرآن، مُضِيفًا نظرات جمالية. إذ كان همُّه الأول إرادة المعنى
إلى ساحته الأولى، لكي يتوضَّح، ولا يعني هذا أنَّ التفسير بالمأثور يغفل الجانب الجمالي...وعلى
هذا النَّهج كذلك؛ أَلَفَت كُتُبًا قيِّمة في غريب القرآن، أشهرها؛ الغريب في مُفردات القرآن في القرن
الخامس هجري للأصفهاني، وهو يبحث في الأصل المادي للمفردة القرآنية في دراسة مفهومة
وافية تُقيد في بيان دقَّة الانتقاء القرآني. أمَّا ابن قُتَيْبَة؛ فقد عُنِيَ بالمفردة في كتاب بعنوان؛ تفسير
غريب القرآن، وفي كتابه المشهور؛ تأويل مشكل القرآن، بحث في المعاني المختلفة لللفظ الواحد،
وقد درس بعناية ما يُشبه انتقال المُفردة من الحقيقة إلى المجاز، وفي فصل سماه باب اللفظ الواحد
للمعاني المُختلفة عالج مسألة المشترك اللفظي... وقد تبع منهج ابن قُتَيْبَة كثيرٌ من الدَّارسين،
فقدَّموا جهدًا لغويًّا حول علاقة اللفظ بالمعنى منهم السيوطي في كتابه الإِتقان وكذلك في كتابه
معترك الأقران في إعجاز القرآن ... في حين أنَّ المنهج الثَّاني؛ فقد ركَّز على فنيَّة الكلمة وجمالها،

كالذي ورد في دراسات أبي عُبَيْدَة ومن ثم انتشرت في كتب الإعجاز والتفسير بالرأي، وذلك بطرائق مختلفة نتيجة الوجه المدروس للمفردة القرآنية.¹

وتلخيصاً لما استطردوا إليه أسلافنا القدامى وحتى المحدثين يُستبين؛ أنّ الإعجاز القرآني يكمن في الدقة المتناهية لاختيار المفردات وعلاقتها بالمعنى، وكيفية تأديته وتوصيله إلى المتلقي. أو بالأحرى الصياغة الأسلوبية للمفردات المنفردة ببلاغتها وفصاحتها، فكلّ لفظ له معنى خاص في سياق معيّن، حتّى وإن تشابه اللفظ في موضع آخر إلا أنّه يختلف من ناحية الدلالة والغرض. وبالتالي ميزته تكمن في أدائه الإيقاعي، وتناسقه الأسلوبي بين لفظه ومعناه، واتّساع دلالاته.

ـ **الجملة القرآنية:** لا تَمْتَلِ معالم الإعجاز القرآني في الصّوت المُجرّد، وإنّما من جهة تركيبه وتأليفه بين تضاعيف الكلام، أي؛ في نظمه وإحكام رصفه (...) وليس نظمه أكثر من وجوده متقدّماً ومتأخّراً، ووجود بعضه قبل بعض، ووجود بعضه بعد بعض.² وقد فصل الدارسين العرب في هذا المذهب وخصوصاً سمات الجملة القرآنية وعجيب تأليفها، من ذلك ما نستشهد به من قول الباقلاني: "مُباينة نظم القرآن للمعهود من نظام جميع كلام العرب، فليس القرآن شعراً ولا سجعاً ولا خطابة، وليس جاريّاً مجرى الرّسائل، ناهيك عن تفوّده على جميع أنواع الكلام - باحتوائه على هذا القدر الوافي من الفصاحة والإبداع على هذا الطّول، وعلى هذا القدر. وتميّزه على كثرته وطوله بالفصاحة المطلقة وبديع التّأليف والنّظم، دون وقوع أي خلل أو تفاوت أو تباين فيه مهما اختلفت الأغراض وتصوّفت الوجوه..."³ وقد تساءل عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز عن

¹ - ينظر؛ أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، الطّبعة الثّانية، سوريا، 1999م، ص: 35-38

² - يُنظر؛ المرجع نفسه، ص: 167

³ - ينظر؛ المرجع نفسه، ص: 167-169 * نقلاً عن؛ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 66-80.

أوجه الإعجاز اللغوي في القرآن (...) ثم انتهى إلى تقديم نظريته التي تقوم على عنصرين لغويين وهما الاختيار والتأليف. وأما الاختيار فيتم على مستوى الأصوات وتناسقها، وعلى مستوى الأدوات الكلمات (...) أما التأليف فيتعلق بوضع الكلمة في مكانها المناسب من العبارة وقوة الإحكام والتناسك، وتناسقها مع ما قبلها وما بعدها.¹

ويؤكد الزايفي على نفس الفكرة؛ " فالإعجاز جاء من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته. وكذلك عن أسلوب القرآن أنه مباين بنفسه لكل ما عرف من أساليب البلغاء في ترتيب خطابهم، وتنزيل كلامهم، على أنه يؤتى بعضه بعضاً، وتناسب كل آية منه آية أخرى في النظم والطريقة، على اختلاف المعاني وتباين الأغراض."² ومنه؛ فالمتأمل للقرآن الكريم من أوله إلى آخره يجده محكم السرد، دقيق السبك متين الأسلوب قوي الاتصال أخذ بعضه برقاب بعض في سورة وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، بدون تفكك بين أجزائه ولا تداخل كأنه حلقة مفرغة، أو سمط وحيد، وعقد فريد (...) ³ وتلخيصاً لسمات الإعجاز في الجملة القرآنية نلفي: ⁴

أ- التلاؤم والاتساق بين كلماتها: وتلاحق حركاتها وسكناتها ، بنظم بديع يستريح له السمع والصوت والنطق ، وقرأ إن شئت قوله تعالى: { فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) القمر

¹ - ينظر؛ عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (471هـ): دلائل الإعجاز، تح؛ محمود محمد شاكر،

دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق - سوريا، دت، ص: 90-91-95

² - الزايفي: إعجاز القرآن، ص: 179

³ - محمد بن عبد العليم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، تح؛ فواز أحمد زرلي، دار الكتاب العربي،

الطبعة الأولى، بيروت، 1995م، الجزء الأول، ص: 39

⁴ - ينظر؛ مصطفى البغا، محي الدين مستو: الواضح في علوم القرآن، ص: 168

[11] وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة، وتأمل أيضًا تآلف الحروف وتعاطف الحركات والسكنات والمدود، وانظر كيف أنّ كلاً منها كأنما صبّ في مقدار، وأنه بعلم اللطيف الخبير.

ب - الدلالة بأقصر عبارة على أوسع معنى؛ تام متكامل، دون اختصار مخلّ أو ضعف في الدلالة وقرأ في هذا قوله تعالى: { فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) } {الكهف [77] فكان الإتيان بالضمير هنا يؤدي المعنى، كأن يُقال : استطعماهم، ولكن الإتيان بالاسم الظاهر - وهو أهلها - يفيد معنى أعم وأوسع، لأنه جمع مضاف يفيد العموم فيدلّ على أنهما استطعما جميع أهل القرية بخلاف استطعماهم فإنه يحتمل أنّ الاستطعام كان لمن آتاهم وهم سكان أول القرية.

ج - إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر الملموس، ثم بثّ الروح والحركة في هذا المظهر نفسه، بحيث يجد القارئ إقناع العقل وإمتاع العاطفة، بما يفي بحاجة النفس البشرية تفكيراً ووجداناً في تكافؤ واتزان، فلا تطغى قوّة التفكير على قوّة الوجدان، ولا قوّة الوجدان على قوّة التفكير، وهكذا تجد وأنت تقرأ القرآن أنّ العقل يفهم والخيال يتصور، وذلك خلاف المؤلف والمعروف لدى قراءة أي كلام أو كتاب آخر . وقرأ على سبيل المثال - قوله تعالى: { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهَيَّ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلْأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) } سورة ياسين [10-08] أنظر كيف تضع في خيالك إنساناً يلتفّ حول عنقه غلّ عريض، مرتفع إلى ذقنه، جعل رأسه صاعداً إلى الأعلى لا يتحرّك، فتلك هي الصّورة السّاخرة للتكبر، ثم انظر حاله وهو في مكان مغلق وقد غشى الظلام على بصره، فهو لا يملك حراكاً نحو أي اتجاه، وتلك هي صورة من لم ينفع هدي، وظلّ ظلاله.

ومما ورد نستأنف القول أنّ الالتحام الذي يخلقه التّركيب اللّغوي بين الوحدات الجُمليّة يُشكّل كلّاً متّسقاً للخطاب القرآني، فتراهُ يستسيغ اللفظ، يُنتج المعنى، ينسج الصّورة ومن ثَمّة يركّب القول، كأنّه نصّ واحد أفرغ فأحكم إفراغه.

وما يُمكن أن نختم به هذا الطّرح النّظري؛ أنّ القرآن الكريم دقيق في اختار الحروف وتوظيف الكلمات وينجلي ذلك في تماسكها النّصّي، وإحكام تراكيبها وتعانق وحداتها اللّغويّة، ناهيك عن قوّة معانيها وبلاغة صوّرها لكن بأسلوب خارج عن المألوف ونظم مترقّع عن المُتداول وهذا ما قد استشهد به أسلافنا القدامى أمثال الباقلاني في قوله: " وذلك أن نظمه على تصرّف وجوهه وتباين مذاهبه خارجٌ عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومُباين للمألوف من تركيب خطابهم، وله أسلوب يختصّ به ويتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد.¹ فتُلفيه؛ شديد الإحكام من حيث المعنى والأداء والتّركيب إلى أن استحال على أيّ دارس أن يضع وحدة لغوية في مقام وحدة أخرى، أو يستبدل حرفاً بحرف آخر ويكأنّ اللّغة قد أغلقت حدودها وأوصدت أبوابها فلم تلقَ سبيلاً غير الذي فرضه عليها الخطاب القرآني.

¹ - الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 53.

ثانيًا: التركيب القرآني للوحدات اللسانية

إبانة:

التهيئة القرآنية للملفوظ؛ إدراكُ فني لقواعد البيان واحتواءً ضمنيٍّ لأسمى مواضع الإعجاز، من أثر قواها حملها لأسرار البلاغة ودفعها بالمتلقي إلى حقائق مطلقة لا موضع للتخييل فيها، إلا إن كان تمثيلًا يُرادُ به تقوية الوعي بقيمتها، فتَرى كُلَّ نَسَقٍ لُغَوِيٍّ يُوَارِي معنًى مُسْتَكِنًا فتَنجلي صورته باتِّساقٍ فنيٍّ مُحْكَم. فالتَّصرفُ القرآني إزاءَ اللُّغة يَمْنَحُه السُّلْطة بِمُنْتَهَاهَا، وبذلك تصير اللُّغة استجابةً مُثْلَى لمُقْتَضِيَّاتِهِ وإِصْغَاءً تامًّا لِمُتَطَلِبَاتِهِ.

وإن كان الخطاب القرآني؛ كنظام أسلوبٍ دالٍّ مُبْدِعُ اللُّغة وسيِّدها فإنَّه لا سبيل إلى الإبانة عن معانيها ومعرفة خُصُوبَتِهَا والقوانين التي تحكمها إلا باقتحام نِظَامِهِ التَّركيبي. ولن تكون ثَمَّة جدوى في تحديد خواص مِعمَارِيَّتِهِ على أساس النِّسق المُفْرَد إلا حينما يندرج ضمن شبكة من العلاقات المُتنامية في بنائه الكلي، فالتَّضامُ الأسلوبي سِمة نسقية وليد كتلة من الروابط التي تنمو بين مفاصل النصِّ ومكوّناته، سِمَتُهُ الأساسيَّة تتمثّل في خيوطه وإنتاج الدلالة ناهيك عن الانسجام التدرجي والانتظام الموسيقي الذي يكتسحه، ولأنَّه كذلك فهو إذا؛ مهياً للتَّقْصِي، قابلٌ للمُعَاينة، جديرٌ بالاستقصاء.

فطالما كان هاجس التَّوجُّه التَّقْدي يركُنُ لمُعَاينة القول الفني ظاهريًّا من دون اللّجوء إلى حيثيات النصِّ وعَوَامِقُ بِنْيَاتِهِ، لكن مع مستجدّات الحداثة وسلطة الخطاب القرآني فإنَّه يُكرّس منظومته نحو صياغة مشروع رؤيوي موضوعيٍّ يبتغي إقحام الاستراتيجيات العلميّة إلى كنف الدّراسات القرآنيّة، وكون هذا الخطاب نسقٌ لساني مُتكامل التّراكيب، فإنَّنا نحيل أن هذا الغنى كامنٌ في جوهره وطرائق نُظْمِهِ، لذلك لم تقتصر جُلُّ دراساته على وجهة معيّنة نظرًا لِسعة الإمكانيات التي يمتلكها.

وإحصاءاً للتركيبية الأسلوبية للجملة القرآنية على مستوى السورة فإننا نُميّز بين أنماط الجملة، "فتنقسم إلى خبرية؛ (مثبتة، منفية، مؤكدة) وإنشائية؛ (طلبية، شرطية، إفصاحية)" ¹. من هذه الوحدات نُلَفّي:

01_ الجملة الاسمية وتمظهراتها التركيبية؛ مثبتة، مؤكدة، منفية.

بمعينة الجملة الاسمية فإنه وجب التعامل معها باعتبارها؛ نسقاً لغوياً مركباً ضمن بنية أكبر وهي الخطاب، ما يؤمى أن مقاصدها ليست مُعطى حضورياً مُجهزاً وإنما مرتبط بجملة من الإحالات الماورائية. ومن المتواضع عليه: "أن الجملة هي أكبر وحدة قابلة للتّحليل في المادة اللغوية. أو بمعنى بديل؛ هي الصورة اللفظية الصغرى للكلام المفيد في أي لغة من اللغات، وهي المركب الذي يبين المتكلم به أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه، ثم هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع". ² والجملة الخبرية تنقسم إلى:

1.1_ الجملة الاسمية في تركيبها المثبتة:

أ_ الجملة الاسمية البسيطة: "هي أقلّ قدرًا من الكلام، يُفيد السامع معنى مستقلاً بنفسه، سواء تركّب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر. والمبتدأ لم يكن مبتدأً لأنّه منطوقٌ به أولاً، ولا كان الخبر خبراً لأنّه مذكورٌ بعد المبتدأ؛ بل كان المبتدأً مبتدأً لأنّه مسندٌ إليه ومثبت له المعنى، والخبر خبراً لأنّه مسندٌ ومثبتٌ به المعنى". ³ ومن صور إستعماله في متن سورة البقرة نُلَفّي:

¹ - تمام حسّان: اللغة العربية مبناها ومعناها، دار الثقافة، دط، المغرب، 1994م، ص: 244

² - يُنظر؛ صبري إبراهيم السيّد: لغة القرآن الكريم في سورة النور، دراسة في التركيب النحوي، دار المعرفة

الجامعية، الطبعة الأولى، جامعة عين شمس، الإسكندرية، 1994م، ص: 18

³ - المرجع نفسه، ص: 18

* **الابتداء بالمعرفة؛** نحو قوله تعالى: { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197) }.¹ "استئناف ابتدائي بتفصيل مناسك الحج وبسط فرائضه وسننه مع إصلاح ما أدخله أهل الجاهلية فيها".² وتقديرُ الابتداء { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ } (مبتدأ + خبر + صفة)؛ أن وقت الحج أشهرٌ معلومات بَيِّنَات، والمراد من ذلك أنها مؤقَّتة في أوقات مخصَّصة من بين سائر أيام السنة، فدلَّ أنه لا يجوز في غير ميعاده، وفي هذا تعظيمٌ لشأن الحرم، وتغليظ ارتكاب نواهيه، والمقصد من ذلك؛ وجوب الامتثال للآفاق لزيارة بيت الله سبحانه، بتهديب الذات الإنسانية وإشعارها بعظمة حدود الله.

— قال تعالى: { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194) }.³ نزلت هذه آية "ردًا على المشركين في الحديبية حين قصد النبي صلى الله عليه وسلم مكة قبل الفتح للعمرة فمنعه المشركون وكان الشهر ذا القعدة فواعدوه للسنة المقبلة فكانوا يفخرون برده صلى الله عليه وسلم - فأقصه الله تعالى منهم وأدخله مكة في مثل ذلك الشهر، ولأنَّ المشركين حين هتكوا حرمة ذلك الشهر أدخل الله المسلمين عليهم مكة في ذلك الشهر اقتصاصًا منهم".⁴ تقديرُ الابتداء { الشَّهْرُ الْحَرَامُ } (مبتدأ +

¹ - سورة البقرة: الآية [197]

² - يُنظر؛ محمد الطاهر بن عاشور (1393هـ) : تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى،

تونس، 1984م، الجزء الأول، ص: 231

³ - سورة البقرة: الآية [194]

⁴ - بهجت عبد الواحد الشخيلي: بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، إعرابًا وتفسيرًا بإيجاز، مكتبة دنديس، الطبعة

الأولى، الأردن، 2001م، الجزء الأول، ص: 412

صفة)؛ إيدانٌ قطعيّ بمراعاة حرمة الشهر، فلا يُفضل أحدهما على الآخر فكلّ حرمة يجري فيها القصاص، على وجه الإنصاف والقسط لا بابتداء الفتنة، والله مع المتقين بالتكفل والمعونة.

_ قال تعالى: { تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (141).¹ تلك أمة قد مضت لهم أعمالكم ولكم أعمالكم وليس يُغني عنكم انتسابكم إليهم.² مُريدًا بذلك التأكيد أنّ كلّ نفس رهينة بما كسبت. وتقديرُ الابتداء { تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ } (اسم إشارة مبتدأ + خبر + قد للتحقيق + فعل + فاعل مستتر)؛ إيجازٌ وعظيٌّ ومبالغة في الزجر والتحذير، متضمنًا معنى التهويل والتهديد عمّا طبع عليهم؛ من الافتخار بالآباء وإتباع حذو أجدادهم.

وبالنظر إلى التوظيف القرآني للجملة الاسمية وتحديدًا في سورة البقرة يُستبين أنّه استند على صورٍ عدة لكن حاولنا أن نختصر أبرزها منها؛ صور الابتداء بالمعرفة والتي تقتضي أن يكون المبتدأ معرفًا كما في النماذج المقدّمة: { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ } أي أنّ له ميقاتٍ مخصّص فلا انتهاك لحدود الله، وقد عُرِفَ المبتدأ تعظيمًا لحرمة الحج وإظهارًا لكمال ركنه. أمّا قوله: { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ } تبيان أنّ كلّ حرمة تمّ هتكها أُجري فيها القصاص، صونًا وتعظيمًا لشأنها. أمّا قوله: { تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ } جزمٌ قاطع بأن المرء لا يُسأل إلا عن عمله. ومنه؛ فكلّ نسق لغوي يستقي اتزانَه من تضافره النصّي، وكلّ وحدة لغويّة يتكئ عليها الخطاب لبناء محتواه الأسلوبية.

* **الابتداء بالنكرة:** نحو قوله تعالى: { قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ } (263) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا

¹ - سورة البقرة: الآية [141]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 452.

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264).¹ كلمة طيبة ودعاء لمسلم ومغفرة عن ظلم، خيرٌ من صدقة يتبعها أذى، والله يحلم ويغفر ويتجاوز عنهم".² وتأويل الابتداء بالنكرة { قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ }، (مبتدأ نكرة + صفة + معطوف + خبر)؛ ردٌ بإحسان وعفوٌ عن السائل واستغافٌ عن الأذى أعظم قدرًا وثوابًا، ووظيفة الابتداء؛ بيانًا بتهذيب النفوس وترغيبًا في التزكية وزجرًا عن التَّطاول والأذى، بأسلوب تمثيلي موجز.

_ قال أيضًا: { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) }.³ يمدحُ تعالى شهر الصَّيَام من بين سائر الشُّهُور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، وكما اختصّه بذلك، فقد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء.⁴ وتقدير الابتداء { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ }، (خبر نكرة + مضاف إليه + اسم موصول خبر + مبني للمجهول + جار ومجرور + نائب فاعل)؛ تفخيمًا وتعظيمًا لشأن هذا الركن الذي اقتضت المشيئة الربانية أن تنزل فيه أوضح الدلائل وأبلغها، والمراد من ذلك أنه أنزل هاديًا ومُبينًا سبيل الحق للأمة جمعاء.

¹ - سورة البقرة: الآية [263-264]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 694

³ - سورة البقرة: الآية [185]

⁴ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 501.

_ وقال سبحانه: { وَالْهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) }.¹ "يخبر تعالى تفردَه بالإلهية، وأنه لا شريك له، ولا عدل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد."² وتقديرُ الابتداء { وَالْهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ }، (مبتدأ نكرة + الكاف مضاف إليه + خبر + صفة)؛ تأكيداً على الاستحقاق التّام بالطّاعة والامتثال الكامل بالعبادة، والتّفرد المطلق بالتّوحيد، فلا شريك ولا ندّ له سبحانه. والمقصد من دمج هاتيه السّمتين؛ الألوهية والفردانيّة يُحيل إلى العظمة والعلو، ومن ثمّ أعقبهما بذكر الرّحمة بصيغة المبالغة؛ إيداناً وجزماً بأن قوته لا تطغى على لطفه، قد وسعت رحمته كلّ شيء قدرًا سبحانه وتعالى.

نلاحظ؛ أنّ أسلوبية الخطاب القرآني تشغل وظائفًا على تكثيف الوحدات اللّغوية، ضمن نسقٍ تركيبِيٍّ مُنْتَظَمٍ في تشييد البناء، وتكثيف الرّؤية وتعميق التّأويل. والاستناد على نمطية الجملة الاسمية المثبّطة عموماً يسهم في تأكيد المعنى وإبرازه، باعتبار أنّ للاحتماء قوّة وحضوراً بارزاً مقارنة مع الوحدات الحركيّة، كما هو وارد على مستوى هاتيه الأنساق: { قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ }، { شَهْرٌ رَمَضَانَ }، { وَالْهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ } فهذه الوحدات التركيبية التي تقتضي الابتداء بالنّكرة؛ تُثبّر في المُتلقي تعمّقاً وتأملاً في قيمة مضامينها؛ بدءاً من تفضيل الكلمة الطيّبة، إلى تعظيم شهر رمضان، إلى تقدّيس الذات الإلهية وتوحيده سبحانه وتعالى. وهكذا تبدو البنية النصّية فاعلة بما تُحقّقه أنساقها التركيبية التي تُشجّي بعُمق الإعجاز اللّغوي وفنّياته الأسلوبية.

¹ - سورة البقرة: الآية [163]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 474.

* الرتبة: نحو قوله تعالى: { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) }.¹ استئنافٌ تعليلي لما سبق من الحكم، وبيان لما يقتضيه؛ أو بيانٌ وتأكيذٌ له، والمُراد بالقلب، محلُّ القوَّة العاقلة من الفؤاد، والختم على الشَّيء الاستيثاق منه، فلا ينفذُ إليها الحقُّ مطلقاً. أي؛ استوثقت قلوبهم بالختم لأنها لا تجتلي آيات الله المعروضة.² وتقدير الرتبة هنا { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً } (فعل+اسم جلالة فاعل+ جار ومجرور+ واو استئنافية + جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدّم+ مبتدأ مؤخر) ؛ على أنه سبحانه ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الاستقامة جزاءً لما اقترفوا وإعراضهم المعتمد عن المنهاج السويّ فوسمهم بما يشي عن تصميمهم على الكفر والمعصية.

_ قال تعالى: { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) }.³ أُستعير المرض هنا لما في قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدي إلى الهلاك الروحاني.⁴ وتقدير التقديم هنا { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } (خبر شبه جملة + مبتدأ مؤخر)؛ تأكيداً أنّ في قلوبهم زيغٌ - أو بالأحرى الهلاك الروحاني - بالعدول عن الدين ومقتضياته إلى النفاق والشكّ واتباع الباطل، وقد تضاعف على ذلك إلى أن تملّكهم، لجحدهم وإصرارهم على الكفر.

¹ - سورة البقرة: الآية [07]

² - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 165

³ - سورة البقرة: الآية [10]

⁴ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 49

_ وقال أيضاً: { وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }¹.
الأرض بمشرقها ومغربها هو مالکها، فأينما توليتم فثم وجه الله² وتقدير التقدير؛ { وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ }
{(خبر شبه جملة محذوف + مبتدأ مؤخر) ؛ تأكيد على سعة ملكوته وسعة علمه ودرايته بما يُحيط.
فلا يعدل شيء عن إحاطته ولا يخفى عليه أمر من أحوال ملكوته. سبحانه وتعالى.

تبدو حركية المركبات الإسنادية في غاية الدقة والتنظيم، ما يُحيل إلى مقدرة الخطاب القرآني
على خلق لغة طيعة تعتمد على التّضام النّسقي والتّعاقد الأسلوبي وتفاعل مكوناتها الدلالية.
وبمثل هاته الأنساق البنائية التي تَعَمَد إلى المغايرة التركيبية نلّفي: صورة تأخير المبتدأ كما في
قوله: { وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ } ، { فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ } ، { وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ }؛ تمّ تقديم الخبر في
هذه الحالات لضرورة الإفشاء به، فقد بيّن في المثال الأول؛ أَنَّ الحقّ لا ينفذ إليهم لاستكبارهم
وتجبرهم عن آيات الله فجعل بينه وبينهم حجاباً. في حين أَنَّ المثال الثاني تمّ تقديم الخبر تأكيداً
أَنَّ قلوبهم يسودها الرّيح فأبى الله إلّا أن يزيدهم شكاً وريباً. أمّا المثال الآخر فقد سيق الخبر
تعظيماً لله ولملكه وأنه لم يختص للعبادة مقاماً دون آخر فأينما تولّوا فثمّ وجهه سبحانه وتعالى.
ومن هنا، نلاحظ؛ على مستوى هاته المغايرة التركيبية أَنَّ النسق المنزاح عن رتبته له حضور لافت
وتمثلاً إبداعياً دقيقاً ما يدلي أَنَّ لِمَرَدِّ تسويغه غايات بلاغية تستهدف؛ التّوحيه، التّعظيم، التقدير،
على حسب السّياق الذي تتبثّق منه.

وبتقديرنا؛ فإنّ القاموس اللّغوي الذي يمتلكه الخطاب القرآني والسّلطة الأسلوبية التي ينفردُ
بها تفتح له المجال لسياقة الأنظمة التركيبية وإدارة شؤون المفردة اللّغوية مع مراعاة مقتضى الحال

¹ - سورة البقرة: الآية [115]

² - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 314

من دون الإخلال بالمبنى الدلالي. فقد ورد على مستوى هاته الآيات ضرورياً من الجملة الاسمية البسيطة المثبتة، والقصد من وراء النظر إليها؛ التطلع إلى فئات الوحدات البنائية، التي تُعزّز تماسك النظم التركيبي من الناحية الأسلوبية، وتستثير حساسية السامع من خلال الإحالة إلى التيمات الجوهرية للنص، فيقدر ما يكون النسق اللغوي قادراً على الإفصاح عن المضمون بقدر ما يكون الخطاب أكثر شفافية وأشد استقطاباً لدى المتلقي.

بـ **الجملة الاسمية الموسّعة**: على ذكر مصطلح الجملة الموسّعة فإننا نستبين سلفاً أنّ أهل اللغة قد صاغوا هذا الوسم؛ " لما يطرأ على الجملة الاسمية البسيطة من تغييرات بإضافة ركن لغوي يقوم بوظيفة تركيبية تنتج عنها علاقات دلالية. وتتوسّع الجملة البسيطة بالنواسخ الفعلية والحرفية فتبقى مثبتة أو تتحوّل إلى منفية أو مؤكّدة." ¹ من أضرب توظيفها على متن سورة البقرة نلّفي:

* **إنّ وأخواتها مع الجملة الاسمية البسيطة**: وهي "من نواسخ الابتداء المشبهة بالفعل." ² * من مواطن ورودها في سورة البقرة، نلّفي:

_ قال تعالى: { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25) } ³ وفيه "رمزٌ إلى أنّ الأمر لعظمه وفخامته شأنه حقيقٌ بأن يتولّى التبشير

¹ - صبري إبراهيم السيد: لغة القرآن الكريم في سورة النور؛ دراسة في التركيب النحوي، ص: 47

² - المرجع نفسه، ص: 47. * وأما إنّ وأخواتها فإنّها تنصب الاسم وترفع الخبر، وهي: إنّ، وأنّ، ولكنّ، وكأنّ، وليت، ولعلّ، تقول: إنّ زيداً قائمٌ، وليت عمراً شاحصٌ، وما أشبه ذلك، ومعنى إنّ وأنّ للتوكيد، ولكنّ للاستدراك، وكأنّ للتشبيه، وليت للتمني، ولعلّ للترجي والتوقع.

³ - سورة البقرة: الآية [25]

به، كل من قدر على البشارة به".¹ وتقدير الإثبات؛ { أَنْ لَهُمْ جَنَّتْ } (أَنْ + جَار ومجرور؛ خبر مقدّم + اسمها)؛ تأكيداً وترغيباً في الآن ذاته على ثواب المؤمنين. والمقصد من ذلك؛ إنباء بأن هذه الرتبة ينبغي السعي إليها بإصلاح الذات، وتسوية النفس قولاً وعملاً على وجه الاستحباب والتحفيز.

_ قال تعالى: { وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (115).² "إِنَّ اللَّهَ واسع الرحمة يُريد التوسعة على عباده والتيسير لهم، عليم بمصالحهم وأحوالهم."³ وتقدير الإثبات؛ { إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (إِنَّ + اسمها + خبرها + خبرها الثاني)؛ قد استُشيع تأكيداً أَنَّ اللَّهَ يسع خلقه؛ رحمة ودراية وإحاطة بأحوالهم، له الملك جميعاً خلقاً وتديباً.

_ قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } (243).⁴ "يقص تعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن لا يغني حذر عن قدر، فقال لهم الله موتوا فماتوا ثم إن الله تعالى أحياهم إمّا بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفًا وحلمًا، وبيانًا لخلقه بإحياء الموتى، ولهذا قال: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ولكن أكثرهم لا يشكرون فلا تزيدهم النعمة شكرًا، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقليل منهم الشكور

¹ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 68

² - سورة البقرة: الآية [115]

³ - الرّمخسري: الكشف، الجزء الأول، ص: 314.

⁴ - سورة البقرة: الآية [243]

الذي يعرف النعمة ويقربها ويصرفها في طاعة المُنعم".¹ استئناف ابتدائي للحث على الجهاد والتذكير بأن الاحتراز لا يزيد في الأجل، والقتال في سبيل الله لا يسبقه، وأسلوب التحريض هنا على سبيل الكناية بصيغة الاستفهام متضمنًا معنى التعجب والتقرير والإنكار في الآن ذاته، وتقدير الإثبات؛ {إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} (إِنْ + اسمها + خبرها / لكن + اسمها + مضاف إليه + جملة فعلية في محل رفع خبر)؛ أي لا يقدرون فضله كما ينبغي لجلاله ولا يعتبرون مما أنزل له من الدلائل والبراهين القاطعة.

_ قال تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (179).² وفي شرع القصاص لكم، حكمة عظيمة، وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يُقتل كفَّ عن صنيعه، فكان في ذلك حياةً للنفوس، وفي الكتب المتقدمة؛ القتل أنفى للقتل. فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز".³ ومورد الإثبات {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} {لعلَّ + اسمها + فعل مضارع + واو الفاعل؛ والجملة خبر لعل} ؛ يُحيل أن ما فرض وما سنَّ سبحانه على عباده، رحمةً وصونًا للذات البشرية بالردع عن الفساد، فشرع الله يُفضي إلى إقامة الحق الحياة.

_ قال تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } (176).⁴ فقله: "إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً،

¹ - عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح؛ عبد الرحمن بن معلا

اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، لبنان، 2002م، ص: 106.

² - سورة البقرة: الآية [179]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 492

⁴ - سورة البقرة: الآية [176]

فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره، فخالفوه وكذبوه، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسله؛ فهذا استحقوا العذاب والنكال.¹ وتقدير الإثبات؛ { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } (إنَّ + اسمها + فعل وفاعل + جار ومجرور + لام المرحلة + جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر إنَّ + صفة)؛ إحالة أن الله أنزل البيان هداية للخلائق، وصرفهم عن الضلال، فمن صرف عن الحق، فهو كفيل بأن ينال مثواه، أي مستوجب لأشد أنواع العقاب.

وفيما نرى؛ أنَّ تركيبة الجملة المثبتة تستوفي معنى أي غرضٍ تبتغي تحقيقه، بإثبات الحاصل والتأكيد عليه، وفق معطيات أسلوبية بليغة، تثبت رؤيته، وتدعم موقفه، وبتصورنا فإن الانتظام التركيبي الذي يسوق الوحدات الجمالية يعمد إلى تطويق حبالها فلا تزيغ عن التيمة المحورية ولا تخرج عن بنيتها، ما يكتف فعلياً دلالاتها النصية ويحقق قيمها الأسلوبية.

***كان وأخواتها مع الجملة الاسمية البسيطة:** وهذه الأفعال تدل على الزمن دون الحدث،² ورد تركيب كان وأخواتها مع الجملة الاسمية في سورة البقرة، حسب الأتماط التالي:

— قال تعالى: { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأُنزِلَ مَعَهُمُ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ

¹ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 484

² - جلال الدين السيوطي (911هـ): همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح؛ عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الطبعة الأولى، الكويت، 1980م، الجزء الثاني، ص: 115 * وقد سميت ناقصة لأنها لا تكتفي بمرفوعها، أي لا تتم الفائدة بها والمرفوع بعدها، بل تحتاج مع المرفوع إلى منصوب هي أفعال ناسخة تدخل على الجملة الاسمية فترفع المبتدأ ويسمى اسمها وتنصب الخبر ويسمى خبرها (مثال: كان خالد مريضاً). من الأفعال الناقصة أصبح، أضحى، ظل، أمسى، بات، ما برح، ما انفك، مازال، ما فتى، ما دام، صار وليس.

مُسْتَقِيم (213)}.¹ "كانوا على الهدى جميعاً وكلمة الحق فاختلّفوا فبعث الله المرسلين منذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم فيما اختلفوا وتعارضوا فيه".² ومورد الإثبات { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً } (كان + اسمها + خبرها + صفة)؛ هذا النّاسخ يحمل تأويلين إمّا أنّ الخلاق كانوا على كلمة الحق ومن ثم اختلفوا فأراد الله أن يردّهم إليه، أو أنّهم كانوا كلّهم في ضلال فأنزل الله الحقّ ليُرشدَهم، لكن وان اختلفت تأويلاتها إلّا أنّها إحالة أنّ هاته الأُمَّة خُلقت لتكون أمة واحدة تتحد مقاصدها وتتضافر مطالبها وتستوي وجهتها على الحق وكلمة الإخلاص.

_ قال تعالى: { * شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) }.³ "مدح تعالى شهر الصّيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه".⁴ وتقدير الجملة المُثبتة؛ { كَانَ مَرِيضًا }؛ (كان + خبرها)؛ تُحيل أنّه رغم عظمة هذا الرّكن لكن الله لا يُريد أن يشقّ على عباده، بل أن يُيسّر عليهم الأسباب المؤدّية إلى رضوانه، ويسهل سبلها، وإن حصلت بعض الاعتراضات الحتمية الموجبة للامتناع رخص ما يلائم عبده إمّا بإسقاطه أو تخفيفه.

- قال تعالى: { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ

¹ - سورة البقرة: الآية [213]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 259-260.

³ - سورة البقرة: الآية [185]

⁴ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 501.

وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177){¹ فليس الصّلاح عند الله - تعالى - في التّوجه للصّلاة إلى جهة المشرق والمغرب إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، وإنّما الخير كل الخير هو إيمان من آمن بالله وصدّق به معبودًا وحده لا شريك له، وآمن بيوم البعث والجزاء، وبالملائكة جميعًا، وبالكتب المنزلة كافّة، وبجميع النّبیین من غير تفریق، وأنفق تطوُّعًا، وأقام الصّلاة، وأدى الزّكاة المفروضة، والذين يوفون بالعهود، ومن صبر في حال فقره ومرضه، وفي شدّة القتال...أولئك هم الذين صدقوا في إيمانهم، وأولئك هم الذين انتقوا عقاب الله فتجنّبوا معاصيه".² ودلالة الجملة المثبتة في هذا السياق؛ { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } (ليس + خبرها مقدّم + أن حرف مصدري وفعلها والجملة في محل رفع اسم ليس مؤخر) تأكيدٌ على الحقّ وإثبات بطلان الباطل وتفصيلٌ لإخصال البرّ والنقى للموصوف ما ذكر.

_ قال تعالى: { لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (272){³ "يُخاطب تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم؛ ليس عليك هدى الخلق، وإنّما عليك البلاغ المبين، والهداية بيده سبحانه".⁴ وتقدير الإثبات؛ { لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ } (ليس + خبرها مقدّم + اسم مؤخر)؛ يُدلي أنّ الله

¹ - سورة البقرة: الآية [177]

² - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 28

³ - سورة البقرة: الآية [271]

⁴ - عبد الرحمن بن ناصر السّدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 116.

لا يريد أن يشقّ على نبيّه صلى الله عليه وسلم فقد كلّفه بتبليغ الرّسالة بما أوحى إليه، والهداية على الله، وهذا على سبيل الاستئناس واللّطف من لدنه سبحانه.

وتعقيباً لما ورد فإنّا نستأنف القول، أنّ كلّ عنصر لغوي في الخطاب القرآني يدخل فيما يُمكن تسميته بتكوين الخطاب وَبَيِّنَتِهِ، فلا غنى عنه بأي شكل من الأشكال، والواقع أنّ أسلوب الخطاب القرآني حافل بالتقنيات الأسلوبية التي تدلّ على الفنّ الجمالي وبخاصّة حينما يتعلّق الأمر بالتركيب اللّسانية.

*كادَ وأخواتها مع الجملة الاسمية البسيطة: وهي "من نواسخ الابتداء، وتسميتها بأفعال المقاربة على سبيل التغليب، تعمل عمل كان، فترفع المبتدأ اسماً لها وتتصب الخبر خبراً لها".¹ * وقد ورد تركيب كاد وأخواتها مع الجملة الاسمية في سورة البقرة، على النحو التّالي:

— قال تعالى: { يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) }.² "يقارب البرق - من شدّته - أن يسلب أبصارهم، فكُلَّمَا أضاء لهم مشَوْا في ضوئه، وإذا ذهب أظلم الطريق عليهم فيقفون في أماكنهم، ولولا إمهال الله لهم لسلب سمعهم وأبصارهم، وهو قادر على ذلك في كل وقت، إنّه

¹ - جلال الدين السيوطي: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ص: 138. * أفعال ناقصة ناسخة تعمل عمل كان فتدخل على الجملة الاسمية فترفع المبتدأ ويسمى اسمها، وتكون الجملة الفعلية بعدها في محل نصب خبرها؛ كادَ - كَرَبَ - أَوْشَكَ - عَسَى - حَزَى - اخْلُوقْ - اُنْشَأْ - طَفِقَ - جَعَلَ - هَبَّ - عَلَقَ - هَلْهَلَ - أَخَذَ - بَدَأَ.

² - سورة البقرة: الآية [20]

على كل شيء قدير".¹ أي؛ يكادُ ذلك يخطفُ أبصارهم أي يختلسها ويستلّها بسرعة؛ { يَكَادُ أَنْ يُزِقَّ يَخْطَفُ أَبْصَرُهُمْ } (كاد + اسمها + خبرها جملة فعلية)؛ فقد وضعت لمقاربة الفعل من الوجود لتأخذ أسبابه لكن لم يوجد بعد.² حيث تنقيد قرب وقوع الحدث، وقد ضرب هذا الأسلوب على سبيل التمثيل لحالهم، لكن تفيد دلالاته على العموم بقرب وقوع الحدث وحصوله، وقد استسيع هنا على سبيل التمثيل للوعظ والاعتبار.

*أفعال الظنّ مع الجملة الاسمية البسيطة: وأمّا ظنّ وأخواتها" فإنّها تنصب المبتدأ والخبر على أنهما مفعولان لها.³ *

_ قال تعالى: { قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) }⁴ أي؛ تقرير ما يفيد من دواعي تحقق الخلافة في آدم عليه السلام وإيدان بعجزهم أمام عظمة الله وإحاطة علمه بالسّر والعلانية.⁵ وورود فعل الظنّ { أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } (أَعْلَمُ + مفعول به + مضاف إليه + معطوف) ؛

¹ - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 04.

² - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 54.

³ - جمال مرسل: شرح المقدمة الأجرومية في علم النحو، دار فيلتس للنشر، الطبعة الأولى، الجزائر، 2013م، ص: 255. * ظنّ وأخواتها أفعال تدخل على المبتدأ والخبر، وتسمّى أفعال القلوب تنصب هذه الأفعال المبتدأ والخبر، فيسمى المبتدأ مفعولها الأول ويسمى الخبر مفعولها الثاني. مثال: زيدٌ صادقٌ / ظننْتُ زيدًا صادقًا (زيدًا: مفعول به أول لـ"ظنّ" منصوب بالفتحة. صادقًا: مفعول به ثانٍ لـ"ظنّ" منصوب بالفتحة، أخوات ظنّ هي: وجَدَ، رَأَى، حَسِبَ، جَعَلَ، رَعِمَ، خَالَ، اتَّخَذَ، عَلِمَ.

⁴ - سورة البقرة: الآية [33]

⁵ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 86

يُخَصِّصَ الإحاطة الكاملة والتَّامَّة بأسرار الكون والخلق جميعاً من الظَّاهر والباطن والواقع والمتوقَّع..

- قال تعالى: { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273) }.¹ إحالة إلى أن " الجاهل بأحوالهم يظنهم أغنياء لتعقُّفهم عن المسألة، أمَّا أولي الأبصار فإنهم يُدركون ما هم عليه، والمعنى: اجعلوا نصيباً ممَّا تنفقونه- أيها المؤمنون- للذين أُحصروا- بالبناء المبني للمجهول، للإشعار بأن فقرهم لم يكن بسبب إهمالهم، وإنمَّا لأسباب خارجة عن إرادتهم، وقوله: فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَكْرِيماً وَتَشْرِيفاً لَهُمْ، أي أن ما نزل بهم من فقر واحتياج كان بسبب إيثارهم لإعلاء كلمة الله".² والاعتماد على فعل الظن { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ }؛ (يحسب+ الهاء مفعول به + الجاهل فاعل+ أغنياء مفعول به ثاني) مبالغة في توصيف حال فقرهم وحاجتهم، فهمتهم في طلب العلا وإعلاء كلمة الحق تمنعهم من الاكتساب والجاهل بأحوالهم يحسبهم أغنياء لتعقُّفهم عن المسألة.

- قال تعالى: { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) }.³ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ إمَّا حجر مخصوص معلوم عنده، وإمَّا اسم جنس، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ منهم مَشْرِبَهُمْ أي: محلهم الذي

¹ - سورة البقرة: الآية [273]

² - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مطبعة المصحف الشريف، د. ط، 1992م، الجزء الأول،

ص: 369

³ - سورة البقرة: الآية [60]

يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضًا، بل يشربونه متهنئين لا متكدرين، ولهذا قال: **كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ أَيْ: الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب، وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ أَيْ: تُخْرَبُوا على وجه الإفساد**.¹ أو دلالة فعل الظن في هذا السياق؛ {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ} (قد + علم + فاعل + مضاف إليه + مفعول به)؛ إرشادٌ وتنبيه إلى حكمة الانقسام إلى اثنتي عشرة عيناً، استقراراً لأموالهم، ودركاً للفساد.

فما ينبغي علينا إذا لاقتناص المعنى؛ عدم التقييد بظاهر اللفظ، "فاللفظ مشتبه يدل على أمرين لذا وجب في هذه الحالة التفتن إلى قصد المتكلم والوقوف على الوضعية العرفانية للمتكلم والمخاطب"،² وعليه خلص الجرجاني إلى قاعدة مفادها: "أنه قد يكون في اللفظ دليل على أمرين ثم يقع القصد إلى أحدهما دون الآخر..."³ ففي ذلك تجاوزٌ للدلالة الوضعية إلى الدلالة القصدية المضمرة. وبالنظر إلى الجملة الاسمية ومُتَغَيِّرَاتِهَا فإننا نحيل إلى أن أي عنصر لغوي يطراً عليها فإنه يُضِيفُ دلالةً وبُعْدًا قصدياً لأن الخطاب القرآني لا يحمل سِمَةَ المصادفة أو العشوائية إطلاقاً، ناهيك عن الأبعاد السيكلوجية والمثيرات الأسلوبية التي تستقطب انتباه السامع.

2.1_ الجملة الاسمية في تركيبها المؤكدة: وهي الجملة التي تدخل عليها "أداة من أدوات الإسناد بين المبتدأ وخبره".⁴ ومن أنماط ورودها في سورة البقرة نلفي:

¹ - عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 53.

² - وثام الحيزم: تأويل اللفظ والحمل على المعنى، ص: 280

³ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 168-169

⁴ - صبري إبراهيم السيد: لغة القرآن الكريم في سورة النور؛ دراسة في التركيب النحوي، ص: 151

__ قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) }.¹ سيقَّت هذه الآية لبيان أنَّ "ما استنكره السفهاء واستغروه من أن تكون صغائر الأمور مضروبًا بها المثل، ليس موضعًا للاستنكار وللاستغراب".² ومورد التوكيد على مستوى هاته الآية: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي } (إنَّ + اسمها + لا النافية + فعلها والجملة الفعلية في محل رفع خبر إنَّ) / { أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } (أنَّ + الهاء اسمها + خبرها)؛ قد صيغَ لِمَا فِيهِ مِنْ كَشْفٍ لِلْمَعْنَى وَرَفْعٍ لِلْبَسْ عَنْ الْمَقْصَدِ؛ تعظيمًا للحقِّ وإجلًا له ولو في صغائر الأمور، وبيان حكمته في الخلق وتحقيق الحقِّ ومعارضة السفهاء بإثبات عجزهم أمام عظمتة سبحانه وتعالى.

__ قال تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29) }.³ تَقْرِيرٌ لِلْإِنْكَارِ؛ وتأكيدٌ لَهُ مِنَ الْحَيْثِيَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ؛ غَيْرِ سَبْكُهُ عَنْ سَبْكٍ مَا قَبْلَهُ مَعَ اتِّحَادِهِمَا فِي الْمَقْصُودِ؛ إِبَانَةٌ لِمَا بَيَّنَّهُمَا مِنَ التَّفَاوُتِ؛ فَإِنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَوَاتِهِمْ مِنَ الْإِحْيَاءِ، وَالْإِمَانَةِ، وَالْحَشْرِ، أَدْخَلَ فِي الْحَثِّ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْكُفْرِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِمَعَايِشِهِمْ وَمَا يُجْرَى مُجْرَاهَا وَفِي جَعْلِ الضَّمِيرِ مُبْتَدَأً وَالْمَوْصُولِ خَبَرًا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى الْجَلَالَةِ مَا لَا يَخْفَى وَتَقْدِيمِ الظَّرْفِ عَلَى الْمَفْعُولِ الصَّرِيحِ لِتَعْجِيلِ الْمَسَرَّةِ؛ بَيَانِ كَوْنِهِ نَافِعًا لِلْمُخَاطَبِينَ وَلِلنَّشُوقِ إِلَيْهِ كَمَا سَلَفَ أَيْ: خَلَقَ لِأَجْلِكُمْ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ لِتَتَنَقَّعُوا بِهَا فِي أُمُورِ دُنْيَاكُمْ بِالذَّاتِ أَوْ بِالْوَاسِطَةِ وَأُمُورِ دِينِكُمْ بِالْإِسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى شُؤْنِ الصَّانِعِ - تَعَالَى شَأْنُهُ -؛ وَالْإِسْتِشْهَادُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى مَا يُلَايِمُهُ مِنْ لَذَاتِ الْأَحْزَةِ وَالْأَمْهَةِ وَمَا يَعُمُّ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ لَا

¹ - سورة البقرة: الآية [26]

² - الرّمخسري: الكشف، الجزء الأول، ص: 235.

³ - سورة البقرة: الآية [29]

نَفْسِهَا إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِهَا جِهَةُ السُّفْلِ كَمَا يُرَادُ بِالسَّمَاءِ جِهَةُ الْعُلُوِّ نَعَمْ.. يَعُمُّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةٍ مَا فِيهَا ضَرُورَةٌ وَجُودِ الْجُزْءِ فِي الْكُلِّ "جَمِيعًا" حَالٌ مِنَ الْمَوْصُولِ الثَّانِي مُؤَكَّدَةٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعُمُومِ فَإِنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ مَا فِي الْأَرْضِ - بَلْ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ - لَهُ مَدْخَلٌ فِي اسْتِمْرَارِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ النَّظَامِ اللَّائِقِ الَّذِي عَلَيْهِ يَدُورُ انْتِظَامُ مَصَالِحِ النَّاسِ أَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَعَاشِ فَظَاهِرٌ وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الدِّينِ فَلَمَّا أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ النَّظَرُ وَمَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ إِلَّا وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى الْقَادِرِ الْحَكِيمِ".¹

ومورد التوكيد؛ { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ } (ضمير التوكيد هو (مبتدأ) + الذي اسم موصول في محل رفع خبر + فعل + فاعل + جار ومجرور) / { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (واو استئنافية + مبتدأ + جار ومجرور + مضاف إليه + خبر)، توكيد صريح وإيدان بأنّ الخلق والملك جميعاً بيد الله ومن رحمته أنّه هياً جلّ الأسباب لمنفعة العباد ومصلحتهم.

_ قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) }.² أمة خياراً عدلاً، خصّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، وإنّما شرّع لك يا محمّد التوجّه إلى البيت المقدّس ثمّ صرّفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتّبّعك ويُطيعك ويستقبل معك حيثما توجّهت ممّن ينقلب على عقبيه، وإن كان هذا الأمر عظيم على النفوس إلّا على الذين هدى

¹ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 77

² - سورة البقرة: الآية [143]

اللّٰهُ قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرّسول وأنّ كلّ ما نزل هو الحقّ الذي لا ريب فيه".¹ وتقدير التّوكيد؛ { كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } (كانت+ اسمها ضمير مستتر تقديره هي+ اللام الفارقة+ كبيرة خبر كان+ إلا+ جار ومجرور في محل نصب على الاستثناء)؛ يُحيل إلى توجيه الخطاب للمؤمنين، وإيذانٌ بتشريف منزلة أمّة محمّد عليه الصّلاة والسّلام وعلوّ مكانتها فضلاً عن استعلاء نبوّته عليه السّلام وبُعد منزلته وكمال شأنه.

_ قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (164).² "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ بارتفاعها وانساعها، والأرض بجمالها وسهولها وبحارها، وفي اختلاف الليل والنّهار من الطّول والقصر، والظّلمة والنّور، وتعاقبهما بأن يخلف كلّ منهما الآخر، وفي السفن الجارية في البحار، التي تحمل ما ينفع النّاس، وما أنزل الله من السّماء من ماء المطر، فأحيا به الأرض، وما نشره الله فيها من كل ما على وجه الأرض، وما أنعم به عليكم من تقليب الرّياح وتوجيهها، والسّحاب المسيّر بين السّماء والأرض -إِنَّ فِي كُلِّ الدَّلَائِلِ السَّابِقَةِ لآيَاتٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ، وجليل نعمه، لقوم يعقلون مواضع الحجج، ويفهمون أدلّته سبحانه على وحدانيته واستحقاقه للعبادة".³

أورد الخطاب القرآني آيات عظيمة دالّة على عظيم قدرته وحكمته العجيبة ورحمته التي شملت كلّ شيء لمن يتفكّرون ويتدبرون بتعقّل، والاستناد على أسلوب التّوكيد { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

¹ - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، الجزء الأول، ص: 457.

² - سورة البقرة: الآية [164]

³ - ينظر؛ نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 25

وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ { (إِنَّ + خبرها (جار ومجرور) + مضاف إليه)؛ تأكيداً وإثباتاً لفراد الله بالخلق والتدبير، وبيان قدرته في الخلق ودقته في الإبداع، واستحقاقه بالتعظيم والإجلال.

وقد رأينا فيما تقدّم أنّ اللفظ لا يفصح عن ذاته بذاته، وإنّما بما يخلُق من علاقات، وبما يبنى من أنساق دالة مع بقية أركان البنية، وإن كان كذلك؛ وجب على الدارس الأسلوبى تجاوز ظاهر الأشكال اللفظية التي قد تكون غير مفصحة عن المعاني مباشرة إلى التفتيش عن عوامقها، من ذلك ما استدلّ به عبد القاهر الجرجاني من حيث تعلّق الفكر بالكلمة المفردة: "إِعْلَمَ أَنِّي لَسْتُ أَقُولُ أَنَّ الْفِكْرَ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَعْنَى الْكَلِمِ الْمَفْرَدَةِ أَصْلًا وَلَكِنِّي أَقُولُ إِنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مَجْرَدَةً مِنْ مَعْنَى النَّحْوِ، وَمَنْطُوقًا بِهَا عَلَى وَجْهِ لَا يَتَأَتَّى مَعَهُ تَقْدِيرُ مَعْنَى النَّحْوِ وَتَوْخِيْهَا فِيْهَا."¹ وإذا اعتبرنا أنّ الألفاظ أمارات المعاني وأوعية لها فالغاية إذاً؛ "من استعمال الألفاظ هو أن تستعمل مركبة وقد تعلّق معنى بعضها ببعض، وضمّ معنى بعضها إلى بعض".² واستناداً على ذلك فمعنى الكلمة المفردة لا يفصح إجمالاً عن معنى النصّ. وبالرجوع إلى نمطية الجملة يُستبين أنّ معنى التأكيد هو؛ "أنّ تُحقّق باللفظ معنى قد فهم من لفظ آخر قد سبق منك".³ يُرادُ به تقوية المعنى وإزالة ما يعتريه من لبس، من خلال الاستناد إلى جملة من الآليات النحوية والروابط الإسنادية.

¹ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 374.

² - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 416.

³ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 230.

3.1_ الجملة الاسمية في تركيبها المنفية: الجملة الاسمية المنفية هي الجملة المسبوقة بأداة من

أدوات النفي لنفي علاقة الإسناد بين المبتدأ وخبره.¹ ومن أنماط ورودها في سورة البقرة نلفي:

_قال تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } (8).² قال صاحب

الكشاف : " افتتح - سبحانه - بذكر الذين أخلصوا دينهم الله، وواطأت قلوبهم ألسنتهم، ووافق سرهم

علنهم، وفعلهم قولهم، ثم تثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً، قلوباً وألسنة، ثم ذم الذين آمنوا

بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وأبطنوا خلاف ما أظهروا. وهم الذين قال فيهم : (مُدْبِئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا

إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ) وسمّاهم المنافقين وكانوا أخبث الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده، لأنهم

خطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً، وبالشرك استهزاء وخداعاً، ولذلك أنزل فيهم: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ

الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) ووصف حال الذين كفروا في آيتين ووصف حال الذين نافقوا في ثلاث عشرة

آية، نعى عليهم فيها خبثهم، ومكرهم وفضحهم، وسفههم، واستجملهم، واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم،

وسجل بطغيانهم، ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة ".³

وورود هذا النوع من الأساليب المنفية إيجاز وصفي يلخص حال المنافقين وأحوالهم { وَمَا هُمْ

بِمُؤْمِنِينَ } (ما النافية تعمل عمل ليس + الضمير هم في محل رفع اسم ما) + خبرها جار ومجرور

شبه جملة؛) تصريح عن الذين ادّعوا الإيمان بأفواههم، وأظهروا غير ذَلِكَ تهكماً وعبثاً. فقد نفى

عنهم سبحانه التصديق بما أنزله، وبذلك فهذه الآية دلالة قطعية على بطلان ما يزعمون وفيه كذلك

نوعاً من التنبيه ووجوب الاحتراز من هؤلاء لمقدرتهم على إبداء الخير وإضمار الشر.

¹ - صبري إبراهيم السيد: لغة القرآن الكريم في سورة النور - دراسة في التركيب النحوي - ص: 125.

² - سورة البقرة: الآية [08]

³ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 35-36

— قال تعالى: { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177) }¹. ليس البر فيما أنتم عليه؛
وإنما البر فيما ثبينه،² { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ } (ليس + خبرها مقدم + أن حرف مصدري
ونصب + تولوا فعل مضارع منصوب بأن والجملة الفعلية اسم ليس مؤخر)؛ فالبر من هذا السياق
مصطلح جامع للعبادة الحقّة المزكية للنفوس والمقرّبة لرضوان الله. والاستناد لأسلوب النفي؛ نفي
فيما يعتقدون في أمر القبلّة بأن يُنال بالتوجّه إليها، وإنّما في ما فرضه الله تعالى بالإيمان الصادق
وابتغاء العمل الصالح من نهج السنن والفرائض، وقد جُمعت هذه الخصال تحقيقاً لأسمى الفضائل
الأخلاقية.

— قال تعالى: { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ
عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (198) }³. ثم بين - سبحانه -
أنّ التّزود بالزّاد الرّوحي لا يتنافى مع التّزود بالزّاد المادي متى توافرت التّقوى،⁴ وتأويل أسلوب
النفي { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } (ليس + جار ومجرور وشبه الجملة خبر
ليس + جناح اسمها مؤخر)؛ إباحة طلب الرّزق لمن هو في حاجة إلى ذلك في موسم الحج، بشرط
ألا يشغله عن أداء الفرائض، وفي ذلك ترخيص للمؤمنين بالتماس فضل الله عطاءً ورزقاً.

¹ - سورة البقرة: الآية [177]

² - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 362.

³ - سورة البقرة: الآية [198]

⁴ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 313- 314

- قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)}.¹ وليس من البر ما كنتم تفعلونه في الجاهلية من دخولكم البيوت من ظهورها عند إحرامكم أو عودتكم من حجكم، ولكن البر الحق الجامع لخصال الخير يكون في تقوى الله بأن تمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه، وإذا ثبت ذلك فعليكم أن تأتوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم أو رجوعكم من حجكم.² وقد تضمن أسلوب النفي أمر بإتيان البيوت من أبوابها {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا}؛ (ليس+اسمها+ والجملة الفعلية خبر ليس) وفي هذا إشعار بالامتثال لشرائع الله وأحكامه؛ بانقاء المحارم وزجر النفوس عن الشهوات.

والملاحظ أن الحنكة الفنية في الخطاب القرآني حنكة توليفية خلّاقة بمداليلها ومقتضياتها، فكل وحدة لغوية تتطلب لاحقتها لتكوين بنية النص، من خلال تلاحمها وتعاضدها التركيبي. وإنا لا ننكر فاعلية أدوات النفي لنفي معنى معين بمقابل إثبات معنى مقصود، وإسقاط اللبس عنه. ما يُدلي على العموم؛ أن فاعلية الجملة الاسمية في الخطاب القرآني ليست ثابتة سطحية وإنما بؤرية عميقة تستدعي التّريث وتعميق الفهم، للكشف عن دلائلها، وبتقديرنا فإن الكلمة تُحقق فنيّتها الآسرة ومنتقّسها الإبداعي من خلال ما تمده من دلالات وما ترسمه من تشكيلات مع بقية الوحدات اللسانية، أو بمعنى آخر ثمة سياق جمالي يربط الكلمة بالكلمة ويشدّ الجمل بعضها ببعض، فلا ترى إلا كتلة ملتحمة موحدة في غاية الاتزان والاستواء. وبالتالي فجمالية مبناه وصوغه التركيبي إنما يرجع إلى دقة نُظمه وترتيبه.

¹ - سورة البقرة: الآية [189]

² - ينظر؛ نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 29.

02_ الجملة الفعلية وتمظهراتها التركيبية؛ مثبتة، مؤكدة، منفية.

يتكوّن المُنجز الأسلوبي في الخطاب القرآني من فضائه اللّغوي، ويقدّر ما تكون الكلمة قادرة على تحقيق فاعليتها بقدر ما يكون التّلقي أكثر دافعيةً واستجابةً، فقوّة الكلمة تكمن في مدى إسهامها في إشغال العقل واستثارة الفكر، وبنية الخطاب لا تستغني عن خاصيّة التّعاقد النّسقي بين الوحدات الفعلية لِخُلُق الامتداد التّأملي والاستغراق الحسيّ والتّحفيز الدّهني. وبالنّظر إلى سورة البقرة فإنّنا نلّفي نمط ورودها على النّحو التّالي:

1.2- الجملة الفعلية في تركيبها المثبتة: "وهي التي صدرها فعل كقام زيد، والجملة المثبتة تحتفظ لصيغتي فعل ويفعل بزمانهما الذي أعطاهما النّظام الصّرفي، فيظلّ فعلٌ ماضياً ويفعلٌ حالاً أو استقبّالاً بحسب ما يُضامه من الأدوات كالسّين وسوف، ثمّ بحسب ما يعرض للزّمن في هاتين الصّيغتين من معاني الجهة التي تُفصّح عنها اصطلاحات البعد والقرب والانقطاع والاتّصال، والتّجدّد والانتهاء والاستمرار والعادة والبساطة..."¹ ومن أوجه ورودها على مستوى سورة البقرة نلّفي:

_ قال تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)}.

² استحوذَ عليهم الشّيطان فطبعَ الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة".³ { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } (فعل + فاعل + جار ومجرور + مفعول به) ؛ "استثنافٌ تعليليّ لما سبق من الحكم،

¹ - تَمَام حَسَّان: اللّغة العربية مبناها ومعناها، ص: 245

² - سورة البقرة: الآية [07]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 174

وبيان لما يقتضيه، أو بيان وتأكيده له، والختم على الشيء الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه.¹ فما
نُحِيلُه جملة الإثبات أن الله استوثق وغشي على أفئدتهم، وسدَّ سمعهم وأبصارهم عن الحق، فلا
ينفذ إليها الخير بسبب كفرهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق.

_ قال تعالى: { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } (276).² "يذهب
ويُحَرِّم عليه بركة ماله فلا ينتفع به، قال صلى الله عليه وسلم: ما من أحد أكثر من الربا إلا كان
عاقبة أمره إلى قلة".³ {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا} (فعل + فاعل + مفعول به) أي؛ يُنْقِصُهُ وَيُذْهِبُ بَرَكَتَهُ
ويزيد في الصدقات ويُضاعف أجرها. ومورد الجملة المثبتة استئناف لبيان جرم الربا وبيان لعاقبة
إيثار الصدقات بإنمائها ومضاعفة ثوابها.

_ قال تعالى: { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
الْأَلْبَابِ } (269).⁴ "يؤتي السداد والتوفيق في القول والعمل من يشاء من عباده، بموجب سعة
فضله وإحاطة علمه، ومن يُجْزَى بها فقد أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ينتفع به في الدارين".⁵ {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ
يَشَاءُ} (فعل + فاعل (ضمير مستتر) + مفعول به) أي؛ أَنْ الْهُدَايَةَ إِلَى السَّبِيلِ السَّوِيِّ، والطَّرِيقِ
الصَّحِيحِ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ وَرِزْقٌ عَظِيمٌ، يَهَبُهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. ووظيفة الجملة المثبتة على
مستوى هاته الآية تتلخص؛ في إبراز نفاسة ما يهبه الله لعباده لما يضمن استواء الذات والأمة
بالفطنة والرشد وسداد الرأي.

¹ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 37

² - سورة البقرة: الآية [276]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 713.

⁴ - سورة البقرة: الآية [269]

⁵ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 262.

_ قال تعالى: { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)}.¹ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب ويُعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم. ويأمر عباده بالصَّفح والعفو والاحتمال، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ...² { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } (فعل + فاعل + جار ومجرور + مضاف إليه)؛ حيثُ استُسيغت هاتِه الجمل بغاية التَّنبيه والصَّفح عن سوء جهلهم حتى يُقيم الله حكمه.

في سياق الحديث عن تركيبة الخطاب القرآني نُحيل أن بنيتِه؛ نسقيّة لسانية تَعْبُرُهَا شَتَّى إَحَالَاتٍ مرجعية وأسيفة خارجية ما يُتيح لنا فهمه والتَّنبؤ إلى حدٍّ ما بخواصه. وخلال مسائلتنا لهذا النموذج فإنَّا نصبو إلى التَّركيز على فاعلية الجملة الفعلية؛ كوحدة لسانية بنائية دالة؛ منها ما تُحيل إلى التَّجديد، التَّنبيه، الاستمرارية، الوعظ، التَّرجيب... على حسب السِّياق الذي تَنبَثِقُ منه وتورد فيه. ما يُؤكِّد إجمالاً بوعي تقنيّ مزدوج بين دقّة التَّركيب وبلاغة الدّلالة.

¹ - سورة البقرة: الآية [108]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 382

2.2_ الجملة الفعلية في تركيبها المؤكدة: من أنماط ورودها على مستوى سورة البقرة نلبي:

- قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) }¹ تذكر بنعمة الله على بني إسرائيل في شأن البقرة وبيان القاتل وإحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم... مستطردًا إلى صفاتها؛ { إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ }؛ أي لا هرمة ولا صغيرة وسط ذلك، لا ذلول تثير الأرض مسلمة من العيوب صافٍ لونها تسر الناظرين². فقد استسيغت هذه الآيات على سبيل توبيخ بني إسرائيل وتذكير بجنايات أسلافهم استعظامًا وتهويلًا لما أقدموا عليه، موظفًا في ذلك الوحدات الفعلية المؤكدة للواقعة ومجرياتهما؛ { أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً } (إن حرف مصدري ونصب + فعل مضارع منصوب بأن + مفعول به) / { إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) } (حرف شرط جازم + فعل ماضٍ في محل جزم فعل الشرط + لفظ جلاله فاعل + لام المزحلقة + خبر إِنْ)؛ فالاستشهاد بقصة موسى عليه السلام وقومه في متن الخطاب القرآني جسّد أبعاد معاناته وخلفياتها ورسم عصيان قومه وتمردهم، وحادثة البقرة وحيثياتها تمثل النّيمة

¹ - سورة البقرة: الآية [67-71]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 295

المحورية لهذا النموذج، قد أضفت هالة من التشويق والترهيب على سبيل التذكير بجرائمهم وكذلك على سبيل التوبيخ لما اقترفوه.

— قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)}.¹ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ بارتفاعها واتساعها، والأرض بجلالها وسهولها وبحارها، وفي اختلاف الليل والنهار من الطول والقصر، والظلمة والنور، وتعاقبهما بأن يخلف كل منهما الآخر، وفي السفن الجارية في البحار، التي تحمل ما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء المطر، فأحيا به الأرض، وما نشره الله فيها من كل ما دبَّ على وجه الأرض، وما أنعم به عليكم من تقليب الرياح وتوجيهها، والسحاب المسيَّر بين السماء والأرض -إن في كل الدلائل السابقة لآياتٍ على وحدانية الله، وجليل نعمه، لقوم يعقلون مواضع الحجج، ويفهمون أدلته سبحانه على وحدانيته، واستحقاقه وحده للعبادة".²

هاته الآية جامعة بين دلائل قدرته وعظيم نعمته أين تتحقَّق إدراك الغاية بتوحيده وإجلاله. وورود أسلوب التوكيد؛ {الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} (التي + فعل مضارع + الفاعل ضمير مستتر هي + جار وجرو...); استدلال على الخالق وعلى وجوب توحيده ودعوة الخلائق إلى التفكّر في آياته، والتدبّر في خلقه، وتذكير بعجائب فنونه وإتقان صنائعه واتساقها ما يُحيل حقًا

¹ - سورة البقرة: الآية [164]

² - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 25.

لعظمة الله في الخلق والإبداع، وفي ذلك أفصح أمانة على كماله وانفراده بالخلق والتدبير سبحانه وتعالى.

_ قال تعالى: { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ } (99).¹ "يا محمد لقد أنزلنا إليك علامات واضحات دالات على نبوتك وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا وسرائر".² فقد تضمنت الآية تأكيداً صريحاً { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ } (لام القسم + قد + الفعل + الفاعل + جار ومجرور)؛ بأن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم واضح الدلالة غني عن الارتياح ضابط الحدود والأحكام. وهو النبأ العظيم الذي لا يكفر به إلا جاحد.

_ قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ } (143)³.⁴ اجتنبى الله أمة محمد خياراً عذولاً لتشهد على الأمم يوم القيامة، وما صيرت الكعبة قبله إلا ليعلم من يصدقه ممن يرجع إلى كفره".⁴ وتأويل التأكيد { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ } (ما + فعل + فاعل + مفعول به + التي اسم موصول في محل نصب مفعول ثاني + فعل ماضي ناقص + التاء اسمها + جار ومجرور خبر كنت + إلا أداة حصر + لام التعليل + نعلم فعل مضارع منصوب بأن المضمرة والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن)؛ يُحيل إلى التفضيل والتخصيص أي تفضيل أمة محمد على باقي الأمم، وتخصيص المؤمنين منهم ببيت الله

¹ - سورة البقرة: الآية [99]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 344

³ - سورة البقرة: الآية [143]

⁴ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 454

الحرام، فقد تَوَجَّت بالاصطفاء والوسطية لذلك نالوا هذا الاستحقاق بأن يكونوا شهداء للأنبياء والرسل على أممهم يوم القيامة.

ومما تقدّم نستأنف القول أنّ؛ الوحدات الفعلية لتأكيد معناها وإثباته تستلزم الاستناد إلى جملة من الآليات والأدوات من ذلك ما ألفيناه في المثال الأول تواتر حروف النصب والاستقبال لسرد قصة موسى عليه السلام وشناعة قومه، أمّا في المثال الثاني فقد استندت الآي إلى ثلّة من الأسماء الموصولة لتصوير عظمة الخالق في الخلق والتصوير، أمّا في المثال الذي يليه فقد تمّ الاستهلال بلام القسم وقد للتّحقيق تأكيداً أنّ ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلّم هو الهدى، في حين أنّ المثال الأخير استند على أداة الحصر ليُبين من يتّبعه صلى الله عليه وسلم ممّن ينقلب.

3.2_الجملة الفعلية في تركيبها المنفية: وهي الجملة المسبوقه بأداة من أدوات النفي، لنفي

علاقة الإسناد بين الفعل وفاعله في زمن معيّن.¹ من أنماط ورودها على مستوى سورة البقرة نلّف:

_ قال تعالى: { أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) }.² قال الزجاج: لما ذكر الله في هذه السورة أحكاماً كثيرة وقصصاً ختمها بقوله: { أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ } تعظيماً لنبيّه صلى الله عليه وسلّم وأتباعه وتأكيداً وفذكلاً لجميع ذلك المذكور من قبل، يعني هذا انتقال من من المواظ والإرشاد والتّشريع وما تخلّل ذلك ممّا هو عونٌ على تلك المقاصد، إلى التّناء على رسوله والمؤمنين في إيمانهم بجميع ذلك إيماناً خالصاً يتفرّع عليه

¹ - صبري إبراهيم السّيد: لغة القرآن الكريم في سورة النور - دراسة في التّركيب النّحوي - ص: 133.

² - سورة البقرة: الآية [285]

العمل... فالجملة استئنافٌ ابتدائيٌّ وُضعت في هذا الموقع لمناسبة ما تقدّم¹. وتقدير أسلوب النفي؛ { لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ } (لا النافية + فعل مضارع والفاعل نحن + ظرف + مضاف إليه + جار ومجرور) إحالة عن تمام الامتثال والانقياد، وكمال الطاعة والرضا والقبول بما أنزله الله من العقائد والشرائع والسّنن والبيّنات.

_ قال تعالى: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِكْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } (286).² " بين - سبحانه - بعض مظاهر رحمته بعباده فقال: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا والوسع - كما يقول الرّمخسري -: ما يسع الإنسان، ولا يضيق عليه، ولا يخرج فيه، أي لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه. " ³ والجملة الفعلية { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } (لا النافية + فعل + لفظ جلالة فاعل + أداة حصر + مفعول به ثان)؛ إيجازٌ وصفيٌّ عن مظاهر رحمة الله وفضله، وقد أورد ذلك بصور مختلفة في قوله: { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } حيثُ كلفنا بما تتحمّله وتسعه قدرتنا، ولا تعجز عنه، وهذه إشارة في عدم وقوع التكليف والمشقة بما تفوق الطاقة في شرائع الله سبحانه وتعالى.

_ قال تعالى: { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } (120).⁴

¹ - الطاهر بن عاشور: التّحرير والتّنوير، الجزء الثالث، ص: 131-132

² - سورة البقرة: الآية [286]

³ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 503-504

⁴ - سورة البقرة: الآية [120]

فالإسلام هو الهدى بالحق، وما تدعون إلى إتباعه ما هو إلا هوى.¹ ولئن اتبعت أهواء هؤلاء بعد الذي جاءك من الوحي ما لك عند الله من وليٍ ينفعك، ولا نصير ينصرك، هذا موجه إلى الأمة عامة وإن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم.² وقد تضمنت الجملة الفعلية { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ } (أداة النفي + فعل مضارع + جار ومجرور + فاعل) نهياً شديداً وتحذيراً صريحاً، عن إتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص بعقائدهم، وإشعاراً بأن رضا الله يكمن في إتباع هداة.

_ قال تعالى: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } (24).³ "وإن كنتم في شك مما نزلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتزعمون أنه ليس من عند الله، فهاتوا سورة تماثل سورة من القرآن، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعيانكم، إن كنتم صادقين في دعواكم، فإن عجزتم فاتقوا النار ..."⁴ واستسيغ أسلوب النفي { وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ } (لن + فعل مضارع + فعل أمر + مفعول به) على سبيل التحدي والتعجيز، وفيه تشديد على إيلاهم وتحسيرهم على معاندتهم وإعراضهم.

- قال تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكَ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (56).⁵ واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن

¹ - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 316

² - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 19

³ - سورة البقرة: الآية [24]

⁴ - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 04

⁵ - سورة البقرة: الآية [55-56]

تجاوزتم حدودكم، وتعتنتم في الطلب، فقلتم لنبيكم موسى بجفاء وغلظة: لن نؤمن لك، ولن نقرّ بما جئتنا به، حتّى نرى الله عياناً وعلانية، فأخذتم جزاءكم - بسبب جهلكم وتناولكم - ثم منّا عليكم بلطفنا ورحمتنا فأحييناكم من بعد أن أخذتم الصّاعقة، لكي تشكروا الله على نعمه التي من جملتها إعادتكم إلى الحياة من بعد موتكم".¹

وأسلوب النّفي في هذا السياق: { لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً } (لن + فعل مضارع + الفاعل ضمير مستتر تقديره نحن + جار ومجرور + حرف غاية وجر + فعل مضارع منصوب بأن المضمرة + لفظ جلالة مفعول به + مفعول مطلق) يلخص مدى تعنّت بني إسرائيل وعنادهم، فأخذتهم الصّاعقة عقوبة لهم على ذلك، ليس على استحالة رؤيته بقدر تشدّدهم في المعارضة والشّرّك.

تتحقّق مقصدية القول في تركيبية فنية خاصّة، فمُعَايِنَةُ النّصّ بنظرة تجزيئية، تصوّر مشنّت، فالفكرة ليست إلّا في سائر أعضاء النّصّ، وبالنّظر إلى الأنموذج المقدّم نستشفّ أنّ فاعلية أسلوب النّفي تكمنُ في إثبات معنى معيّن بإزالة اللّبس عن فكرة مقصودة. فعلى مستوى المثال الأول { لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ } ما يُحِيلُ أنّ درجة الإيمان بتمام التّصديق بكافة الرّسل بدون استثناء. أمّا في المثال الذي يليه { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } إذعان صريح بمدى رحمة الله بعباده. والمثال الأخير { لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً } إيماءة على التّحدّي والمُعَارضة... وبالتالي استناد الخطاب القرآني على مثل هاته الأساليب تحمل عدة دلائل منها؛ التّأكيد، النّفي، الإثبات.

¹ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 106-107

03_ التركيب القرآني للجملة الإنشائية:

من المسلم به؛ أن الإستقراء الأسلوبى لا يتجرأ على أيّ فنّ قولي من دون التّوسّل بمضامين معرفيّة وآليات موثوقة، شأنها في ذلك شأن بقيّة العلوم. ولما كان الخطاب القرآني مُتطلبًا بحثيًا للمناهج المُستحدثة فإنّ أولى المنطلقات المبدئية تتوجه؛ صَوْبَ الاستثمارات الألسنيّة، والمُرتكزات التّراثية. ولم يكن ذلك ليُكونَ فرضًا منهجيًا على الدّارس الأسلوبى إلّا لِحِمَاية خُصوصيّة الظّاهرة اللّغوية عُمومًا والظّاهرة القرآنيّة بصورة استثنائيّة كونها أشدّ حساسيّة من جلّ الألسنة.

ومن خلال تنقيبنا عن جُملة العلاقات بين النّظرية الأسلوبيّة وبقية علوم اللّسان اتّضح لنا جليًّا: " أن اللّسانيات تتعهّد بدراسة العلامة اللّغوية لا من حيث هي غرض في ذاته، ولا من حيث هي جزء بمُفرده، ولكن من حيث هي عنصر مُكوّن لنظام متماسك، وهذه الدّراسة لا تقف عند تشخيص الفعل اللّغوي في مُستواه الأدائي، ولكن تأخذه في سِلْكِهِ الدّائريّ، إذ تهتمّ اللّسانيات بنشوء الحدث، وبلُوغ وظيفته، ثمّ بتحقّق مردوده (...) وهكذا يكونُ موضوع علم اللّسان؛ اللّغة في مظهرها الأدائي ومظهرها الإبلاغي وأخيرًا في مظهرها التّواصلِي.¹

ولذلك؛ تَحَتَّم على علم الأسلوب ونظريّاته، استيعاب البنى اللّسانية للظّاهرة الأسلوبيّة والإحاطة بِحُدُودها المعرفيّة، بل توجّب عليه أكثر تمديد نشاطه الإجماليّ إلى ما ورائيات الظّاهرة وفي كيفية ترابطها مع بقيّة العناصر المكوّنة للتّركيبة اللّسانية، فزمامُ التّشخيص العلمي للفنّ ليس في الظّاهرة المُجرّدة وإنّما في هويّة البناء الكلّي، وبناءً على هذا، وتقديرًا لقيمة الجملة ومركزيّتها في النصّ، حاولنا الصّعود إلى عتبتها إبرازًا وكشفًا لدلائلها المُتعالية.

¹ - يُنظر؛ عبد السّلام المسدي: مباحث تأسيسيّة في اللّسانيات، دار الكتاب الجديد المُتّحدة، الطّبعة الأولى،

1.3 فاعلية الأساليب الإفصاحية في توجيه المعنى: وهي التي تكشف عن موقف انفعالي وتُفصح

عنه. وتشتمل الجملة الإفصاحية على معاني المدح، الذم والتعجب...¹ من أنماط ورودها على

مستوى سورة البقرة نلفي:

_ قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)}.² "إيتاؤها سرًا أفضل من إظهارها لأنه أبعد عن الرياء والاشتباه، إلّا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية".³ فنعم البرّ إيدأوه وإعلانه، لأنه يُزيل الشبهة ويدعو إلى الاقتداء به، وصيغ هذا الأسلوب بمدح الإبداء بقوله {فَنِعِمَّا هِيَ} للإحالة أنّ صدقة الجهر متى دُفعت لمُستحقّيها بنية خالصة كان الأمر أفضل، أمّا صدقة السرّ فقد أثنى الله على صاحبها بقوله: {وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} لأنّها أبعد عن الرياء وسترا على مُستحقّيها، وبذلك؛ أُستسيغ أسلوب المدح بدلالاتي الترغيب في الإسرار والترهيب من الإبداء في حالة ما إذا مسّته شبهة الرياء والسّمة.

_ قال تعالى: {يُسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)}.⁴ "استئناف لدمهم وتسفيه رأيهم إذ رضوا لأنفسهم الكفر وأعرضوا عن النظر فيما اشتملت عليه كتبهم، إرضاء لداعية الحسد وهم يحسبون أنّهم مع ذلك قد استبقوا أنفسهم على الحقّ إذ كفروا بالقرآن؛ فهذا إيقاظٌ لهم

¹ - صبري إبراهيم السّيد: لغة القرآن الكريم في سورة النور - دراسة في التركيب النحوي - ص: 195

² - سورة البقرة: الآية [271]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 701-702

⁴ - سورة البقرة: الآية [90]

نحو معرفة داعيهم إلى الكفر وإشهار لما ينطوي عليه عند المسلمين.¹ أي؛ قُبِحَ ما اعتاضوا لأنفسهم، فأنجروا إليه وعدلوا عن تصديق محمد عليه الصّلاة والسّلام ونُصرتَه، وإنّما ساقهم إلى ذلك الحسد والضّغينة أن يُنزل الله من فضله على من يجتبيه من عباده. وجُملة الذّم في هذا السّياق مخصوصة للذين استبدلوا الحقّ بالباطل.

_ قال تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِنَسَمَا يَا مَرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) }.² " أنتم تدعون الإيمان وتمدحون بالدين الحقّ، وأنتم قتلتم أنبياء الله واتخذتم العجل إلها من دون الله، لما غاب عنكم موسى نبيّ الله ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلّا بعد التّهديد ورفع الطّور فوقكم فالتزمت بالقول ونقضتم الفعل.³ فبئس الإيمان الدّاعي إلى المعصية وقُبِحَ ما يُمليه عليكم. فجُملة الذّم هنا من باب التّوبيخ والتّهكم بعقولهم، وتنبّيهاً على عظيم جرّهم.

_ قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) }.⁴ " إذ دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله الله بلدًا آمنًا، ويرزق أهله من أنواع الثّمرات، " ثم قيّد عليه السّلام هذا الدعاء للمؤمنين، تأدّبًا مع الله، إذ كان دعاؤه الأول، فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيّدًا بغير الظّالم. فلمّا دعا لهم بالرزق، وقيّده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملًا للمؤمن والكافر، والعاصي والطّائع، قال تعالى: وَمَنْ كَفَرَ أَي: أرزقهم كلّهم، مسلمهم وكافرهم، أمّا المسلم فيستعين بالرزق

¹ - ابن عاشور: تفسير التحرير والتّوير، ص: 603-604

² - سورة البقرة: الآية [93]

³ - عبد الرحمن بن ناصر السّدي: تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المتّان، ص: 59

⁴ - سورة البقرة: الآية [126]

على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر، فيتمتع فيها قليلاً ثم أضطره أي: ألجئه وأخرجه مكرهاً إلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.¹ فمن حكمته سبحانه أن يكون الانقياد والاستسلام اختيارياً لكن بالمقابل يهيئ كل الظروف والأسباب التي تدفعك إلى الاستواء. وتخصيصُ الذم في هذا السياق { وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } للذين إنساقوا وراء كفرهم، فبئس مستودعهم ومصيرهم.

_ قال تعالى: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (28).² "يقولُ تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده كيف تكفرون بالله، أيّ تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره وكنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود ثم يُميتكم ثم يُرجعكم إليه يوم الحساب."³ التّعجب في هذا السياق للتوبيخ والإنكار والتّهويل من كفرهم، رغم نزول الحجة وإقامة البرهان.

_ قال تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } (175).⁴ فأولئك الذين اختاروا الضلالة على الهدى والعذاب على المغفرة فما أجراًهم على النار؟⁵ صيغ هذا الأسلوب التعجبي على تنزيل غير واقع منزلة الواقع لهول مطلعه وتعظيم حدوثه، فكيف يصبرون عليها وأنّى لهم الجلد عليها؟ وبالتالي سيق هذا التمثيل على سبيل التهديد والتّهويل.

¹ - عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 66

² - سورة البقرة: الآية [28]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 212

⁴ - سورة البقرة: الآية [174]

⁵ - ينظر؛ أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 192

فما يُلاحظ على مستوى هاته النماذج أنَّ موردَ الجملة الإفصاحية لا يوضع إلا لغرضٍ معيّن. فقد استتبع المدح على سبيل القبول والاستحسان، أمّا الدّم فتنبه إلى القبح والنفور، في حين أنَّ التّعجب له عدة تأويلات كالاستفهام، الإنكار، التّهويل التّعظيم... وبذلك؛ المعاني التي يعدل إليها الأسلوب القرآني ذات مقصدية ومرجعية في الآن ذاته تُستوحى من السياق، فضلاً عن نمطية اشتغال تراكيبيها. وبالتالي ما سيضمن تكوين الخطاب هو؛ التّناسق الفنّي بين المقننات الدّلالية والأبنية التّركيبية. وما سيُعقّل المعنى وحركيته؛ انتظام تنقلاته واسترساله الأدائي. وليس القصد هنا مطابقة اللفظ للمعنى وإنّما مُساوغة المبنى لمبتغى الخطاب ومقاصده.

2.3_ فاعلية الأساليب الطّلبية في توجيه المعنى: الجملة الطّلبية؛ " وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطّلب لامتناع تحصيل الحاصل.¹ من أنماط ورودها على مستوى سورة البقرة نلفي:

***جملة الأمر:** ويُقصد بها؛ "طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام".² من صيغته:

الدّعاء؛ قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ

¹ - عرفات فيصل المتاع: السياق والمعنى - دراسة في أساليب النّحو العربي - منشورات الاختلاف، الطبعة

الأولى، الجزائر، 2013م، ص: 175

² - المرجع نفسه، ص: 178

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129){. ¹ أَسْتُسِيغَتْ هَاتِهِ الْآيَاتُ بِصَيِّغِ فِعْلِ الْأَمْرِ (إِجْعَلْ / وَارْزُقْ / تَقَبَّلْ /

اجْعَلْنَا / وَارِنَا / وَتُبْ / ابْعَثْ) لَكِنِ الدَّلَالَةُ الضَّمْنِيَّةُ تَتَحَوُّ مَنحَى الدَّعَاءِ؛ أَيْ الدَّعَاءُ بِتَحْقِيقِ الْأَمْنِ

والبسطة والتوسعة في الرزق ما يفتح باب الاستقرار ويهيئ ظروف الطاعة في البيت الحرام.

_ قال تعالى: { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي

وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ

أَمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ

عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250){. ² فالغرض الأسلوبى من هذه الآية

الدَّعَاءِ، فاستسيع فعل الأمر (أفرغ/ ثبَّت/ انصُرْنَا) على سبيل الاستغاثة والتضرع.

التَّوَجِيهِ؛ قال تعالى: { فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152){. ³ ينجلي على متن هاته

الآية أَنَّ اللَّهَ تعالى كَلَّفَنَا بَأْمَرَيْنِ " الذِّكْرَ وَالشُّكْرَ بِالنِّسَاءِ وَالنَّعْظِيمِ وَالتَّدْبِيرِ فِي الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى

أَلُوْهِيَتِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي تَكَالِيفِهِ وَأَحْكَامِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالرَّخَصِ، وَالتَّمَعْنِ فِي أَسْرَارِ خَلْقِ

مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ... مُلْخَصَهُ أَذْكُرُونِي بِالطَّاعَةِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّوَابِ. ⁴ وبالتالي أفعال الأمر (فَادْكُرُونِي /

وَاشْكُرُوا / وَلَا تَكْفُرُونِ) قد لخصت أصول الطاعات وموجبات النِّسَاءِ وكمال الاختصاص

بالتَّوْحِيدِ، ما يُحِيلُ إِلَى التَّهْذِيبِ وَالتَّوَجِيهِ؛ بِالْوُقُوفِ عَلَى الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى تَكَالِيفِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَالتَّدْبِيرِ

¹ - سورة البقرة: الآية [129-126]

² - سورة البقرة: الآية [250-249]

³ - سورة البقرة: الآية [152]

⁴ - ينظر؛ أبو السَّعُود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 179

في أسرار الخلق وعظيم قدرته سبحانه، والذكر بالتوحيد والثناء والحمد على وافر نعمه وسلطان رحمته.

_ قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (254).¹ صيغة هذه الآية " أظهر في إرادة عموم الإنفاق المطلوب في الإسلام، فالمراد هنا أعم من الإنفاق في سبيل الله للانتقال إلى الأمر بالصدقات الواجبة وغيرها، فقوله: { مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ } حثٌّ على الإنفاق واستحقاق فيه، أما قوله: { مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ } لَا بَيْعَ فِيهِ { تنبيه آخر لأنه يأتي وقت وتنتهي الأعمال إليه ويتعذر الاستدراك فيه.² ما يدلي على التَّعْجِيل بالإنفاق والتذكير بوجوب ذلك قبل أن يأتي يوم لا يمكن استدراك ما يضيع. وقد استسيع هذا الأسلوب بصورة تُبرز فيها لطف الله على عباده، فجمع بين التَّغْيِيب في الإنفاق والتَّهْيِيب من الإمساك، ليكون لهم دُخْرًا وأجرًا موقَّرًا يُفْتَدَى به.

التَّهْدِيدُ؛ قال تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } (47) وَأَنْفِقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ } (48).³ كَرَّرَ التذكير؛ " للتأكيد والإيذان بمدى غفلتهم عن القيام بحقوق النعمة، وليربط ما بعده من الوعد الشديد به، ولتتم الدعوة بالتَّغْيِيب والتَّهْيِيب".⁴ والغرض من توظيف أسلوب الأمر (اذْكُرُوا / وَأَنْفِقُوا) الوعظ والوعيد والتذكير بواجب الشكر والامتنان لما أسبغه الله عليهم من نعيم فضله.

¹ - سورة البقرة: الآية [254]

² - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير ، الجزء الثالث، ص: 13-14

³ - سورة البقرة: الآية [48-47]

⁴ - ينظر؛ عبد الرحمن بن ناصر السَّعْدِي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المَنَان، ص: 51-52

— قال تعالى: { سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211) }¹.

" المأمور بالسؤال هو الرسول عليه السلام، لأنه الذي يترقب أن يجيبه بنو إسرائيل عن سؤاله، والمراد بالسؤال سؤال التقرير للتقرير ولفظ السؤال يجيء لما تجيء له أدوات الاستفهام، والمقصود من التقرير إظهار إقرارهم لمخالفتهم لمقتضى الآيات، فليس المقصود تصريحهم بالإقرار بل مجرد كونهم لا يسعهم الإنكار".² وبالتالي الغرض من الاعتماد على هذا الأسلوب { سَلْ } التهديد والوعيد وإقرار نُكرانهم رغم ما أنزله الله من دلائل.

وتلخيصًا لما سلف ذكره؛ حول إبلاغية أسلوب الأمر، فإننا نشير أن مقاصده تختلف باختلاف أحكامه ومضامينه بالنظر كذلك إلى علاقاتها المباشرة مع ذات الأمر والمتلقي. وإن كان الأمر حقيقي يُصاغ على وجه الاستعلاء فإنه قد يخرج في مواضع عدّة عن ذلك. فالأصل في فعل الأمر الانقياد والوجوب لكن بالرجوع إلى متن الخطاب فإننا نلفيه قد عدل عن ذلك إلى أغراض مختلفة كالوعظ مثلاً أو التوجيه أو الدعاء...

*جملة النهي: " طلب الكفّ على جهة الاستعلاء".³ من صيغته في سورة البقرة نلفي:

الأمر؛ قال تعالى: { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188) }.⁴ نهى عن أكل بعضهم أموال بعض، بالوجه الذي لم يبيحه

¹— سورة البقرة: الآية [211]

²— أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 213

³— عرفات فيصل المناع: السياق والمعنى، ص: 179

⁴— سورة البقرة: الآية [188]

اللّٰه سبحانه وتعالى. ولا تلقوا حُكومتها إلى الحُكَّام لتأكلوا بالتَّحَاكُم إِلَيْهِمْ، بما يُوجب الشَّهادة إنَّمَا كشهادة الزُّور واليمين الكاذبة، أو متلبَّسين بالإثم وأنتم تعلمون أنكم مبطلون، فارتكاب المعاصي مع العلم بها أقبح وأشنع".¹ والمُرَادُ بالنَّهي هنا، عدم الأخذ بغير حقِّ والتَّصرُّف في حرمة الآخر بالباطل، والحكمة من وراء ذلك إصلاح المعاملات والحفاظ على حرمة القضاء ومبادئه.

قال تعالى: { وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221) }.² أي " لأمة مؤمنة مع ما بها من خسارة الرِّقِّ وقلة الخطر خيرٌ من مشركة ولو أعجبتكم، تعليلٌ للنَّهي عن مواصلتهم وترغيبٌ في مواصلة المؤمنين، { وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ } والمُرَادُ الكفار على الإطلاق حتى يؤمنوا ويتركوا ما هم فيه من كفر، ولعبدٌ مؤمنٌ خير ولو أعجبكم ، أولئك يَدْعُونَ من يُعاشِرهم إلى النار".³ فيه نوعٌ من التَّحبيب للمؤمنات والمؤمنين، وترهيب من مُعاشرة المشركين لما يدعون إليه.

التَّوَجِيه؛ قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) }.⁴ من المراعاة؛ المبالغة فيالرعي وهو حفظ الغير وتدبير أموره، وتدارك مصالحه،⁵ " كان المسلمون يقولون لرسول الله إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله أي راقبنا وانتظرنا، تأنّ بنا حتّى نفهمه ونحفظه، وكانت لليهود كلمةٌ يتسابَّون بهم، وهي راعينا، فلمّا سمعوا

¹ - أبو السَّعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 202

² - سورة البقرة: الآية [221]

³ - أبو السَّعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 221

⁴ - سورة البقرة: الآية [104]

⁵ - أبو السَّعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 141.

بقول المؤمنين: راعنا، افترصوه وخاطبوا به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم يعنون به تلك المسببة. فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما في معناها. وهو أنظرنا، {وَأَسْمَعُوا} وأحسنوا سماع ما يُكَلِّمكم به رسول الله بأذان واعية وأذهان حاضرة".¹ وتمتثل معالم هاته الآية في النهي عن التشبه بالكفار وعدم التنقيص من قدر الرسول وإيذائه صلى الله عليه وسلم تقديراً وتعظيماً لشأنه.

_ قال تعالى: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُموهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (193) }² أي؛ "جاهدوا لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، الذين يُناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصب من الشيوخ والصبيان والنساء، {وَلَا تَعْتَدُوا} بابتداء القتال أو قتال ما تُهَيِّم عن قتاله من النساء والصبيان، والذين بينكم وبينهم وعد، ولا في الحرم حتى يُقاتلونكم."³ ومبلغ النهي في هذا السياق؛ الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق حتى يكون أهله أعراء كرماء، وهذا دفع ودعوة إلى الجهاد من أجل نصره الحق وإثباته.

الإرشاد؛ قال تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119) }.⁴ لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشّر وتندرر ولست بعد ذلك مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم، ولست مسؤولاً عن عدم اهتدائهم فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ، وفي وصفهم بأنهم أصحاب الجحيم، إشعار بأنه قد طبع على قلوبهم، فصاروا لا يُرجى منها الرجوع عن

¹ - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 308.

² - سورة البقرة: الآية [190-193]

³ - الرّمخشري: الكشف، الجزء الأول، ص: 308.

⁴ - سورة البقرة: الآية [119]

الكفر، أمّا قوله: «بشيراً ونذيراً» تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم حيث لم يؤمن به أولئك الجاحدون المتعنتون.¹ فقد استسيغ هذا النوع من المواساة بصيغة النهي { وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ }؛ إيداناً منه عن الجزاء المطلق للكفار ووعد شديد لهم، لتماديهم في الإصرار على الكفر، ونهي النبي صلى الله عليه وسلم، عن السؤال عن حالهم إن أصرّوا على استكبارهم ونفورهم، فمسؤوليته تستدعي الإبلاغ والإرشاد. والله المعين

_ قال تعالى: { وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) }.² والمقصود من هذه الجملة؛ تبكيّتهم على مسارعتهم في الكفر، واستعظام وقوع الجحود منهم، وتوعدهم عليه بسوء المآل. قال الإمام الرّازي: (هذه الجملة خطاب لبني إسرائيل قبل غيرهم فكأنه - سبحانه - يقول لهم : لا تكفروا بمحمد، فإنّه سيكون بعدكم كفرة، فلا تكونوا أنتم أولهم لأنّهذه الأوليّة موجبة لمزيد الإثم، وذلك لأنّهم إذا سبقوا إلى الكفر، فإمّا أن يقتدى بهم غيرهم أولاً ، فإن اقتدى بهم غيرهم كان عليهم وزره ووزر كلّ كافر إلى يوم القيامة، وإن لم يقتد بهم غيرهم، اجتمع عليهم أمران : السبق إلى الكفر، والتفرد به وكلاهما منقصة عظيمة، وتؤدّي إلى العاقبة الوبيلة³. ودلالة النهي تفيد إجمالاً؛ التحذير والإرشاد والوعيد من كتمان الحق وإظهار خلافه.

ومبلغ أسلوب النهي على حسب النماذج المقدّمة تختلف دلالتها على حسب المقصد والسياق، يمكن أن نلخصها إجمالاً في؛ دلالة الأمر، التوجيه، الإرشاد، التهذيب... وبالتالي فوظيفته

¹ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 183-184

² - سورة البقرة: الآية [41-42]

³ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 86-87

تتلخص في طلب الكفّ عن أمر معيّن على وجه الاستعلاء. والعلاقات التركيبية في الخطاب القرآني - كما هو متعارف عليه - تطمح للتكوين الأمثل لبنيته، ما أمكننا الحُسان أنّ النظر للأداء اللغوي في مستواه التركيبي أساس إدراك القيم الدالة لمقاصده، والقيم الجمالية لألياته. وبالنظر إلى فاعلية أسلوب النّهي في تركيبته فإنّها تتألف فنّيًا وبلاغيًا مع مقتضاها الصّوتي ما يحقّق انسجامها النصّي والتّشكلي.

***جملة النداء:** هو المطلوب إقباله مطلقًا وفي اصطلاح النّحاة هو المطلوب إقباله بـ "يا" أو إحدى أخواتها.¹ *من أنماط ورودها في سورة البقرة نلّف:

_ قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

(184).² "تعظيم لفريضة الصّيام وأصالتها، وتأكيد للحكم وترغيب الأنفس فيه".³ والغرض من هذا الأسلوب الطّلبّي تعظيم حدود الله في الصّيام وإثارة التّركيب والهمة لاجتتاب التّفصيل في أدائه مع تفصيل عوارض الامتناع.

¹ - محمد محي الدين عبد الحميد: التّحفة السّنية بشرح المقدّمة الأجروميّة، إدارة الشؤون الإسلامية، د. ط، قطر،

2007م، ص: 168

² - سورة البقرة: الآية [183-184]

³ - أبو السّعود: إرشاد العقل السّليم، الجزء الأول، ص: 198

_ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (172).¹ "هذا أمر للمؤمنين خاصة، بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوى بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا} فالشكر في هذه الآية، هو العمل الصالح، وهنا لم يقل "حلالاً" لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له".² الخطاب هنا للمؤمنين خاصة، متضمنًا الأمر بالتمتع بما أحله الله من مستلذات الدنيا واجتناب خبائثها.

_ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (178).³ "يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بأنه فرض عليهم القصاص في القتل أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة، التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد".⁴ وتوجيه النداء للمؤمنين عمومًا ينص على القصاص، فرضًا والزماً عند مطالبة صاحب الحق، إقامة للقسط وحفظاً للذات البشرية.

¹ - سورة البقرة: الآية [172]

² - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 190.

³ - سورة البقرة: الآية [178]

⁴ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 106-107

_ قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208) }.¹ أي الاستسلام والطاعة بإتباع شعب الإسلام وشرائعه، وأن لا يخلو بشيء منها.² وتضمن أسلوب النداء معنى الاستسلام لله تعالى وطاعة أمره سرًا وعلانية، والزجر عناتباع مسالك الشيطان.

_ قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267) }.³ بيان لحال ما ينفق منه إثر بيان أصل الإنفاق وكيفيته، أي أنفقوا من حلال ما كسبتم، ولا تقصدوا الخبيث قاصدين به الإنفاق.⁴ انطوى هذا الأسلوب على أمر أسند فيه؛ آداب الإنفاق وقيمته، ووجوب تأديتها لكن بوجه مستحب، امتثالاً لأوامره سبحانه وتعالى.

والغاية إذاً؛ من الاستناد إلى هذا النوع من الأساليب الطلبية ليس للفت الانتباه بقدر تخصيص النداء إلى مُنادى مُعين يتضمن رسائل عدّة إما الأمر أو التوجيه أو الوعظ أو الإخبار...

* **جملة الاستفهام:** أسلوب يطلب به العلم بشيء مجهول.⁵ * من أنماط وروده في سورة البقرة نلفي:

الإنكار: نحو قوله تعالى: { أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ

¹ -سورة البقرة: الآية [208]

² - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 418

³ -سورة البقرة: الآية [267]

⁴ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 261

⁵ - عبد الكريم محمود يوسف: أسلوب في القرآن الكريم، مكتبة الغزالي، الطبعة الأولى، دمشق، دت، ص: 08

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266)}.¹ اشتملت الآية على مَثَلٍ لحالة الذين يبطلون أعمالهم بالمن والأذى والرياء، وغير ذلك من الأفعال القبيحة والصفات السيئة فقد شبهه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الحسنة ثم يضم إليها ما يفسدها فإذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة ذاهبة، شبه هذا الإنسان في حسرته وألمه وحزنه بحال ذلك الشيخ الكبير العاجز الذي له ذرية ضعفاء لا يملك سوى حديقة يانعة يعتمد عليها في معاشه هو وأولاده فنزل عليها إعصار فيه نار فأحرقها ودمرها تدميرًا".² وقد ورد الاستفهام في سياق الإنكار والإرشاد بين الحق والباطل، وهذا ضرب من الترغيب في الإخلاص، والترهيب من السمعة والرياء.

__ قال تعالى: { وَقَالُوا وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) }.³ "وقال بنو إسرائيل: لن تصيبنا النار في الآخرة إلا أيامًا قليلة العدد. قل لهم -أيها الرسول مبطلا دعواهم-: أعندكم عهد من الله بهذا، فإن الله لا يخلف عهده؟ بل إنكم تقولون على الله ما لا تعلمون بافتراءكم الكذب".⁴ قد ساق القرآن الكريم الرد عليهم بصيغة الاستفهام لزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وقد صيغ للإنكار والمراد به التنبيه والتوبيخ، لما فيه من إجلاء للحق وإبطال زعمهم.

التعظيم: من ذلك نلفي، قوله تعالى: { صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) }. قوله تعالى؛ "صبغة الله قال ابن عباس في رواية الكلبي وقتادة والحسن: "دين الله"، وإنما

¹ - سورة البقرة: الآية [266]

² - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 457-458

³ - سورة البقرة: الآية [80]

⁴ - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 12

⁵ - سورة البقرة: الآية [138]

وإنّما سمّاه صبغة لأنّه يظهر أثر الدّين على المتديّن كما يظهر أثر الصّبغ على الثوب".¹ الاستفهام في قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} للتّعظيم و الإنكار والنّفي، والتّقدير لا يوجد أحسن وأفضل من ملّة الله بأخلاقياته وشرائعه.

_ قال تعالى: { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245) }.² "فقد جمع هذا التّعبير بين اسم الإشارة والاسم الموصول في الاستفهام، ولا يستفهم بتلك الطريقة إلّا إذا كان المقام ذا شأن وخطر، وكان المخاطب لعظم قدره من شأنه أن يشار إليه وأن يتحدّث عنه ومن ذلك تسميته ما يبذل البازل قرضًا، ولمن هذا القرض إنّه الله الذي بيده خزائن السّموات والأرض والذي سيرد للبازل أضعاف ما بذل، فكأنّه- سبحانه- يقول لنا: إنّ ما تدفعونه لن يضيع عليكم بل هو قرض منكم لي، وسأردّه لكم بأضعاف ما دفعتم وأعطيتكم".³ الحثّ على القرض الحسّن بشرط إخلاص النّية وتحرّي الحلال، وإنّما يتقبل الله العمل ويضاعفه لمن قصد به وجهه وطلب فضله، وفي هذا تعظيم للإنفاق في سبيل اللّهُوترغيب فيه.

التّعجب: كقوله سبحانه: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) }⁴ " قول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهّمه البعض، وإنّما هو استفسارٌ عن الحكمة في ذلك".⁵ قد ورد هذا الاستفهام التّعجّبي على وجه

¹ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 201.

² - سورة البقرة: الآية [245]

³ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 414

⁴ - سورة البقرة: الآية [30]

⁵ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 70

الاستعلام من جهة ومن جهة أخرى لتخصيص التقديس وتأكيد الإخلاص، أما الرد حول الحكمة البالغة في خلقهم فايدان بشأن المجهول وإبراز لفضله.

_ قال تعالى: { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259) }¹ أو هل رأيت مثل الذي مرَّ على قرية قد تهدمت دورها، وخوت على عروشها، فقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام، ثم ردَّ إليه روحه، وقال له: كم قدر الزمان الذي لبثت ميتًا؟ قال: بقيت يومًا أو بعض يوم، فأخبره بأنه بقي ميتًا مائة عام، وأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه، وكيف حفظهما الله من التغير هذه المدة الطويلة، وأمره أن ينظر إلى حماره كيف أحياه الله بعد أن كان عظامًا متفرقة؟ وقال له: ولنجعلك آية للناس، أي: دلالة ظاهرة على قدرة الله على البعث بعد الموت، وأمره أن ينظر إلى العظام كيف يرفع الله بعضها على بعض، ويصل بعضها ببعض، ثم يكسوها بعد الالتئام لحمًا، ثم يعيد فيها الحياة؟ فلما اتضح له ذلك عيانًا اعترف بعظمة الله، وأنه على كل شيء قدير². ونقدير الاستفهام التعجبي؛ استغرابًا واستبعادًا لذلك، وجهلاً بقدرة الله، كيف سيحيي الله هذه القرية بعد خرابها؟ فتبَّت ما جهله، وجعله الله آية على إنفراد الله بالخلق والإحياء والبعث.

¹ - سورة البقرة: الآية [258]

² - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 29.

وبالتالي تكمن فاعلية التّضافر التّركيبيّ للوحدات اللّغويّة في توجيه إستراتيجية الخطاب تبعاً لمُحدّداته، باعتبار أنّ الخطاب "مبني على كئلتين، الأولى تمثّل المنطوق، وهو مقصد النصّ ومعناه الحرفي الذي يجب أن يحترم، والكتلة الثّانيّة وهي التي تمثّل المكوّنات الخفيّة لدلالة المنطوق، وتعتمد على قدرته الموضوعيّة والمرجعية في تحقيق قدرة الاقتضاء"¹. وبالنّظر إلى فاعلية أسلوب الاستفهام في الخطاب القرآني يُستبين أنّه قد استسيع لأغراض عديدة لا يمكن حصرها في نماذج معيّنة. من دلائله؛ التّعظيم، الإنكار، التوجيه، التذكير، التّعجب...

¹ - عصام شرتج: النقد الجمالي بين سلطة النصّ وسلطة التلقّي، دار الخليج، الطبعة الثّانية، عمان، 2017م،

ص:70* نقلا عن؛ كروم أحمد: مقاربات نظرية في الربط الحجاجي لبنية الاقتضاء، مجلة عالم الفكر، ص:

04_ التّركيب القرآني للجملة الشرطية:

أنّ نحتكم إلى المعطى اللّساني لترصد البنى التركيبية وما لها من وظائف دلالية وقيم تعبيرية منهُجاً لا غنى عنه؛ "فالدّلالة التركيبية تتعلّق بالمهام والأدوار التي تؤديها المكوّنات داخل بنية الخطاب، من حيث تصنيفها وإيضاح كيفية انبائها وبيان العلاقات التي تربط عناصر بنائها، سواء كانت تلك العلاقات لفظية أم معنوية، وطبيعة النمط التركيبى لكلّ نوع من أنواع الجملة."¹ فهي متعلّقة ببنية الجملة، فتغدو القرائن اللّغوية هي الوسائل الكاشفة للمعنى التركيبى... تنتج عن طريق النّظم، بضمّ وحدات التّركيب وتسييقها. من ذلك الاستناد على التّركيب الشرطي، والذي بدوره يبنّي على وحدة دالّة فيها طرفان، ثانيهما معلّق بمقدّمة يتضمّنهما الأول، "وله أدوات متعدّدة؛ إن، لو، إذ، من...² من أنماط ورودها على مستوى سورة البقرة نلّفى:

_ قال تعالى: { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)}.³ "أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ؛ المراد به اتّجه إليه، وأذعن لأمره، وأخلص له العبادة، وأصل معناه؛ الاستسلام والخضوع."⁴ حرفُ بلى يذكر في جملة الجواب للإثبات؛ إثبات ما نفوه، وهو عدم

¹ - عبد القادر عبد الجليل: علم اللّسانيات الحديثة، دار صفاء للطباعة والنشر، دط، عمان، 2002م ص: 258.

² - ينظر؛ صبري إبراهيم السيّد: لغة القرآن الكريم في سورة النّور، ص: 239

³ - سورة البقرة: الآية [112-111]

⁴ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 172-173

دخول غيرهم الجنة ممن لم يكن من اليهود والنصارى، فليس كما يدّعون وإنما من أخلص لله وهو مُحسنٌ في العبادة، فله أجرُ النعيم والثواب الأزلي.

_ قال تعالى: { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (117).¹ أي : "خالقهما على غير مثال سبق".² إبرازٌ لمظاهر قدرة الله في الخلق والإبداع من دون احتذاء ولا اقتداء. متضمنًا معنى الشرط {وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} فإن أراد إحداث أمر من الأمور وقدره فإنه سيكون مُقدّرًا في أوانه.

_ قال تعالى: { بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } (82).³ "فَحُكْمُ اللَّهِ ثابت، قد شرّعه الله، أن من كفر بالله وعمل سيئًا واستولت عليه خطاياهُ حتّى صار لا يخلو منها أولئك في النار خالدون لا يبرحونها".⁴ وجملّة جواب الشرط؛ إبطال لافتراءهم، وإثبات لما نفوه، على وجه يشملهم ويشمل كلّ من يتّبعهم.

_ قال تعالى: { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَقَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ } (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (199).⁵ ليس عليكم حرج في أن تطلبوا رزقًا من

¹ - سورة البقرة: الآية [117]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 396

³ - سورة البقرة: الآية [82-81]

⁴ - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 12.

⁵ - سورة البقرة: الآية [199-198]

ركب بالريح من التجارة في أيام الحج. فإذا دفعتم بعد غروب الشمس راجعين من "عرفات" -وهي المكان الذي يقف فيه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة- فاذكروا الله بالتسبيح والتلبية والدعاء عند المشعر الحرام -"المزدلفة"-، واذكروا الله على الوجه الصحيح الذي هداكم إليه، ولقد كنتم من قبل هذا الهدى في ضلال لا تعرفون معه الحق.¹ وقد تضمنت معنى الشرط، { فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ } ذكراً حسناً يليق بمقامه، وعظيم سلطانه على الوجه المستحق ليس من باب الترغيب أو الترهيب وإنما لأتته جدير بالعبادة والثناء.

_ قال تعالى: { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } (98) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ } (99).² فهذه الآية الكريمة وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التي جاءوا بها، فهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم... فأراد أن يبين حقيقة حالهم في الواقع، وهي أنهم أعداء الحق وأعداء كل من يمثله ويدعو إليه، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكائيل الذي يزعمون أنهم يحبونه. وأنهم كانوا يؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه، ومعاداة القرآن الكريم كمعاداة سائر الكتب الإلهية لأن المقصود من الجميع واحد فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر، وهذا من ضروب إيجاز القرآن الكريم التي انفرد بها.³ وجملة الشرط تفخيماً وتعظيماً لشأنه ولملائكته ورسله، وجوابها إذعاناً بأن عداوتهم إنما هي عداوة له سبحانه وتعالى.

¹ - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 31-32

² - سورة البقرة: الآية [98]

³ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 148

وفيما أسلفنا الذكر؛ يُستبين، أنّ لذة الجمال الفنّي في الخطاب القرآني تتأتّى من بلاغة الانتقاء الأسلوبي للوحدات التركيبيّة، ناهيك عن المثيرات النصّية والمحفّزات الذهنيّة التي تُصعد أفق توقّع المتلقّي إلى مبتغى القول، فيستلزمُ بذلك وعياً دقيقاً بمقاصده. فهذا البناء النّصاني يُبيّن بدقّة كونه لوحة فنيّة متكاملة الأجزاء من ناحية الصّوغ اللّغوي، الطّرز التّشكيلي، النّظم الدّلالي، المقاس الصّرفي... ما ينمّ عن طاقة جماليّة خلّاقة يتميّز بها عن بقية الخطابات ولما كان كذلك، كان من الطّبيعي أن يلتفت في تشكيّله لهذه البنية إلى العناصر التي تحقّق الاتساق والانسجام، كونها تركيبٌ فنّي متكامل البناء، ذلك أنّ الحياكة التكوينيّة لبنيتها تشغل أساساً على خلق التّضافر الأسلوبي، بحيث يكون لكلّ عنصر فنّي دلائل مخصوصة تخدم القوة الفاعلة في تشكيل الخطاب وتمتين روابطه، والجملة الشرطيّة من بين الوحدات المُلزّمة بتأدية وظائفها اللّسانية تُجاه النّصّ، وهذا ما ألفيناه على مستوى سورة البقرة.

ثالثاً: مُقتضى العدول القرآني؛ بين حمل المعنى وكسر الأفق

إبانة:

بادئ ذي بدء، نُحيل؛ أنّ المعاني تبقى رهينة توقعها الذهني حتى يُسرّحها صوغها اللفظي. فنُحدّد من خلاله الهيئة التي تستعرض بها فكرها والمقصد الذي تروم إليه. والاستبصار المعرفي الذي تُثبّره المقاربات النصّية حول الخطاب القرآني يُعبد امتداداً تطلّعيّاً إزاء أسرارها ما يُتيح لنا التكهّن بعظمته والتنبؤ ببعض جمالياته، وبالنظر إلى مسألة التّركيب اللّغوي فإنّ الاجتهاد البحثي ينغمس في إطار رصد الإمكانيات الأسلوبية، والاستعمالات الدّلالية التي يتضمّنّها الخطاب، ما يُرجعنا طوعاً إلى إشكالية نظرية النّظم ومذاهبها. وإن كان النّظم ما هو في جوهره؛ "إلاّ توحيّ معاني النّحو في معاني الكلم".¹ فإنّ هذا المبدأ يسوقنا إلى التّذكير " بأنّ النّظم في مُجمله أن تضع الكلام في الوضع الذي يقتضيه علم النّحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه فلا تزيع عنها.² وبالتالي فالمبتغى العلمي الذي يسعى إليه الدّارس الأسلوبي؛ مساءلة منازل التّركيب اللّغوي في كيفية تكوينها للمعاني وتشبيدها للنّصّ، ولعلّ أبلغ استثمار أسلوبيّ يرتكز عليه الخطاب القرآني للإبانة عن رسائله هو المُقتضى الإنزياحي الذي يكسر المألوف لِيُنشئ نسقه الجمالي.

وبالنظر إلى دائرة المفاهيم والرّوى الفكرية حول معاني العدول يمكن القول " أنّها قد توسّعت وتكاثفت ممّا جعله يكتسب تنوعاً دلاليّاً ومعجميّاً يمنحه خصوصيّة التّميّز، باختراق قوانين اللّغة في

¹ - المصدر نفسه، ص: 233

² - عبد القاهر الجرجاني (471هـ): دلائل الإعجاز، ص: 55

إطار ما يقرُّه الاستعمال اللُّغوي وتجاوز حدود المألوف بحسب ما تؤدِّيهِ وظيفة الكلمة.¹ وبالرجوع إلى المعاجم اللُّغوية نستشفُّ أنَّ لِمادة (ع.د.ل) معانٍ عدَّة، منها ما ذكره الخليل: " عدل الشَّيء نظيره... والعدل أن تعدل الشَّيء عن وجهه فتميله... وعدلت الشَّيء أقمته حتى اعتدل... والعدل: الطَّريق... والانعдал: الانعراج."² و أبان صاحب المعجم الوسيط عن معناه بقوله: "عدل عدلاً وعدولاً مال، ويُقال عدل عن الطَّريق حاد، وإليه رجع..."³ ما يُحيل عمومًا إلى؛ الميل، الانحراف، الانصراف، الحيَّاد والخروج... وما أكَّده ابن الأثير (360ت هـ) "أنَّ العدول عن صيغة من الألفاظ لا يكون إلَّا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخَّاه في كلامه إلَّا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارها، وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كلِّ كلام، فإنَّه من أشكال ضروب علم البيان، وأدقَّها فهمًا، وأغمضها طريقًا"⁴.

أمَّا في الدِّراسات الحديثة فقد عبَّر عن هذه الظَّاهرة بمصطلحات عديدة منها: "الانحراف، الانزياح، الاختلال، الانتهاك، التَّجاوز، المخالفة اللَّحن، خرق السَّنن، الإطاحة، التَّحريف(...)"⁵ في حين أنَّ عبد السَّلام المسدي قد رجَّح أنَّ عبارة الانزياح هي " ترجمة حرفية للفظ (écart) على أنَّ

¹ - خيرة حمرة العين: شعرية الإنزياح دراسة في جمال العدول، دار اليازوري، الطبعة الأولى، الأردن، 2011م، ص:

² - الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهدي (170هـ): العين، تح؛ مهدي المخزومي، دار الرشيد، دط، بغداد، 1928م، مادة عدل، ص: 160.

³ - الفيروز آبادي أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب (817هـ): القاموس المحيط، مؤسسة الرِّسالة، الطبعة

الثَّانية، بيروت، 2005م، ص 1030

⁴ - ضياء الدِّين بن الأثير نصر الله بن محمد (637هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعر، تح؛ بدوي

طبَّانة، دار نهضة مصر، الطبعة الثَّانية، الفجالة- القاهرة، الجزء الثَّاني، ص: 168

⁵ - عبد الحميد أحمد يوسف هنداي: الإعجاز الصِّرفي في القرآن الكريم، ص: 142

المفهوم ذاته يمكن أن نصطلح عليه بعبارة التّجاوز، أو نحیی له لفظة عربيّة استعملها البلاغيون في سياق محدّد، وهي عبارة العدول، وعن طريقة التّوليد المعنوي قد نصطلح بها على مفهوم العبارة الأجنبيّة¹.

وعموماً نستخلص أنّ ظاهرة العدول هي أسلوب استثنائيّ مُغاير للمألوف محمولاً بشحنة من القيم الجماليّة وبطاقة هائلة من المعاني قد يعجز عن إيصالها في كثير الحالات الأداء اللّغوي المباشر، لذا يعتبر هذا النوع من الفنون من أسمى ما يجنح إليه التعبير اللّغوي، كونه أشد تأثيراً وأبلغ وقعاً لدى المُتلقي، من أوجه استعمالاته على مستوى سورة البقرة نلّفي:

01: التقديم والتأخير: وقد أشاد إليه عبد القاهر الجرجاني واصفاً: " هو باب كثيرُ الفوائد، جمّ المحاسن، واسعُ التّصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويُفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً، يروّقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجدُ سبب أن راقك، ولطف عندك أن قدّم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكانه إلى مكان² من صوره:

***صورة تقديم الخبر على المبتدأ:** من أنماط وروده على مستوى سورة البقرة نلّفي:

_ قال تعالى: { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) }³. انزلوا إلى الأرض بعضكم لبعض عدو، ولكم فيها منزل وموضع استقرار⁴. على

¹ - عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة، تونس، 1982م، ص 100

² - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 72.

³ - سورة البقرة: الآية [36]

⁴ - يُنظر؛ نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 81

مستوى النصّ نلتبس عدولاً في النظام التركيبيّ للجملة من حيث تقديم الخبر { لَكُمْ } وتأخير المبتدأ { مُسْتَقَرٌّ } والمستقر؛ هو موضع الاستقرار والثبات، إلى حين انقضاء الأجل وتمامه؛ ما يُحيل أنها ليست دار قرار وإنما ما هي إلا دار تعمير ومتاع زائل، ويُحتمل أن يكون المراد من الضمير لكم التوزيع أي؛ ولكل واحد منكم في الأرض مستقرّ ومتاعٌ إلى حين، وإنما كان ذلك متاعاً لأنّ الحياة أمرٌ مرغوبٌ لسائر البشر.¹ وتقديم الخبر إحالة لما هُيأ لهم في الأرض وسخره لهم إلى حين تمام الأجل وانقضائه.

_ قال تعالى: { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } (10).² في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } وقال تعالى: { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } وقال تعالى: { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادْنَاهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ } فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى }.³ وتقدير العدول هنا بتقديم الخبر { فِي قُلُوبِهِمْ } على المبتدأ { مَرَضٌ } بغرض التخصيص، وإشعاراً بأنّ التفاق قد تمكّن منهم، فوظيفة تقديم الخبر في هذا السياق إبراز منشأ مساوئ أعمالهم، واستعير هذا المصطلح للدلالة على هلاكهم الروحاني لإصرارهم على الكفر، فزادهم الله رجساً على رجسهم، ومرضاً على مرضهم، لأنهم عدلوا عن الحق صمّاً وعمياناً.

¹ - ينظر؛ الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتأويل، الجزء الثاني، ص: 437

² - سورة البقرة: الآية [10]

³ - ينظر؛ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 42

- قال تعالى: { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) }¹. استحوز عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون.² والمراد بهذه الاستعارة التغطية عليه والاستيثاق منه حتى لا ينفذ إليه شيء، ولا يُستبدل ما فيه إلا بما يتملكه، وتقديم الخبر في هذا السياق على المبتدأ {غِشَاوَةٌ} إذعانٌ صريح بأن الله قد طبع على حواسهم وجوارحهم وأوصدها فلا ينفذ إليها الحق أبداً جزاءً لعنادهم ونفورهم.

_ قال تعالى: { وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) }.³ له المشرق والمغرب وما بينهما، فأينما حلّ الإنسان وتحرّى القبلة المأمور بالتوجه إليها فهناك جهة الله المطلوب منها استقبالها. وذيلت الآية بقوله إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ لإفادة سعة ملكه أو سعة تيسيره على عباده في أمر الدين. أي؛ إن الله يسع خلقه جميعاً برحمته وتيسيره وهو عليم بأعمالهم لا يخفى عليه عمل عامل أينما كان وكيفما كان.⁴ وتقدير العدول بتقديم الخبر على المبتدأ؛ { وَلِلَّهِ } التخصيص بالذكر، وترميزٌ للملك المطلق لكل شيء فأَيْنَمَا تُولُّوا وجوهكم فإنكم لن تخرجوا عن ملكه وسلطانه فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، وفي هذا إثباتٌ أنه عليم بسرّائركم ونياتكم، فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر ويسرّ لكم طرق العباداة.

*صورة تقديم خبر الناسخ: من أنماط وروده على مستوى سورة البقرة تُلفي:

¹ - سورة البقرة: الآية [07]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 174

³ - سورة البقرة: الآية [115]

⁴ - يُنظر؛ نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 178-179

- قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (114).¹ لا أظلم وأشدَّ جرمًا، مِمَّنْ مَنَعَ مساجد الله، عن ذكر الله فيها، وإقامة الصَّلَاة وغيرها من الطاعات.² ومورد العدول تقديم الخبر { كَانَ لَهُمْ } والتقدير ما كَانَ ينبغي لهم دخولها، إِلَّا خوفًا ووجلًا من العقوبة ما لخصَّ أخلاقيات وآداب دخول بيوت الله سبحانه وتعالى.

- قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (94).³ إِنْ كَانَتْ الْجَنَّةُ مَخْتَصَةً بِكُمْ، وسالمة لكم دون غيركم، وليس لأحد سواكم فيها حق، فتمنَّوا الموت إِنْ كنتم صادقين في دعواكم، لأن من أيقن أنَّه من أهل الجنة اشتاق إليها وأحب الوصول إليها، ثم أخبر الله أن هذا التمني لن يحصل منهم فقال: وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ أَي بسبب ما ارتكبه من كفر ومعصية والله عليم بالظالمين الذين وضعوا الأمور في غير موضعها، فادَّعوا ما ليس لهم ونفوه عمَّن هو لهم.⁴ وموقع الانزياح { كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ } - بأسلوب استفهامي إنكاري- إظهارًا لافتراءهم وإفشاءً لأباطيلهم، توبيخًا وتهكمًا ممَّا يدَّعون.

- قال تعالى: {وَوَضَعْنَا عَلَىٰ كُفْرَانِهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّانَ وَاتَّقُوا اللَّهَ تَأْتِيكُمْ الرِّزْقُ مِنْ غَيْرِ مَوْضِعِ الْمَنَىٰ} (57).⁵ تذكيرٌ بما أنعمه الله عليهم وبما سخره لهم مُبَدِّيًا كفرانهم وجحدهم بتلك النعم، وَمَا ظَلَمُونَا يَعْنِي بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره

¹-سورة البقرة: الآية [114]

²- عبد الرحمن بن ناصر السَّعْدِي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 63

³- سورة البقرة: الآية [94]

⁴- نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 145

⁵- سورة البقرة: الآية [57]

معصية العاصين، كما لا تتفعه طاعات الطّائعين، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ فيعود ضرره عليهم.¹ وبلاغة العدول { كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } بتقديم الخبر في هذا السياق للقصر؛ أي اقتصار الضرر على أنفسهم. وإيجاز وإشعار بجناياتهم وكفرهم للنعم وتبييناً أنّ كفرهم لا يتخطاهم لغيرهم.

ومما تقدّم نلاحظ أنّ ظاهرتي التّقديم والتّأخير من أهم سمات اللّغة العربيّة، ما يدلّ على اتّساعها ومرونتها ومقدرتها على احتواء جملة من المقاصد في تركيب معين يقتضيه السياق. ونلاحظ كذلك أنّ هاته الظّاهرة في الخطاب القرآني مرتبطة بالمعنى، ما يستلزم تقديم ركن معين للإشادة به على وجه التّعظيم، التّفخيم، التّبشير، التّهويل... ما يؤدي دوراً كبيراً في إبراز غايته وتحقيق وظيفته لدى المتلقّي.

02_ الحذف في سورة البقرة: استعمال الحذف بمعنى الإسقاط والسقوط وما تصرف منها.²

01_ الحذف في الجملة الاسمية: نحو قوله تعالى: {صُمُّ بُكْمٌ عُُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18)}.³

"هم مع ذلك (صمّ) لا يسمعون خيراً (بكم) لا يتكلمون بما ينفعهم (عمي) في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى : (فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [الحج : 46] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة".⁴ وهذا إخبار لمبتدأ

¹ - عبد الرحمن بن ناصر السّدي: تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المّنّان، ص: 52.

² - سلمان سالم رجاء السحيمي: الحذف والتّعويض في اللّهجات العربيّة، مكتبة الغرباء الأثريّة، الطبعة الأولى،

دت، السعوديّة، ص: 106

³ - سورة البقرة: الآية [18]

⁴ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 186.

محذوف عائد لضمير المنافقين، ووصف تقريريّ عن سدّ حواسهم عن الحقّ، فلا ينفذ إليها أبداً. وليس المقصود نفي الإدراك عن حواسهم وإنّما نفيها من جهة رفضها للحقّ وإصرارها على الباطل.

_ قال تعالى: { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (117).¹ "هو بارئها وخالقها وموجدّها من غير أصل ولا مثال يحتذبه... يبيّن بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنّه إذا قدر أمرًا وأراد كونه، فإنّما يقول له : كن".² فقد استهلّت الآية بخبر لمبتدأ محذوف؛ إبرازاً لمظاهر قدرة الله، في الخلق والإبداع على غير احتذاء أو اقتداء فضلاً عن عظم سلطته وقوة ملكوته.

_ قال تعالى: { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (185).³ يمدح تعالى شهر الصّيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصّه بذلك، قد ورد الحديث بأنّه الشّهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء".⁴ والقول { شَهْرُ رَمَضَانَ } خبر لمبتدأ محذوف مستأنف لبيان حرمة وعظمته واستثنائه بالتّناء لتشرّفه بنزول أقدس الكتب السّماوية. هداية للنّاس إلى الحق واشتماله على المعارف الغيبية والمقاصد الشرعية.

¹ - سورة البقرة: الآية [117]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 392.

³ - سورة البقرة: الآية [185]

⁴ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 501.

_ قال تعالى: { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) }.¹

"وقوله تعالى: (ثم توليتكم من بعد ذلك): ثم بعد هذا الميثاق المؤكّد العظيم تولّيتكم عنه وانتيتكم ونقضتموه (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) أي : توبته عليكم وإرساله النّبيين والمرسلين إليكم (لكنتم من الخاسرين) بنقضكم ذلك الميثاق في الدّنيا والآخرة".² - لولا حرف امتناع لوجود شرط غير جازم، { فَضْلُ } مبتدأ مرفوع، والخبر محذوف وجوباً تقديره موجود، {اللّٰه} لفظ جلاله مضاف إليه مجرور - وهذا النّوع من الانزياح يحملُ تصريحاً بما منّ الله به على بني إسرائيل من قبول وعفو، فلولا فضله ولطفه الذي وسعهم لكانوا من الخاسرين لحدود النّعمة ، ونقض العهد ، وفي هذا التّذكير تحذير لهم من السيّر على طريقتهم، ودعوة لهم إلى الدّخول في الإسلام وإتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

_ قال تعالى: { فَهَرَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) }.

³أي كسروهم بنصر الله وتأييده إجابةً لدعائهم، ولولا دفع الله الذين يُباشرون الشرّ والفساد، لفسدت الأرض ولبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها من الحرث والنّسل، وسائر ما يعمر الأرض ويُصلحها".⁴لولا حرف شرط غير جازم، دفعُ مبتدأ مرفوع، وخبره محذوف وجوباً، وتقدير الحذف أنّه لولا نصرُ الله وتأييده وستره للمؤمنين على المُفسدين لفسدت الأرض ومن عليها.

¹ - سورة البقرة: الآية [64]

² - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 287.

³ - سورة البقرة: الآية [251]

⁴ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، الجزء الأول، ص: 245.

02_ الحذف في الجملة الفعلية: نحو قوله تعالى: { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ

قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) }¹. تعداد لصفات المتقين بالإيمان بما أنزل على النبي من القرآن وسائر الكتب السماوية، وكذلك يقينهم بالدار الآخرة.² وموضع العدول { أُنزِلَ إِلَيْكَ } أنزل فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو، إليك جار ومجرور؛ إحالة لتخصيصهم بسمة الاتقاء وتنزيههم عما كانوا عليه سالفًا قبل نزول الكتب السماوية وإشعارًا بتمسكهم بأصول الشرائع عامة.

_ قال تعالى: { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25) }³. "هذه الآية بشارة للمؤمنين وعدة لهم".⁴ ودلالة العدول { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا } بحذف الفاعل، لغرض وصف الجنة وما تحتويه ووصف ثواب المؤمنين وتعظيم جزائهم تبشيرًا وترغيبًا وحثًا على الاتقاء والعمل الصالح.

قال تعالى: { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27) }⁵. هذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد: (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن

¹ -سورة البقرة: الآية [04]

² - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 31

³ - سورة البقرة: الآية [25]

⁴ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 58

⁵ - سورة البقرة: الآية [27]

يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) ، إلى أن قال : (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) [الرعد : 19 - 25] وتأويل العدول في حذف الفاعل { أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ } ؛ تقديره ، يقطعون وصل ما أمر الله به ، كقطع الأرحام ، والإعراض عن موالاته المؤمنين ، وترك الجماعات المفروضة ، وعدم وصل الأقوال الطيبة بالأعمال الصالحة....¹ وفيه إحالة إلى صفات الذين اتَّبَعُوا سبيل غير الحق من الصفات الدنيئة والقبیحة.

_ قال تعالى: { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (60).² واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى ، عليه السلام ، حين استسقاني لكم ، وتيسيري لكم الماء ، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم ، وتقجيري الماء لكم منه من اثنتي عشرة عينا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها ، فكلوا من المن والسلوى ، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعثه لكم بلا سعي منكم ولا كد ، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك . (ولا تعنوا في الأرض مفسدين) ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها ".³ حذف المفعول به وتقديره ؛ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى اللَّهَ لِقَوْمِهِ ؛ فمنّ عليهم بالماء ويسّر لهم إخراجه. من غير سعي أو مشقة. وفيه تذكير بنعمة الله وفضله على عباده بالمساندة والاستجابة.

¹ - ينظر ؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 206.

² - سورة البقرة: الآية [60]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 278.

ومما تقدّم نستأنف القول أنّ أسلوبية الخطاب القرآني مُبنية على ترتيب الألفاظ وتتاسقها وحسن انتقائها، ومزية التركيب القرآني إنّما يكون في حسن اختياره لوحداته اللسانية وحسن ترتيبها ومرونة تسلسلها ما يترتب على ذلك إنتاج المعنى في أبلغ صورة وأفصح بيان، حتّى وإن تطلّب الأمر التنازل على بعض الوحدات الجمالية قصداً للفظ ووفاءً للمعنى.

استدلال ختامي:

وتأسيساً على ما تقدّم يُمكن الاعتبار؛ أنّ الوقوف على الوحدات التركيبية تحسباً لدلائلها، هو بحث عن التعدّد الوظيفي للبنى الفاعلة والقوى المتّدة بين ثنّيات الخطاب، وبالأخص حينما نتّجه صوب محمولاتها الأسلوبية وكلّ ما يُولّد طاقة فنيّة تُدير الأجزاء النصّية نحو التّكامل المطوق بزِيّ سَوِيّ يُلَاقُ بُنْيَتَهَا، وتبعاً لذلك نستخلص:

_ أنّ الاستواء الفني يقتضي أسلوبياً؛ الاتّحاد الجمالي بين النّظم اللّغوي والبُرة الفاعلة الدّالة لتوسيع حدود الخطاب، وبالتالي لا يمكن البتّة من أن نفصل تركيباً فنياً عن بنياته المُضمرة لأنّها - وبأبسط معانيها - تسويغٌ فني لمسارها البنائي.

_ الخطاب القرآني؛ تركيبة فنيّة متماسكة على مستوى الوحدات اللّسانية الجمالية سواء الفعلية وما تنتجه حركيّتها أو الاسمية وما يترتب عن ثوابتها.

_ وبالنّظر إلى بلاغة العدول التركيبية؛ أمكن الحكم إجمالاً أنّ للكلمة القرآنية سلطنتها، من حيث فاعلية التركيب والإسناد، إذ أنّها تتفاعل فينسقها بوتيرة وانسجام دلالي مُنظم، فلا تلحظ نفوراً أو هشاشة في تركيبها، إذ تُساند الوحدات اللّغوية بعضها بعضاً في تحقيق التّكامل الأسلوبي والانسجام الدّلالي. والملاحظ كذلك أنّ ثمة هندسة أسلوبية في تركيب الأطراف اللّغوية في سياقها

الخاص، وهذا ما يجعل بنية الخطاب القرآني في غاية العمق والنّماسك. وورود الانزياحات

الأسلوبية المفاجئة في نسقها التركيبي تسعى لتحقيق سلاستها اللغوية وتكاملها الجمالي الأسر
ونُظمها المتآزر، ما يؤكد أنّ المفردة القرآنية تُفوذها في تشكيل الخطاب.

الفصل الرابع

الانتقاء القرآني للنظم الدلالي

" إنَّ معرفة النّظام والرّبط تعدل معرفة نصف

القرآن، فمن فاته النّظام والرّبط فاته شيءٌ كثير

من فهم روح القرآن...

أبو العلاء

أولاً: سمات النّظم القرآني.

ثانياً: الأثر الفني للتّصوير القرآني.

ثالثاً: التّضافر الأسلوبي للحقول الدلالية.

الحدّ المنهجي وأفق التساؤل:

لا ريب؛ أنّ البلاغة القرآنيّة خلقت تامّة، تامّة، مستويّة القوام. فلجمال القرآني سلطة لا تُضاهيه سلطة، ومُدرسة آية من آياته كفيلة بأن تشرّع نوافذ الإبداع والتأويل، وتُشيد صياغتها أعلى مدارج التلقي، فلا ييأس الدّارس الأسلوبيّ ولا ينخدل، فيستمرّ دائماً على إفشاء مُضمراته وتصعيد ذخائره، ويكأنّه يسدّ عليه منافذ النّفور ويؤصّدها بإحكام حتّى يجتنبه إليه، إلى الحدّ الذي يجعله يستيقن العظمة في إعجازه.

وللفظ القرآنيّ؛ دلائل عميقة ومقاصد مخصوصة. وكذلك هو الشّأن بالنّسبة لمعناه؛ صوغٌ يكتسيه ويُسدّل عليه، فتمدّد دلائلها امتداداً وتزداد أواصره تمتّاً، فتنبسط في هكذا موضع، وتقبض في موضع آخر حينما تُغيّرها، فتلمحها هنا في غاية الإتقان والاسترسال، ومن ثمّ ترمقها هناك في مُنتهى الاعتياص والتّراخي والاختناق لأنّه وببساطة؛ اللفظ لا يُورق إلّا في كنف منبته.

الأمر الذي لا سبيل إلى بلوغه بغير الاستقراء الأسلوبيّ والتّشخيص النصّاني للروابط البنائيّة لأجزاء النصّ، بعضها ببعض من ناحية، وعلاقتها السياقية من ناحية أخرى، فالوقوف على ظاهر اللفظ دون أن نتخطّى عتبه الشّكلية لمكمنه سيوقعنا حتماً في متاهة لن تُخلصنا البتة إلى الحقيقة المُثلى، والنّظرية الأسلوبية تقتضي فنّيّاً وعلميّاً؛ اقتحام النّظم الدّلالي للخطاب القرآني.

وإنّ كان مُحتمّاً علينا النّظر إلى أبعاده الأسلوبية فإنّه مُقرّر علينا مبدئياً أن نَسَلَّ إلى معرفة طبيعة العلاقات التي تُقيم هذا النّظم ضمن سياقه الخاصّ، فضلاً عن مواضع التّصوير القرآني ومعالِم اتّساقه الفنّي ناهيك عن اقتناص أنساقه الدّلالية إن كانت فصيحة بارزة أو مُستكنة متوارية تستدعي تعميق الفهم وتطوير مسالك التّأويل، وهو ما نحاول أن نتبناه على مستوى هاته المقاربة

وفق الإشكال التالي: ما دلائل الانتقاء القرآني لآليات النظم الدلالي؟ وتأسيساً على هذا التصور

فإننا سنقتصر على المسائل التالية:

أولاً: سمات النظم القرآني.

ثانياً: الأثر الفني للتصوير القرآني.

ثالثاً: التضافر الأسلوبي للحقول الدلالية.

فأخر ما نُدلي به ضمن هاته المباحث الأسلوبية - ولعلّه أكثر المباحث الأسلوبية إقتراناً بالإشكالية الرئيسة- بلاغة الانتقاء القرآني للنظم الدلالي؛ كونه نظامً فني يتأسس على جذعٍ كُلّي يتفرّع أفناناً حسب نمطية الوجهة والسياق، أنّ بلاغة لفظ؛ إحاطةً للمعنى تضيئاً للدلالة وظُفراً بالمقصد. فهذا المكسب الأسلوبي يضعنا أمام قسمةٍ سوّية تستلزم أحدهم الآخر، وإنّا لا نلغي خصوصيتها إلّا فيمن اشتمل على فنون القول، واطّلع على سرائر البلاغة ولن نحصي تلك السمات مورداً إلّا في متن الخطاب القرآني جملةً وتفصيلاً.

أولاً: سِمَات النّظْم القرّانيّ:

إبانة:

الاعتناء القرّاني بالشّأن اللّغوي؛ سرٌّ لا يخفى على أهل اللّغة العربيّة عموماً والدّارس الأسلوبية بشكل خاص وليسست هذه الدقّة في الأداء القرّاني بموجب الإفصاح والإبراز فحسب وإنّما بموجب استعلاء القيم الفكرية والفضائل الإنسانيّة والمقاصد الدينيّة وتوصيلها بأبلغ صورة وأوضح بيان. فتسمو الوظائف الفنيّة للخطاب بالتأثير والإبلاغ والإقناع، وما تفجّرت ينابيع الفنون وعيون البلاغة إلّا من صدوع هذا السموّ اللّغوي السّامق.

وبذلك لا يكفي أن تكون الألفاظ قد استعملت استعمالاً دقيقاً، إذ لابد من أن يكون هناك اختيار وتوقيع للألفاظ بعضها إلى جانب بعض من أجل إيجاد بنية فنيّة ما. ويتجلّى هذا التّشديد على النّاحية الفنيّة، بالإضافة إلى النّاحية الدّلاليّة.¹ فمن أعجب ما يحقّق الإعجاز أنّ معاني هذا الكتاب العظيم، لو ألّبت ألفاظاً أخرى من نفس العربيّة، ما جاءت من نمطها وسمتها والإبلاغ ذات المعنى... ولو تولّى ذلك أبلغ بلغاؤها ولو كان بعضهم لبعضهم ظهيراً، فقد ضاقت اللّغة عنده على سمعتها حتى ليس فيها لمعانيه غير ألفاظه بأعيانها وتركيبها.²

¹ - علي مهدي زيتون: الإعجاز القرّاني وآلية التّفكير النّقدي عند العرب، دار الفارابي، الطبعة الأولى، لبنان،

2011م، ص: 282

² - ينظر؛ مصطفى صادق الرّافعي: إعجاز القرآن، ص: 248.

فالمسألة إذن ليست مسألة تشكيل لوحة فنية متناسقة الألوان والتراكيب وإنما هي مسألة خطاب سامي منزّه عن الزلل. ومن تلقاء هذا التصور نجل سمات النظم القرآني على النحو التالي:

01_ المسحة اللفظية القرآنية: إنها مسحة عجيبة تتجلّى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، ونريد بنظام القرآن الصوتي اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته واتّصالاته اتّساقاً عجيباً وائتلافاً رائعاً يسترعي الأسماع ويستهوّي النفوس بطريقة لا يُمكن أن يصل إليها أيّ كلام آخر من منظوم ومنثور، ونريد بجمال القرآن اللغوي تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته ترتيباً دونه كلّ ترتيب ونظام تعاطاه النّاس في كلامهم وبيان ذلك أنّك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصّحيحة تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات هذا ينقرّ وذاك يصفرّ وهذا يُخفي وذاك يُظهر وهذا يهمس وذاك يجهر إلى غير ذلك ممّا هو مقرر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم التّجويد، ومن هنا يتجلّى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى النّاس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة الجامعة بين اللّين والشّدّة والخشونة والرّقة والجهر والخفية على وجه دقيق محكم وضع كلّاً من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان حتى تألف من المجموع قالب لفظي مدهش وقشرة سطحية أخاذة امتزجت فيها جزالة البداوة في غير خشونة برقة الحضارة من غير ميوعة وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكلّ يسر وسهولة ولقد وصل من هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز بحيث لو داخل في القرآن شيء من كلام النّاس لاعتلّ مذاقه في أفواه قارئيه واختلّ نظامه في آذان سامعيه.¹

¹ - محمد عبد العظيم الزّرقاني: مناهل العرفان، دار الكتاب العربي، الطّبعة الأولى، 1995م، بيروت، الجزء

الثاني، ص: 234.

02_ القصد في اللَّفظ والوفاء بحقّ المعنى: هذه خاصّة لم تُعرف لغير القرآن، فإنّ أبلغ البلغاء

من النَّاس لا يستطيع أن يأتي بكلام لفظه مختصر ومعناه وافٍ، وهو إن اتَّفَق له في الموضع الواحد والموضعين، فلا يتَّفَق له في جملة كلام، شعراً أو نثراً، وما هو بحاصل إلّا على كلام نسبيّ، غير مطرد، بحسب ما أُوتِي، من إلهام وتوفيق، فأبلغُ البلغاء إذا حفل باللفظ أضّر بالمعنى، وإذا حفل بالمعنى أضّر باللفظ...¹ ومعنى هذا إنك في كلّ من جمل القرآن تجدُ بياناً قاصداً مقدّراً على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية دون أن يزيد اللَّفظ على المعنى أو يقصّر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتّقتير تجده قد جلى لك المعنى في صورة رائعة متكاملة وافية بالمُرَاد.²

03_ جودة السّبك وإحكام السّرد: وبيان ذلك أنّ القرآن تقرّؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم

السّرد، دقيق السّبك، متين الأسلوب، قويّ الاتّصال، أخذ بعضه برقاب بعض، في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كلّهُ، من ألفه إلى يائه، كأنّه سبيكة واحدة، ولا يوجد بين أجزاءه تفكّك ولا تخاذل... نظّمت حروفه وكلماته، ونسّقت جملة وآياته، وجاء آخره مُساوفاً لأوله، وبدأ أوله موأنيّاً لآخره.³

04_ تعدّد الأساليب واتّحاد المعنى: اعتنى الخطاب القرآني بتصريف القول فجاء بالمعنى الواحد

بألفاظ متعدّدة وطرق مختلفة... فتجده يُعدّد الأساليب في أداء المعنى الواحد بألفاظ متعدّدة بين

¹ - ينظر؛ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني: خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، الطّبعة

الأولى، 1992م، القاهرة، الجزء الأول، ص: 163.

² - ينظر؛ محمد عبد العظيم الزّرقاني: مناهل العرفان، الجزء الثّاني، ص: 324.

³ - ينظر؛ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: خصائص القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الطّبعة الثّامنة،

الرياض، 1998م، ص: 39.

إنشاء وإخبار وإظهار وإضمار... وامتتان ووصف ووعد ووعد... وتصريف القول منة الله على عباده ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءة وسماعاً.¹

05_ الجمع بين الإجمال والبيان: الإجمال والبيان أمران متقابلان لا يجتمعان في كلام واحد إن وجد الأول اضمحل الثاني، وإن وجد الثاني زال الأول، أما في القرآن فلا عجب من أن يجتمعا البيان والإجمال في آية واحدة منه. تقرأ الآية القرآنية فتجد من الوضوح والظهور ما يُبَوِّئها درجة القمّة بأسلوب محكم خال من كلّ غريب عن الغرض، يسبق معناه إلى نفسك من دون كدّ ذهن ولا إعادة تلاوة، حتى تحسب نفسك قد أحطت بكلّ معناها لم يبق منه شيء، فإن أعدت النظر مرة أخرى لاح لك منها معانٍ جديدة... ومعانيها لا تزال تفيض حتّى ترى للآية الواحدة وجوهاً متعدّدة تدرك منها ما تدرك ولو نظر فيها غيرك لرأى وجوهاً لم تطلّع عليها.²

06_ أنه لا يعلو على إلهام العامة و لا يقصر عن مطالب الخاصة: و معنى ذلك أنّ القرآن الكريم يُخاطب العامة و الخاصة و هذا مطلب لا يدركه الفصيح و لا يتأتاه البليغ، فإمّا أن يأتي الكلام للعامة و إمّا للملوك الخاصة، و إمّا نجد الكلام المبتذل، أمّا في القرآن الكريم فنجد على أتمّ الوجوه و أكملها.³

07- حفظ اللغة العربية: تنقسم اللغة العربية إلى قسمين: لهجات بائدة، و لهجات باقية... و نزول القرآن بهذه اللهجة جمع الناس على لغتهم فقضى على مواطن الخلاف، و محى جوانب الاختلاف و هدّب عباراتها و ارتقى بالأسلوب، و حفظ اللغة بعد أن لاحت في الأفق من الذبول و

¹ - ينظر؛ المرجع نفسه، ص: 42-44.

² - ينظر؛ المرجع نفسه، ص45

³ - ينظر؛ المرجع نفسه، ص: 34.

الاندثار، و حال دون سريان اللهجات المحلية و انتشارها، و أصبح سدّاً منيعاً دون دخول الكلمات الأعجمية التي تضعف هذه اللغة أو توهن قوتها، أو تفكك كيانها.¹

08- الأخبار الغيبية: و من وجوه إعجاز القرآن الكريم نذكر " أنباء الغيب التي لم يحضرها محمد صلى الله عليه و سلم و لم يحضر وقتها و لم يكن على علم بتفصيلاتها فيدخل الغيب بهذا المفهوم عمّا ورد في القرآن الكريم كبداية نشأة الكون، خلق آدم عليه السلام، العرش، الكرسي (...) و كذلك يشمل ما غاب عن سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم في وقته من الحوادث التي كانت تحدث فكان يتنبأ بها عن طريق الوحي مثل ذكر كيد اليهود و المنافقين.² و الإعجاز الغيبي له ثلاثة جوانب و هي:³

أ- غيب الماضي: أي الأخبار عن الأمم السابقة غيباً مثلاً ذكر قصة مريم عليها السلام: { إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) }.⁴ و هذه الآية تبين أنّ القرآن الكريم هو من عند الله تعالى، و قد أوحى فيه ذكر أحداث و قصص القدامى فنجد كذلك قصة نوح عليه السلام، يوسف، موسى و فرعون...

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص 69.

² - ينظر؛ المرجع نفسه، ص: 87.

³ - مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن الكريم، دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الرياض،

1996م، ص: 279 .

⁴ - سورة آل عمران: الآية [44]

ب - **غَيْبُ الحَاضِرِ:** و يُقصد به ما جرى في عصر الرّسول صلى الله عليه و سلم من حوادث لم يحضرها، ثم نزل القرآن متضمناً لها و مُخبراً بحقيقة ما جرى و من هذا القبيل نجد ما أخبر عن أساليب المنافقين الملتوية في إدخال الوسواس في قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُئْسَ الْمَصِيرُ (8) }¹ فالقرآن الكريم كشف مجموعة من الحقائق في عهد الرّسول صلى الله عليه وسلم ليعرف الأعداء و المنافقين من المسلمين.

ج- **غيب المستقبل:** و يُقصد به ما ذكره القرآن الكريم من حوادث ستقع مستقبلاً - سواء بتحديد أو من غير تحديد - في قوله تعالى: { غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) }² حيث تضمن القرآن الكريم جملة من أنباء الغيب لم يشهدا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم و ذلك ليكون على دراية بما سيجري مستقبلاً.

09_ أنه لا يُصادم الحقائق العلميّة: إذ يستحيل التناقض و التعارض بين الحقائق القرآنيّة و الحقائق العلميّة، حيث عرض الكثير من مظاهر هذا الوجود كخلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار، و خلق الإنس و الجن، و جريان الشّمس و القمر و تحدث عن الكواكب و النّجوم، و عن أطوار الجنين و البحار و الجبال...³ في قوله تعالى: { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ

¹ - سورة المجادلة: الآية [08]

² - سورة الروم: الآية [03-02]

³ - ينظر؛ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان: خصائص القرآن الكريم، ص: 75-76.

مِنْ تَقَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) }¹ . يصف الله عز و جلّ قدرته على خلق الموت و الحياة و خلق السموات. فالعلم لا يسقط و لا يصادم كلمة من كلمات القرآن أو حقائقه. وقال أيضا: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) }² . و بذلك كان الإعجاز العلمي في القرآن الكريم مستدركا لحقائق كونية علمية لم يتوصل إليها أحد قبله فتم تثبيتها و التأكد منها و بذلك لم يحصل أي تعارض مع تلك الدراسات العلمية الأخيرة.

10- إعجازه: هو علمٌ جليل و عظيم فصار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظم التأليف مضمناً أصح المعاني من توحيد الله تعالى و تنزيهه في صفاته جلّ جلاله و دعوة إلى طاعته و بيان لطريق عبادته.³ في قوله تعالى: { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23) }⁴. أما الكفار فكانوا لجهلهم وحيرتهم يفترون على القرآن الكريم.

¹ -سورة الملك: الآية [03-02]

² -سورة المؤمنون: الآية [14-12]

³ - ينظر؛ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (794هـ): البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل

إبراهيم، دار التراث، د ط، القاهرة، دت، الجزء الثاني، ص: 103.

⁴ - سورة الزمر: الآية [23]

وبالتالي؛ فالنظام الأسلوبي الذي يسطو على الخطاب القرآني كائنٌ في نظمه، أي في دقّة انتقائه للمُفردة، ثم إنشائها في بناءٍ يُلائمها وإفراغها في نسقها الخاص، فتبلغُ من المعنى تمامه ومن القصد أعلى مراتبه. وهكذا، حتى تكتمل أجزاء الخطاب، فتراه كُلاً مُتسقاً صورةً ومعنىً.

ثانيًا: الأثر الفني للتصوير القرآني

إبانة:

إنّ القول بأنّ النصّ بنية نسقيّة دالّة؛ فإنّ هذا التّصور يسوقنا مبدئيًّا إلى مجابهة إشكالية الانتقاء الوظيفي للنّظم الدّلالي، ما يعبرُ بنا إلى مكاشفة معايير الاختيار الأسلوبي، وهذا إن صحّ التعبير مبلغُ هذه الدّراسة وقوامها، فأساس بل روح الخطاب، إن جاز الوصف؛ بلاغة الكلمات وما تحتويه من دلائل وهو السّبيل كذلك لمعرفة الحقل المُعجمي الذي انسلّت منه وتولّدت من لدنه، وبالتالي؛ السّمات الأسلوبية لهذا الخطاب هي الغاية المتوخّاة.

وقد أمكنَ الحُسبان أنّ التّصوير القرآني هو الأداة المُثلى للنّمثيل والتّشخيص؛ فهو الأسلوب الأنسب للتّعبير عن المعاني المجرّدة بالصّور البلاغيّة والإفصاح عن الذات الإلهية وعظمتها في الخلق والتّسيير والرّحمة فضلًا عن انعكاسات الكون وتحركاته وقصص الأولين والآخريناهيك عن استحضار الماضي ومسايرة الواقع والتنبؤ بغيبات المجهول... فحسبه إعجازًا أن يُجسّد ذلك بالكلمة؛ بوتر موسيقاها، وتركيب مبناها، وتضافر معناها.

وخلاصة ذلك؛ أنّ التّعبير القرآني اعتمد على التّصوير الفنّي لتّشخيص الحدث وتمثيل مواقفه بالتّدقيق مُراعياً الزّمن والسيّاق، والمقصد، واللّون... كلّها تتدرج تحت ما يُسمّى بالنّظم التّصويري. فالتّصوير؛ "ملمحٌ أساسي في النصّ القرآني يتضافر في تحقيقه اللفظ برنينه الصّوتي، والجملة بتراكيبها المتّنوعة، وبنغماتها الدّاخلية، والفاصلة بإيقاعها المتلائم مع النّسق اللفظي والسيّاق العام، والمشهد الحي، بتكريس التّصوير فيه إلى التّجسيد الحي، حركة وتأثيرًا... وهذه المنظومة لجماليات التّصوير تتوالى في سياق دلالي، فتُعطي للمعنى عمقًا وللهدف الدّيني نفادًا إلى أعماق النّفس

البشرية، فتَهْزَأُ هُزْأً".¹ وتتحدّد القيمة التّصويرية للقرآن الكريم وبراعته في؛ إثارة الدّوات الفاعلة، وتحفيز العواطف، وتشغيل الدّهن، ما يسهم في ترسيخ الصّورة وتثبيتها لدى المتلقّي.

وإنّ كانت الصّورة؛ صوغٌ لِسَانِي مخصوص يجري بواسطته تمثّل المعاني، تمثّلاً جديداً ومُبْتَكراً يُحِيلُهَا إلى صورٍ مرئية معبّرة.² فإنّها في حقيقة الأمر عدولٌ عن صيغ إحالية من القول، إلى صيغ إيحائية تأخذ مادتها التّعبيرية من تفاصيل الخطاب.³ ونقادنا العرب لم يغفلوا مسألة تصنيف الصّور إذ لخص عبد القادر الجرجاني مفهومها ودورها في التّعبير اللّغوي، وتجلّى هذا في دلالتها على التّجسيم وتقديم المعنى حرفياً والتّوكيد على نحوٍ خاص.⁴ لقوله: "إنّك ترى بها الجماد ناطقاً والأعجم فصيحاً والأجسام الخرس مبيّنة والمعاني الخفية باديةً جليةً إن شئتَ أرّتك المعاني اللّطيفة التي هي من خبايا العقول كأنّها جُسِمت حتى رأتها العيون..."⁵ والصّورة من هذا الاعتبار لم تعد تشير إلى الصّيّغة أو الشّكل فحسب، بل أصبحت شاسعة النّطاق، في قوله: "إنّ المعاني هي الصّور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان فكلّ وجود خارج الدّهن، فإنّه إذ

¹ - صلاح الدّين عبد التّواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية، الطّبعة الأولى، مصر، 1995م،

ص: 43

² - بشرى موسى: ملامح الصّورة الشّعريّة في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، الطّبعة الأولى، بيروت،

1994م، ص: 03.

³ - المرجع نفسه، ص: 03.

⁴ - بشرى موسى صالح: الصورة الشّعريّة في النقد العربي الحديث ، ص: 111.

⁵ - عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (471هـ): أسرار البلاغة، تح؛ محمود محمد شاكر، دار

المدني بجدة، دط، السعودية دت، ص: 41.

أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبّر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم.¹

وإنّا لا نُنكر أنّ هناك دراسات موسّعة وجادّة حول البلاغة العربيّة القديمة، تناولتها من جوانبها التاريخيّة والفنيّة، بحيث يمكن القول بأنّها غطّت مساحة واسعة من هذا المجال. ومن المعتقد أنّ هذا النوع من الدّراسة كاد أن يَسْتَوْفِي حقّه حتّى أصبح مُحتمّاً أن يتّجه البحث في البلاغة القديمة على نحوٍ يربطها بالبحث الأسلوبيّ الحديث، والإفادة في ذلك بكلّ العناصر الموروثة التي تمثّل في جوهرها قيماً تعبيرية تصلح كأساس لأسلبة البلاغة.²

ومن هذا المنفذ؛ يكون الحديث عن الصورة البلاغية في حقل الدّراسات القرآنية، باعتبارها مدخلاً للكشف عن القيم المنزاحة عن النّظام المألوف، ولأهميّتها البالغة في تشكيل اللّغة، وهذه الأهمية لا تظهر إلّا من خلال الوقوف على تَمَظْهُراتها لاستجلاء بلاغتها وقيمتها الفنيّة. والمتنبّع لمورد الصّور البلاغية في الخطاب القرآني يعني به التماس أحوال الصّيّغة اللفظية المطابقة لمقتضى الحال، المُنزاحة لأغراض بلاغية، وعلى هذا الأساس تتحدّد الصورة البلاغية حسب العلاقة التي نقيمها- فمنها علاقة المشابهة ومنها علاقة المماثلة، ومنها علاقة تناسبية... وتأسيساً على هذا نستهدف استخلاص دلائل الصّور البلاغية في الخطاب القرآني على النّحو التّالي:

1- الصّورة التّشبيهيّة: من الأساليب التّصويرية التي اعتمدها الخطاب القرآني "التّشبيه"، إذ يعرّفه عبد القاهر الجرجاني: "بأن تثبت لهذا معنى من معاني ذاك أو حكماً من أحكامه، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد، وللحجّة حكم النّور في أنّك تفضل بها بين الحقّ والباطل، كما يفضل بالنّور بين

¹ - المصدر نفسه، ص: 361.

² - محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، دار نوبار، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1994م، ص 01.

الأشياء"¹؛ فالتشبيه أسلوب تصويري للمدلول يقوم على المقايسة والمثابة، من مواضعه في سورة البقرة ذلك نلفي:

_ قال تعالى: { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) }.² يمضي سياق القرآن في ضرب الأمثال لتصوير شأن المنافقين، كشفًا عن طبيعتهم وتقلباتهم، وفَضْحًا لصفاتهم، فأطلق قوله: { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا } قد ضرب هذا المثل في قوم دخلوا الإسلام عند وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ثم تحولوا بعد ذلك إلى الكفر والنفاق فيقال في تطبيق هذا المثل عليهم: إِنَّ قصة هؤلاء المنافقين الذين اكتسبوا بإيمانهم نوراً ثم أبطلوا ذلك بنفاقهم، ووقعوا في حيرة عظيمة، كقصة من استوقدوا ناراً؛ فلما أضاءت ما حولهم، سلب الله منهم الضوء فراحوا في ظلام لا يهتدون إلى الخروج منه سبيلاً.³ وقد استسيع هذا النوع من الألوان البلاغية على سبيل التشبيه التمثيلي، فشبه حالهم بحال مستوقد النار للإضاءة ومن ثم تنطفئ ويذهب الله نورها، لتبيين حقيقتهم وهتك سترهم. واستدللاً على ما تحمله تلك الصفات فإنه يبتغي تفضيع حالهم وتقرير سوء عاقبتهم بتمثيل المشهد وإيضاح المقصد.

_ قال تعالى: { صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) }.⁴ وهم مع ذلك صُمٌّ لا يسمعون خيراً، بُكْمٌ لا يتكلمون بما ينفعهم، عُمِيٌّ في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج : 46] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا

¹ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص: 168

² - سورة البقرة: الآية [17]

³ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 43-44.

⁴ - سورة البقرة: الآية [18]

عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة¹. وقد سيغ على سبيل التشبيه البليغ، فوصف المنافقين بهذه الصفات لأنهم وإن كانت لهم حواس تسمع وتبصر، وألسن تحاور إلا أنهم لا يسمعون خيراً ولا يتكلمون بما ينفعهم ولا يبصرون ما يوجههم إلى طريق الحق، ما يُحيل أن الله عدل عن مساندته ووكّلهم إلى أنفسهم فلا ينفذ الخير إليهم أبداً جزاء لإصرارهم على العناد وإعراضهم عن الحق. والغرض من هذا التشبيه التّهم والازدراء وتحقير منزلتهم.

_ قال تعالى: { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) }.² فقوله سبحانه: { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ } يعني: أو مثلهم كصيب، أي: كصاحب صيب من السماء، وهو المطر الذي يصب، أي: ينزل بكثرة، فِيهِ ظُلُمَاتٌ؛ ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمات المطر، وَرَعْدٌ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب، وَبَرْقٌ وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب³... فهذا تمثيل لحالهم، حال فريق آخر من المنافقين يظهر لهم الحق تارة، ويشكون فيه تارة أخرى، حال جماعة يمشون في العراء، فيصب عليهم مطر شديد، تصاحبه ظلمات بعضها فوق بعض، مع قصف الرعد، ولمعان البرق، والصّواعق المحرقة، التي تجعلهم من شدة الهول يضعون أصابعهم في آذانهم؛ خوفاً من الهلاك. والله تعالى محيط بالكافرين لا يفوتونه ولا يعجزونه.⁴ وتكمن الدلالة الأسلوبية لهذا التشبيه التمثيلي في إيفائه لمعنى التّهويل والتقطيع وتجسيم صورتهم كأنها ماثلة أمام المتلقّي، وإنما تضرب الأمثال

¹ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 189.

² - سورة البقرة: الآية [19]

³ - عبد الرحمن بن ناصر السّدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المّان، ص: 44

⁴ - نخبة من العلماء: التفسير الميسر، ص: 04.

عموماً لإيضاح المُضمر، واستنطاق الجامد، واستحضار الغائب، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في القلوب، وأثبت في النفوس.

ومما تقدّم نستأنف القول أنّه الصّور التّشبيهية على مستوى سورة البقرة تمّ توظيفها لأغراض بلاغيّة ووصفية يمكن إجمالها في التّقرير، التّعظيم، التّهمك، المقايسة....

02_ الصورة الاستعارية: تعتبر الاستعارة من أبرز الأدوات الفنيّة لتشكيل الصّورة، والاستعارة عند أهل البلاغة؛ ضربٌ من التّشبيه ونمطٌ من التّمثيل، والتّشبيه قياس والقياس يجري بما تعيه العقول وتدرّكه القلوب وتستفتى فيه الأفهام والأذهان لا الأسماع والآذان.¹ ولا بد أن يكون للفظ أصلٌ في الوضع اللّغوي معروفٌ تدلّ عليه الشّواهد على أنّه اختص به حين وُضع،² أو بتعبير آخر؛ تصوّيرٌ بياني يجمع بين طرفين لعلاقة المشابهة، وهي في جوهرها ليست مجرد تشبيه، بل هي خلقٌ وإبداع... فالاستعارة تعيدُ صياغة العالم بعد أن تكون قد عكست واقعهُ، ومن هنا تأتي مهمّة القارئ المؤوّل للنصوص التي تمتحن مقدّرتُهُ على إظهار ما كان مُستتراً وراء الإبداع.³ من أوجه ورودها ثلّفي:

- قال تعالى: { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (7).⁴ استحوذ عليهم الشّيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم

¹ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص: 52

² - المصدر نفسه، ص: 29

³ - بول ريكور: الاستعارة الحية، تر: محمد الولي، دار الكتاب، الطبعة الأولى، بيروت، دت، ص: 06.

⁴ - سورة البقرة: الآية [07]

غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.¹ "استئنافٌ تعليلي لما سبق من الحكم، وبيان لما يقتضيه؛ أو بيانٌ وتأكيّدٌ له، والمراد بالقلب، محلّ القوّة العاقلة من الفؤاد، والختم على الشّيء الاستيثاق منه، فلا ينفذُ إليها الحقّ مطلقاً. أي؛ استوثقت قلوبهم بالختم لأنّها لا تجتلي آيات الله المعروضة."² حيث استعار لفظ الختم و الغشاوة على سبيل الاستعارة التّصريحية.³ فقد شبّه قلوبهم التي تعترض عن آياته سبحانه وأسماعهم وأبصارهم التي لا تسمع ولا تبصر الحقّ بالوعاء المختوم والمسدود لا ينفذُ إليه النّور أبداً، وتكمن وظيفة هذا النوع بتشبيه الذّهني بالمحسوس في توظيف مصطلح الختم كالختم على الأوعية أو الأبواب وإحكام إغلاقها فلا يُساقُ إليها الخير مطلقاً، لتقرير الحجب عن الصّلاح والامتناع التّام عن سبُل الهداية والصدّ عنها.

_ قال تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) }.⁴ والمعنى : ثم صلبت قلوبكم - يا بني إسرائيل - وغلظت من بعد ما رأيتم من معجزات، فهي كالحجارة في صلابتها، بل هي أشد صلابة منها، لأن من الحجر ما فيه ثقب متعدّدة، وخروق متّسعة، فتندفق منه مياه الأنهار التي تعود بالمنافع على المخلوقات، ولأن من بينها ما يتصدّع تصدّعاً قليلاً فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض والسّفح من خوف الله وخشيته.⁵ وقد استعيرت الشدّة والغلظة لعلاقة مشابهة بين قلوبهم

¹ - ينظر؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 174.

² - الرّمخسري: الكشف، الجزء الأول، ص: 165.

³ - ينظر؛ محمود صافي: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، الجزء الأول، ص: 44.

⁴ - سورة البقرة: الآية [74]

⁵ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 115-116.

والشيء القاسي. فلم تؤثر فيها الموعظة، مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَي: من بعد ما أنعم عليهم النعم العظيمة، وأنزل عليهم آياته النّاطقة ومعجزاته الباهرة، على سبيل الاستعارة المكنية. ¹للتوصيف مدى غلظتهم وجفائهم وبُعد منزلتهم عن الحق واستحالة الانتفاع بالخير.

_ قال تعالى: { مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيبَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) }. ²ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيبته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصّالحات من العمل الموافق للشرّعة فهم من أهل الجنّة . وهذا المقام شبيهه بقوله تعالى: { لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) } وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّٰلِحٰتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) }. ³حيث شبه الذّنوب بالجنود التي تحيط بهم على سبيل الاستعارة التّصريحية. ⁴واستُعيرت لفظة الإحاطة؛ للغلبة والاستيلاء فلا منفذ لهم من الشّرك.

إنّ الاستعراض الفنّي الرّفيع الذي يحظى به الخطاب القرآني يُنبئ؛ أنّ حسن الاستعمال اللّغوي للاستعارة من حسن الاختيار؛ فالاستعارة عادة ما تدرك على أنّها الصّيغة الأكثر جوهرية للّغة المجازية، والّلغة المجازية هي اللّغة التي لا تعني ما تقول". ⁵ولعلّ اتّساع اللّغة وانفتاحها من

¹ - ينظر؛ محمود صافي: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيان، الجزء الأول، ص: 166.

² - سورة البقرة: الآية [81]

³ - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، ص: 315.

⁴ - ينظر؛ محمود صافي: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيان، الجزء الأول، ص: 176.

⁵ - تيرنس هوكس: الاستعارة، تر؛ عمرو زكريا عبد الله، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2016م،

أبرز الدوافع التي تقتضي استحضار وتوليد نصوص إبداعية منزاحة عن المعيار المألوف وبالنظر إلى الخطاب القرآني تمتثل أمامنا القدرة الفائقة في التحكم في اللغة وتصريفها حسب ما يقتضيه السياق ويستلزمه المقصد.

03- الصورة الكنائية: حظيت الكناية كغيرها من الصور البلاغية باهتمام أهل الأدب والبلاغة العربية، ومما اتفق عليه أن الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه، كقولك: "فلان طويل النجاد" أي: طويل القامة و "فلانة تؤوم الضحى" أي: مرفهة مخدومة.¹ والسر في بلاغتها أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية في طيها برهانا (...) ومن أسباب بلاغتها أنها تضع لك المعاني في صورة المحسّات ولا شك أن هذه خاصّة الفنون، فإنّ المصوّر إذا رسم لك صورة للأمل أو لليأس بهرك ودعاك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحا ملموساً...² من أضرب ورودها في سورة البقرة نستحضر:

— قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} (10).³ والمراد بالمرض هنا: مرض الشكّ والشبهات والنفاق.⁴ والكناية في هذا السياق تشخيص لما تُكنّه ذواتهم من الشرّك والنفاق. أي كناية عن الجهل وسوء العقيدة.

¹ - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبيدع، دار الكتب العلمية، د ط، بيروت،

لبنان، د ت، ص 330.

² - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، د ط، بيروت، د ت، ص 293.

³ - سورة البقرة: الآية [10]

⁴ - عبد الرحمن بن ناصر السّدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 42.

_ قال تعالى: { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) }¹ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم وَالْمَسْكَنَةُ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهمهم أردأ الهمم، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فبئس الغنيمة غنيمتهم، وبئس الحالة حالته لكفرهم بِآيَاتِ اللَّهِ.² وَضُرِبَتْ هذه الصَّورة كناية عن الذلِّ والهوان الذي أحاط بهم بعد اعتراضهم وتعتنتهم عن سبيل الله، بالكفر وإيذاء المؤمنين والمرسلين.

_ قال تعالى: { فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (66) }³ أي : للذين كانوا قبل هذه العقوبة وعاشوا حتى شاهدوها، وللذين أتوا بعدها وعرفوا عن يقين خبرها. والمعنى : فجعلنا هذه العقوبة عبرة زاجرة لمن كان قبلها وعاش حتى رآها ولمن أتى بعدها وعلم يقيناً بحال العادين في السَّبَب الذين مسخوا بسبب عصيانهم تحذيراً له من أن يعمل عملهم، فيمسح كما مسخوا، ويحلَّ به العذاب الذي حل بهم. كما جعلناها أيضاً { وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } الذين يسمعون قصتها فهم الذين من شأنهم أن ينتفعوا بالعظات، ويعتبروا منها.⁴ كناية عن عقوبتهم؛ فجعلها الله عبرة مانعة من ارتكاب ما اقترفته الأمم السَّالفة والآتية، وخصه للمتقين لأنهم أشدهم تحسباً واعتباراً للردع والمنع.

¹ - سورة البقرة: الآية [61]

² - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 115-116

³ - سورة البقرة: الآية [66]

⁴ - نخبة من العلماء: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 114-115.

واستدلالاً لما تقدّم يمكن الاعتبار؛ أنّ الصّورة القرآنية قد جمعت بين الوظائف الفنّية والأغراض السّامية للخطاب، فاتّسمت بالاعتدال والسّداد بعيداً عن المبالغة والغلوّ وهذا ما يمكن أن نصطّح عليه بالتّوفيق الأسلوبي للخطاب القرآني.

فالتّصوير القرآني قيمة جماليّة تحقّق استنارتها من انزياحاتها الدّلالية وتمثيلاتها التّصويرية، وما نقصده القيمة التي تنشأ من علاقة المفاجأة بين أركان الخطاب، وما يعزز شعريتها فاعلية الانتقال من دلالة ظاهريّة إلى دلالة عميقة ضمن نسقها البنائي. ومن يطّلع على الخطاب القرآني يلفي بلاغتها النصّية من حيث الرّؤية والاستثارة والتّعاوض النصّي.

ثالثاً: التّضافر الأسلوبي للحقول الدّلالية.

إبانة:

نظرية الحقول الدّلالية؛ تقوم على أساس جمع كلمات اللّغة ووضعها في مجموعات، تختصّ كلّ مجموعة منها بمجال معيّن وترتبط معاني الكلمات فتوضع تحت مصطلح عام يجمع بينها، فدلالة الكلمة، تتحدّد من خلال علاقتها بالكلمات في المجموعة الدّلالية التي تنتمي إليها.¹ وفي ذات السّياق اعتبر جورج مونا Georges.M الحقل الدّلالي هو مجموعة من المفاهيم التي تتبني على علائق لسانية مشتركة، ويُمكن لها أن تكونَ بنية من بُنى النّظام اللّساني.² ما أمكننا الاعتبار أن نظرية الحقول الدّلالية تعتبر الطّريقة الأكثر حداثة في علم المعاني فلا تسعى إلى تحديد البنية الدّاخلية لمدلول المونيمات وحسب، وإنّما إلى الكشف عن بنية أخرى تسمح لنا بالتأكّد أنّ هناك قرابة دلالية بين مدلولات عدد معيّن من المونيمات.³

وبما أنّ الخطاب القرآني بنية لسانية؛ فالنّفاعل النصّي بين أنساقه قيمة جمالية محفّزة، والتّماسك الأسلوبي على مستواه اللّغوي يُفصح إجمالاً عن وحدته اللّغوية وجنكته الدّقيقة، كأنّها لوحة فنيّة واحدة أنسجت متكاملة الأجزاء مُتضافرة المقتضيات، وكلّ جزء منها يسعى إلى تحقيق غايته البلاغيّة في التّأثير الجمالي والتّكثيف الدّلالي.

¹ -حاتم صالح الضّامن: علم اللّغة، جامعة بغداد، الطبعة الأولى، العراق، 2006م، ص: 75.

² - سعيد تومي: تحليل تحليل الخطاب القرآني - دراسة أسلوبية تطبيقية لسورة الملك - الطبعة الأولى، دار المتّقف للنشر والتّوزيع، 2018م، ص: 170.

³ - المرجع نفسه، ص: 170 * نقلاً عن: أبو ناضر مورييس: مدخل إلى علم الدّلالة الألسني، ص: 35.

فمن أسرار البلاغة العربية وذوقها أن تساير الأساليب المختلفة وتتماشى مع المواقف والسيّاقات حسبما يتطلب المقتضى اللّغوي، والقرآن الكريم له نظمه العجيب وتركيبه الفريد، فكان من إعجازه أنّه أقام أبنية من النّظم الكلامي غير مستندة إلّا على ما بينها من تناسق هندسي، وتجادب روحي، ففيه صور كثيرة من هذا النّظم الذي يعتمد على تجاذب الكلمات وتعانق الآيات، فيكون ذلك رباطها الذي يمسك بها ويشدّ بعضها إلى بعض في وثاقّة وإحكام.¹ وتأسيساً على هذا فإنّنا نبتغي تلخيص أبرز الحقول الدلالية لسورة البقرة على النحو الآتي:

01_ حقل الذات الإلهية: إنّ سُلطة الخطاب القرآني تتأسّس بالدرجة الأولى على القيم الفنيّة التي يخلّقها، وعلى الأبعاد الدلالية التي يُنتجها، فهذه السّلطة تبدأ من قوّة الكلمة وبلاغتها، ومن يُمعن في بنيته على المستوى الأسلوبي يلحظ أنّ النّظم الدلالي هو أوسع المداخل البليغة، في استثماره للدّخائر اللّغوية وتداعياتها.

وبالنّظر إلى الأنساق الدّالة الحرّة التي يخلّقها نستشفّ أنّها بُنى تفاعليّة في إثرائها، أساسيّة في حضورها. وحسب تقديرنا - من خلال مُعينة السّورة التي بين أيدينا - فإنّ حقل الذات الإلهية؛ حقل مركّزي على مستوى الخطاب عامة وسورة البقرة بالخصوص وأكثرهم توسّعاً ووروداً. وضمّ هذا الحقل مُعجماً خاصاً به؛ أريد به توصيف الذات الإلهية وإبراز عظمتها وتشخيص دلائلها التي تستدعي التّوحيد والإجلال والثّناء، في مواضع عديدة من بينها قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ

1- عبد الكريم الخطيب: إعجاز القرآن، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، مصر، 1964م، ص: 269.

وَالْأَرْضَ وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255).¹ وقال أيضاً: { أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218).² وقال كذلك: { وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) }.³ وقال أيضاً: { رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129).⁴ (...).

والمتمأمل لمفردات هذا الحقل المعجمي بمختلف دلالاته وصيغته؛ الله، الحي، القيوم، العلي، العظيم، رحيم، سميع، علیم، الرحمن، الرحيم، الثواب، العزيز، الحكيم...يلفي أنها لا تخرج عن هدفها الأسمى وهو إبراز الذات الإلهية واستظهارها في أجود لفظ وأبلغ صورة. "لفظ الجلالة { الله } هو الاسم الدال على الذات الجامعة لصفات الألوهية، أما { الرحمن } هو واسع الرحمة في خلقه، مؤمنهم وكافرهم، في معاشهم ومعادهم. و { الرحيم } هو المعطي من الثواب أضعاف العمل. أما { الملك } فهو المتصرف في ملكه كما يشاء. و { الخالق } هو المبدع لخلقه بإرادته سبحانه وتعالى"⁵ (...) ودلالة التوظيف القرآني للفظ الجلالة عموماً يستدعي الإجلال، التوحيد، وتقدير عظمته ليس رهبة مما يملك أو رغبة فيما يملك وإنما لآتته جدير بالعبادة.

02_ حقل القدرة الإلهية: يتسم الأسلوب القرآني الكريم - فيما يتسم - بالمرونة والاتساق مع المشاهد واللوحات النابضة بحياة الموقف، حتى إننا لنجد الكلمة بذاتها تأتي في عدة سياقات ولها دلالة مختلفة في كل سياق بحسب ما يقتضيه المعنى ويتطلبه المقام "وما أشبه القرآن الكريم في

¹ - سورة البقرة: الآية [255]

² - سورة البقرة: الآية [218]

³ - سورة البقرة: الآية [163]

⁴ - سورة البقرة: الآية [129]

⁵ - محمد متولي الشعراوي: أسماء الله الحسنى، مطبوعات أخبار اليوم قسم الثقافة، دط، القاهرة، دت، ص: 10

تركيب إعجازه، وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذي اكتتفه العلماء من كل جهة، وتعاوروه من كل ناحية، وأخلقوا جوانبه بحثاً وتفتيشاً، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقاً جديداً، ومرماً بعيداً.¹ ومن الحقول الدالة التي شملها الخطاب القرآني حقل القدرة الإلهية.

من ذلك نلفي وروده: في قوله تعالى: { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) }². وقال سبحانه: { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) }³. وقال أيضاً: { أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77) }⁴. وقال أيضاً: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105) مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) }⁵. وقال سبحانه: { قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) }⁶ (...)

1- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 157.

2- سورة البقرة: الآية [20]

3- سورة البقرة: الآية [73]

4- سورة البقرة: الآية [77]

5- سورة البقرة: الآية [107]

6- سورة البقرة: الآية [33]

فقد ضمّ هذا الحقل معجمًا خاصًا به مثل؛ شاء، مخرج، يعلم، ينزل، نأت، له ملك (...ولعلّ أبرز القوى الفاعلة في هذه النصوص الدالة على مضمونها؛ إبراز القوة المطلقة والقدرة العظيمة لله سبحانه وتعالى في التحدي والخلق والإحياء والبعث... وبالمقابل هذه القدرة لم تقتصر على هذا فقط وإنما حتى في رحمته قد شملت الخلق كافة في استجابة الدعاء وتيسير أمور الخلق ورفع البلاء واحتواء الضعيف وجبر المكسور. وبالتالي فالغرض الوظيفي لهذا النوع من الحقول الدلالية تصوير الإدارة الإلهية في الخلق والقضاء والتسيير وقد أثبتنا الإعجاز العلمي والبلاغي للخطاب القرآني.

03_ حقل الوعظ والتّهذيب: إنّ جمالية التعبير القرآني آلية فنية يُقصدُ من ورائها تحقيق فضيلة

معينة، والتّعانق المشهدي للخطاب لم يكن له أن يتأتّى بمعزل عن معانيه، فهو ليس عملاً فنيًا مقصودًا لذاته، بقدر ما هو وسيلة لتبليغ أركان الدّعوة الإسلاميّة، والعمل على تثبيتها وتعميقها بالإقناع التّأثير. وهذا ولا شكّ يؤكّد أنّ التّصوير المشهدي للخطاب القرآني قصد هذه الطّريقة ليحقّق التّآلف بين الغرض الدّيني والغرض الفنّي الجمالي، لتحقيق التّأثير الوجداني في المتلقّي.¹ ومن الأغراض التي يستهدفها الخطاب القرآني الوعظ والتّهذيب. من ذلك قوله سبحانه: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)}² وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ

¹ - لطفي فكري: جمالية الخطاب في النصّ القرآني، مؤسسة المختار، الطّبعة الأولى، القاهرة، 2014م، ص:

² - سورة البقرة: الآية [177]

عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179).¹ وقال سبحانه: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) }² وقال تعالى: { وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (123) }³ وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154) }⁴ وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) }⁵ (...)

ومن خلال ما تقدّم أمكن القول أنّ سلطة الأخلاق القرآنية؛ أسست نظاماً فكرياً تربوياً قائماً على مداراة الذات الإنسانية بكلّ توجهاتها وأعرافها وأصولها تحقيقاً لمصلحة الذات والآخر. وإبراز الغاية العظمى من الخلق هي الغاية المتوخاة. والمفردات الدالة على هذا الحقل عديدة منها: الصلاة، البرّ، الزكاة، القصاص، الصبر، الإحسان، النّفقة، الصيام، الجهاد (...). فمن سمات هذا الحقل عموماً: التّفنّ في استعمال الأمر بالفضائل الأخلاقية والنّهي عما يمسّها، الاستناد إلى أساليب التّرجيب والتّرهيب والوعد والوعيد، محاوره العقل والتأثير في النفوس، الدّعوة إلى بناء الذات

¹ -سورة البقرة: الآية [178-179]

² -سورة البقرة: الآية [110]

³ -سورة البقرة: الآية [123]

⁴ -سورة البقرة: الآية [153-154]

⁵ -سورة البقرة: الآية [183]

وإصلاحها قولاً وفعلاً. مخاطبة الإنسانية عامة بمختلف طبقاتها ومستوياتها... والمتأمل للخطاب القرآني يلحظ أن هذا الغرض يستهدف بالدرجة الأولى الإقناع والتوجيه، بلغة بليغة واضحة تستفهم العقل، وتستدرج المتلقي، حثاً على التّهذيب وتخليصاً للأنفس.

04_ حقل الجزاء والعتاب: استخدم الخطاب القرآني تقنيات الحوار ووظفها توظيفاً جمالياً بصورة رائعة، جعلت من المشهد القرآني آلية تواصلية فعالة تسهم في توصيل الرسالة وخلق التواصل مع المتلقي، واعتماد الخطاب على هذه التقنية تحديداً لأنه يستقطب السامع بالدرجة الأولى فيستثير في ذاتيته الدافعية والقبول. والفكرة المسيطرة والغالبة على هذه المشاهد الدعوة إلى الله وسبل الوصول إليها، بالمقابل تُلفيه مُفصلاً في الجزاء والعقاب ترغيباً وترهيباً من مخالفة طريق الحق، من ذلك قوله سبحانه:

_ قال تعالى: { ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) }¹ وقال أيضاً: { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (86) }². قال تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) }³.

¹ - سورة البقرة: الآية [85]

² - سورة البقرة: الآية [86]

³ - سورة البقرة: الآية [261]

وقد اعتمد هذا الحقل على ثلثة من المفردات لتكوين نسقه الخطابى من ذلك: الجنة، النار، الحساب، أجر، أنهار، الكافرين، المؤمنين، المنافقين، المسلمين (...). فقد أورد الخطاب القرآني نصوصاً مكثفة من الأساليب الإصلاحية التربوية؛ كالتبشير بالجنة والتّهويل من العقاب. في قول ابن جزي: " تأمل القرآن تجد الوعد مقروناً بالوعيد، قد ذكر أحدهما على إثر ذكر الآخر، ليجمع بين التّرجيب والتّرهيب وليتبيّن أحدهما بالآخر".¹ والهدف من ذلك إبراز ضوابط العمل الأخلاقي وتعظيم شرائع الله ومقاصده؛ بإتباع الحق والزّجر عن الباطل. واستعلاء القيم الإنسانية والأخلاقية التي تسوق الدّات إلى مدارج السّداد والتّوفيق.

إنّ التّموذج اللّغوي القرآني تتّسع دلالاته لتشمل المقصد الفنّي والمطلب الدّيني، فتنبّئت على وتيرة واحدة من الانسجام التّدرجي والحركة المنتظمة والموسيقى البارزة والتّركيبة المثبتة والصّور البليغة. وبالنّظر إلى التّأزر الأسلوبي للحقول الدّلالية فإنّنا نستنتج بدهاء أنّ بنية الخطاب القرآني تتأسّس لغويّاً وفنّيّاً على استعلاء القيم الأخلاقية لأنّها السّبيل الأمثل لمعرفة الدّات الإلهية وتعظيمها.

استدلال ختامي:

لمعالجة قضية الانتقاء القرآني للنّظم الدّلالي؛ ينبغي أولاً مراعاة خصوصية العلاقة بين اللّغة والمعنى داخل المنظومة النصّية. وهو ما يمنح الخطاب قراءة واضحة تتجاوز المستوى الظّاهري باشتغاله التّشكيليّ إلى المستوى البنائيّ الدّال على البنية العميقة، ما يعصم القارئ من الوقوع في تأويلاته المشتتة تجاه الخطاب القرآني. وامتثالاً لهذا الطرح نستبين ما يلي:

¹ - مريم حسين علي محمد السادة: المنهاج القرآني في البناء الأخلاقي للإنسان وأثره في رواد مراكز القرآن الكريم

وعلموه في دولة قطر، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في التّفسير وعلوم القرآن، جامعة قطر، كلية الشريعة

والدراسات الإسلامية، 2018م، ص: 91. * نقلاً عن؛ ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل، الجزء الأول، ص: 15

_ أن بنية الخطاب القرآني تمتاز بالتلاحم والتكامل الجمالي بين أجزائها، فكلّ وحدة تشدّ الوحدة التي تسبقها والتي تليها، ممّا يُدلل على الوحدة الانسجامية والترابطية بين أنساقه. ناهيك عن الحنكة التشكيلية والمقدرة على الانتقال من موقف لآخر بالاعتماد على تقنيات لسانية عدّة؛ كالتوصيف الإيجاز والمحاورة.

_ ولا نستثني براعته الفنية في التصوير بالتشخيص والتجسيد، ممّا يُسهم في استثارة ذهنية المتلقّي وتعميق رؤاه الفكرية والدلالية. وأهم ما يمتنّ الجانب البلاغي في الخطاب القرآني اعتماده على التركيب المفتعل بين التشكيل اللغوي والامتداد الرؤيوي المحفوف بالتأمل والنّحفيز الجمالي.

_ والحديث عن كسر أفق التّوقّع على المستوى الدلالي في الخطاب القرآني لا نربطه بالأداء اللفظي وتركيبته وإنّما بمضمونه وبما يخلّفه من تكثيفٍ إيحائيٍّ وانسلاخٍ دلاليٍّ.

_ وبالنّظر للنّظم الدلالي للخطاب القرآني؛ فإنّنا نلفي اتّساق وحداته اللّغوية بحسب مقتضاه الدلالي، ولو ندقّق في قاموسه اللّغوي نستشفّ أنّه وليد جملة من الحقول المعجميّة تتباين وتتعاقد فيما بينها لتكوّن نسقية النصّ وعمقه الجمالي.

خاتمة

الاحتدام الفكري بين مستجدات الحداثة وأصول التراث العربي ولد كمًا هائلًا من التساؤلات حول مقاربة الوضع المعرفي لأسرار الخطاب القرآني وإدراك ضوابط إعجازه، والمسوغ التأسيسي الذي اعتضدت به هاته النظرية يتماهى إجرائيًا مع الاستثمار النقدي لتلك البنى اللسانية والأبنية الصياغية التي شيد بها، تحقيقًا للاستجابة المثلى للظاهرة القرآنية، دون المساس بسيادتها. فلئن كان الأسلوب القرآني صوغًا استثنائيًا وانتقاءً محكمًا، فإن الأسلوبية لإبراز لمحاسن اللغة ووعي جمالي بقيمة النظم، وتحري معق بمكن الخطاب وهيئته.

وإن كان المبتغى العلمي؛ يضطلع إلى الكشف عن آليات التشكيل الأسلوبي التي بُنيت بها الخطاب القرآني داخل منظومته البنائية فنيًا ولغويًا، فقد اقتضى الوصول إلى مقصد هذا الإشكالية استتطاق الأبعاد الدلالية للبنى وجمالياتها الفنية، يمكن تلخيص ذلك في النقاط التالية:

أولاً: المتأمل للأداء القرآني في سورة البقرة يلحظ أن كل وحدة من وحداتها الصوتية خاضعة لميزان دقيق ومترن، فقد استعمل القاموس القرآني جملة من الألفاظ واختار أصواتها بما يتناسب ودلالاتها، فكانت دالة على ذاتها معنى، مبنى وسياقًا. وبذلك فقد شكّلت المادة الخام واللبننة الأساس في تشكيل الخطاب.

ثانيًا: التوظيف القرآني للصيغ الصرفية في سورة البقرة؛ نستطيع القول أنه الأداة المثلى لمعرفة حدود وضوابط الكلمة، فالإمكانات الأسلوبية التي تزخر بها كل صيغة يؤهلها لتتشئة مبناها وصياغة معناها وفقًا للسياق الذي يقتضيها.

ثالثًا: التعاضد اللغوي القرآني على مستوى سورة البقرة؛ تركيبة مؤسسة دلاليًا و فنيًا. ما يخلق خطابًا متماسكًا تطغى عليه سمة التكاثف الدلالي والتعاضد النصي وهذا ما تلمحه على مستوى الوحدات اللسانية

الجمالية؛ الفعلية والاسمية والبحث عن أسرار الجملة القرآنية ما هو إلا استطلاع على خواص الإعجاز اللغوي أو بالأحرى بحث عن مكامر الإعجاز التركيبي وقوانينه.

رابعاً: الاكتساح الجمالي الدلالي الذي ظفرت به سورة البقرة، يقودنا قدماً إلى بلاغة متينة تشيّد منافذ الإبداع بمختلف أصنافه وفنونه. فالثنية التي يفنل بها تقاسيم بنيته ويحبكُ بها أنسجة مفاصله تستلزم منا إعمال العقل وتقديم البرهان لكل ظاهرة، فالخطاب القرآني قد أعطى لكل كلمة سلطتها وضاعف من فضائلها في الإفصاح والتأثير والبناء.

وفي النهاية سيظلّ هذا الخطاب واقعاً أسلوبياً فريداً، وإعجازاً بيانياً لا منتهى لدلائله سواء من ناحية الأداء أو اللغة أو الدلالة. ألا إن الموسيقى؛ إنما هي بمقاديرها في الأداء تبليغاً وتأثيراً لا بمقاديرها في التشكيل إيقاعاً وتتغيماً. ألا إن المعاني؛ إنما هي بمقاديرها في المباني إثراء وإيحاء لا بمقاديرها في التركيب حشواً ووضعاً. ألا إن الصيغة؛ إنما هي بمقاديرها في القياس طويلاً وتمكيناً، لا بمقاديرها في الاستواء هيئةً وتصميماً. ألا إن كلمة الله شامخة، حرفها منحة تنزيلها شرف وصونها أمانة.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً_ التّفسير:

- 1_ بركات عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفي (710هـ)
_ مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل، تح؛ سيد زكريّا، مكتبة نزار، الطبعة الأولى، 2009م،
الجزء الأول
- 2_ بهجت عبد الواحد الشّخيلي
_ بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، إعرابًا وتفسيرًا بإيجاز، مكتبة دنديس، الطبعة الأولى،
الأردن، 2001م، الجزء الأول
- 3_ أبو السعود بن محمد العمادي (945هـ)
_ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التّراث، الطبعة الأولى، لبنان، دت،
الجزء الأول
- 4_ سيّد قطب
_ في ظلال القرآن، دار الشّروق، الطبعة الأولى، مصر، 2003م
- 5_ عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي
_ تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المّنّان، تح؛ عبد الرّحمن بن معلا اللّويحق، مؤسّسة
الرسالة، الطبعة الأولى، لبنان، 2002م
- 6_ أبو عبد الله بدر الدّين الزّركشي (794هـ)
_ البرهان في علوم القرآن، تح؛ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، الطبعة
الأولى، لبنان، 1990م
- 7_ أبو عبد الله محمد الرّازي فخر الدين (604هـ)
_ التّفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1981م، بيروت، الجزء الثالث،
الرّابع.
- 8_ عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل بن كثير (774هـ)
_ تفسير القرآن العظيم، تح؛ حكمة بن بشير بن ياسين - سامي بن محمد السّلامة، دار ابن
الجوزي، الطبعة الأولى، السعودية، دت، الجزء الأول

9_ قاسم محمود بن أحمد الخوارزمي الزمخشري (538هـ)

_ الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح؛ عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد العوض، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، الرياض، 1998م، الجزء الأول

10_ محمد الطاهر بن عاشور (1393هـ)

_ تفسير التحرير والتنوير، تح؛ الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى، تونس، 1984م، الجزء الأول

11_ محمد بن يوسف أبو الحيان الغرناطي الأندلسي (745هـ)

_ تفسير البحر المحيط، تح؛ عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، لبنان، 1994م، الجزء الأول

12_ محمود صافي

_ الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه - مع فوائد نحوية هامة - دار الرشيد، الطبعة الثالثة، بيروت، 1995م، الجزء الأول

13_ نخبة من العلماء

_ التفسير الميسر، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، القاهرة، دت

14_ نخبة من العلماء

_ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مطبعة المصحف الشريف، د.ط، 1992م، دب، الجزء الأول

ثانياً_ المعاجم:

1_ أحمد مختار عمر

_ معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة، 2008م، الجزء الثاني

2_ الخليل بن أحمد بن عمرو بن الفراهدي (170هـ)

العين، تح؛ مهدي المخزومي، دار الرشيد، دط، بغداد، 1928

3_ الفيروز آبادي أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب (817هـ)

_ القاموس المحيط، تح؛ محمد نعيم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت، 2005م

ثالثاً_ المصادر والمراجع العربية

- 1_ إبراهيم أنيس
_ الأصوات اللغوية، مطبعة نهضة مصر، الطبعة الأولى، لندن، دت
- 2_ أحمد الحملوي
_ شذا العرف في فنّ الصّرف، دار الكيان، الطبعة الثانية، الرياض، 1957م
- 3_ أحمد الهاشمي
_ جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، د ط، بيروت، د ت
- 4_ أحمد بن الحسين بن الخباز
_ توجيه اللّمع، تح؛ فايز زكي دياب، دار السّلام، الطبعة الثانية، مصر، 2007م
- 5_ أحمد ياسوف
_ جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، الطّبعة الثّانية، سوريا، 1999م
- 6_ إخوان الصّفا
_ رسائل إخوان الصّفا وخلان الوفا، مكتبة مكتب الإعلام الإسلامي، الطّبعة الأولى، طهران، 1984م، الجزء الأول
- 7_ بشرى موسى
_ ملامح الصّورة الشّعريّة في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1994م
- 8_ أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش موفق الدّين (643هـ)
_ شرح المُفصّل، الطباعة المنيرية، دط، مصر ، 2015م، الجزء السّابع
- 9_ أبو بكر محمد بن السّري بن سهل النّحوي بن السّراج(361هـ)
_ الأصول في النّحو، مؤسسة الرّسالة، دط، بيروت، 2012م، الجزء الأول
- 10_ تمام حسان
_ اللّغة العربيّة معناها ومبناها، عالم الكتب، الطّبعة الثّالثة، القاهرة، 1998م
- 11_ جرجي شاهين عطية
_ سُلّم اللّسان في النّحو والصّرف والبيان، دار ربحاني للطّباعة والنّشر، الطّبعة الرابعة، بيروت، 2005م

- 12_ جلال الدّين بن محمد عبد الرّحمن القزويني(739هـ)
_ الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني، البيان، البديع، تح؛ عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، لبنان، 1993م
- 13_ جلال الدين عبد الرّحمن بن أبي بكر الخضير السيوطي(911هـ)
_ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح؛ عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1980م، الجزء الأول
_ أسرار ترتيب القرآن، تح؛ عبد القادر أحمد عطا و مرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة. ط، القاهرة، 2002.
- 14_ جمال مرسلي
_ شرح المقدّمة الأجروميّة في علم النّحو، دار فيلتس للنشر، الطبعة الأولى، الجزائر، 2013م
- 15_ الحسن بن عبد الله أبي الهلال العسكري(395هـ)
_ الصّناعة في الكتابة والشّعر، تح؛ علي محمّد البجاوي، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت، 2013م
- 16_ حاتم صالح الضّامن
_ علم اللّغة، جامعة بغداد، الطبعة الأولى، العراق، 2006م
- 17_ حمد أبو سليمان الخطابي(388هـ)
_ بيان إعجاز القرآن، دار المعارف، الطبعة الثّالثة، مصر، دت
- 18_ خديجة عبد الرّزاق الحيدثي
_ أبنية الصرف في كتاب سيبويه، مكتبة النّهضة بغداد، الطبعة الأولى، 1964م، بغداد
- 19_ خيرة حمرة العين
_ شعريّة الإنزياح دراسة في جمال العدول، دار اليازوري، الطبعة الأولى، الأردن، 2011م
- 20_ ديزيرة سيقال
_ الصّرف وعلم الأصوات، دار الصداقة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1996م

- 21_ الرماني، الخطابي، عبد القاهر الجرجاني
_ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح؛ محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف،
الطبعة الثالثة، مصر، 1990م
- 22_ سعيد تومي
_ تحليل الخطاب القرآني - دراسة أسلوبية تطبيقية لسورة الملك- الطبعة الأولى، دار
المتقف للنشر والتوزيع، 2018م
- 23_ سلطان منير
_ بلاغة الكلمة والجملة والجمال، منشأة المعارف، الطبعة الأولى، الإسكندرية، مصر، دت
- 24_ سلمان سالم رجاء السحيمي
_ الحذف والتعويض في اللهجات العربية، مكتبة الغرباء الأثرية، الطبعة الأولى، دت،
السعودية
- 25_ سيد قطب
_ التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، الطبعة العاشرة، مصر، 1988م
- 26_ صبري إبراهيم السيد
_ لغة القرآن الكريم في سورة النور، دراسة في التركيب النحوي، دار المعرفة الجامعية،
الطبعة الأولى، جامعة عين شمس، الإسكندرية، 1994م
- 27_ صلاح الدين عبد التواب
_ الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية، الطبعة الأولى، مصر، 1995م
- 28_ ضياء الدين بن الأثير نصر الله بن محمد (637هـ)
_ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح؛ بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الطبعة
الثانية، الفجالة- القاهرة، الجزء الثاني
- 29_ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ
_ الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1984م
- 30_ عبد التواب النيومي
_ علم الأصوات اللغوية، المكتبة الأزهرية، الطبعة الأولى، القاهرة، 2009م
- 31_ عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي

_ الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم- دراسة نظرية تطبيقية التّوظيف البلاغي لصيغة الكلمة- المكتبة العصريّة، دط، بيروت، 2008م

32_ عبد السّلام المسدي

_ مباحث تأسيسيّة في اللّسانيات، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الطّبعة الأولى، بيروت- لبنان، 2010م

_ الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، الطّبعة الثالثة، 1982م

33_ عبد الصّبور شاهين

_ المنهج الصّوتي للبنية العربيّة- رؤية جديدة في الصّرف العربي- ، مؤسسة الرّسالة، الطّبعة الأولى، سوريا، 1980م

34_ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني

_ خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، الطّبعة الأولى، 1992م، القاهرة، الجزء الأول

35_ عبد القادر عبد الجليل

_ علم الصّرف الصّوتي، دار أزمنة، الطّبعة الأولى، الأردن، 1998م

_ علم اللّسانيات الحديثة، دار صفاء للطباعة والنشر، دط، عمان، 2002م

36_ عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمد الجرجاني (471هـ)

_ دلائل الإعجاز، تح؛ محمود محمد شاكر، دار الفكر، الطّبعة الأولى، دمشق- سوريا، دت
_ أسرار البلاغة، تح؛ محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، دط، السعودية، دت.

37_ عبد الكريم الخطيب

_ إعجاز القرآن، دار الفكر العربي، الطّبعة الأولى، مصر، 1964م

38_ عبد الكريم محمود يوسف

_ أسلوب في القرآن الكريم، مكتبة الغزالي، الطّبعة الأولى، دمشق، دت

39_ عبد الله بن صالح الفوزان

_ دليل السالك إلى ألفية بن مالك، دار المسلم، الطّبعة الأولى، الرّياض، 1999م، الجزء الأول

40_ عبد الله بن عقيل بهاء الدّين

- _ شرح ابن عقيل، دار مصر للطباعة، الطبعة العشرون، مصر، 1980م، الجزء الأول
- 41_ عبد المتعال الصّعيدي
- _ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، دار الأدب، الطبعة السابعة، القاهرة، 1999م
- 42_ عرفات فيصل المنّاع
- _ السّياق والمعنى - دراسة في أساليب التّحو العربي - منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، 2013م
- 43_ عصام شرتج
- _ النقد الجمالي بين سلطة النصّ وسلطة التلقّي، دار الخليج، الطبعة الثانية، عمان، 2017م
- 44_ علي بن عيسى أبو الحسن الرّماني (386هـ)
- _ التّكت في إعجاز القرآن الكريم، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مصر، دت
- 45_ علي مهدي زيتون
- _ الإعجاز القرآني وآلية التّفكير النّقدي عند العرب، دار الفارابي، الطبعة الأولى، لبنان، 2011م
- 46_ غانم قدوري الحمد
- _ المدخل إلى علم الأصوات العربية، دار عمار، الطبعة الأولى، الأردن، 2004م
- 47_ فاضل صالح السامرائي
- _ معاني الأبنية في العربية، دار عمار، الطبعة الثانية، 2007م، الأردن
- 48_ أبو الفتح عثمان بن جنيّ الموصلي (392هـ)
- _ سرّ صناعة الإعراب، تح؛ حسن هنداي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، لبنان، 2000م، الجزء الأول
- 49_ فضلحسن عبّاس
- _ البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، الطبعة الثّانية، الأردن، 1985م
- 50_ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

- _ خصائص القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الطبعة التاسعة، الرياض، 1998م
- 51_ أبو القاسم بن محمد بن سعيد المؤدّب (228هـ)
- _ دقائق التصريف، تح؛ حاتم صالح الضامن، دار البشائر، الطبعة الأولى، دمشق - سوريا، 2004م.
- 52_ كمال الدين عبد الغني المرسي
- _ فواصل الآيات القرآنية، المكتب الجامعي الحديث، الطبعة الأولى، القاهرة، 1999م
- 53_ كمال بشر
- _ علم الأصوات، دار غريب، الطبعة الأولى، القاهرة، 2000م
- 54_ لطفي فكري
- _ جمالية الخطاب في النصّ القرآني، مؤسسة المختار، الطبعة الأولى، القاهرة، 2014م.
- 55_ محمد أبو بكر الطيّب البقلاني (403هـ)
- _ إعجاز القرآن، تح؛ أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الأولى، مصر، 1997م، ص: 35.
- 56_ محمد أحمد معبد
- _ الملخص المفيد في علم التجويد، دار السلام، الطبعة الأولى، السعودية، 2005م.
- 57_ محمد بن عبد العظيم الزرقاني
- _ مناهل العرفان في علوم القرآن، تح؛ فواز أحمد زرلي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1995م، الجزء الأول
- 58_ محمّد حسن شرشر
- _ البناء الصوتي في البيان القرآني، دار الطباعة المحمّدية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1988م
- 59_ محمّد حسين علي الصّغير
- _ الصّوت اللّغوي في القرآن، دار المؤرّخ العربي، الطبعة الأولى، لبنان، 2000م
- 60_ محمد عبد العظيم الزّرقاني
- _ مناهل العرفان، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1995م، بيروت، الجزء الثاني
- 61_ أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي (466هـ)

_ سرّ الفصاحة، تح؛ عبد المتعال الصّعيدي، دار الكتب، الطبعة الأولى، بيروت، 1982م
62_ محمد عبد المطلب

_ البلاغة والأسلوبية، دار نوبار، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1994م
63_ محمد متولي الشعراوي

_ أسماء الله الحسنى، مطبوعات أخبار اليوم قسم الثقافة، دط، دت، القاهرة
64_ محمد محي الدين عبد الحميد

_ شرح ابن عقيل، دار التراث، الطبعة العشرون، القاهرة، 1980م، الجزء الثالث
_ التّحفة السّنية بشرح المقدّمة الأجروميّة، إدارة الشؤون الإسلامية، د.ط، قطر، 2007م
65_ مصطفى البغا، محي الدين مستو

_ الواضح في علوم القرآن، دار الكلم الطيّب، الطّبعة الثّانية، دمشق، 1998م
66_ مصطفى صادق الرّافعي

_ إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية، دار الكتاب العربية، الطبعة التاسعة، لبنان، 1973م
67_ مصطفى مسلم

_ مباحث في إعجاز القرآن الكريم، دار المسلم للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الثّانية، الرّياض،
1996م

68_ منذر عياشي

_ الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، سوريا، 2002م
رابعًا_ المراجع المترجمة:

1_ بول ريكور

_ الاستعارة الحية، تر: محمد الولي، دار الكتاب، الطبعة الأولى، بيروت، دت
2_ نعوم تشومسكي

_ بنیان اللّغة، تر: إبراهيم الكلثم، جداول، الطبعة الأولى، لبنان، 2017م
3_ تيرنس هوكس

_ الاستعارة، تر: عمرو زكريا عبد الله، المركز القومي للتّرجمة، الطبعة الأولى، 2016م،
القاهرة

خامساً_ الرسائل الأكاديمية:

1_ مريم حسين محمد السادة

_المنهاج القرآني في البناء الأخلاقي للإنسان وأثره في رواد مراكز القرآن الكريم وعلومه في دولة قطر، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، جامعة قطر، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 2018م

2_ وئام الحيزم

_ تأويل اللفظ والحمل على المعنى، بحث مقدّم لنيل درجة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2009م.

سادساً_ المجالات:

1_ : بلقنوشي علي

- التركيب القرآني: تشكلاته البنائية وإحياءاته النفسية، مجلّة المعيار، الجزائر، 2021م، العدد55، الجزء الخامس والعشرين

2_ يوسف حامد جابر

_النص الأدبي في اللسانيات البنوية : مجلّة علامات، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، مج 07، الجزء التاسع والعشرين